ذي النورين
عثمان بن عفان
الخليفة الثالث

دار [illegible] العلمية
بيروت - لبنان

دار [illegible] للتراث

اهداءات ٢٠٠٢
أ/ رشاد كامل الكيلانى
القاهرة

ذي النورين

عثمان بن عفــان

الخلـفة الثالث


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ذي النورين

عثمان بن عفان

الخليفة الثالث

تأليف

محمد رضا

مؤلف : محمد رسول الله ، وأبي بكر ، وعمر ،
وعلي ، والحسن والحسين

طبعة جديدة محققة ومضبوطة بإشراف الناشر

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الطبعة الثانية

١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م

بيروت – لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، وأحكم الحاكمين : والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

أما بعد ، فقد شاء الله سبحانه وتعالى أن أثابر على ما بدأت به من وضع كتب في التاريخ الإسلامي خدمة للمسلمين في جميع أقطار الأرض .

وهأنذا أتقدم إلى الباحثين والقارئين من أبناء اللغة العربية بالكتاب الرابع من سلسلة التاريخ الإسلامي في حياة « عثمان بن عفان » رضي الله عنه وخلافته ، وهو ثالث الخلفاء الراشدين، وبذلك سددت فراغاً وأكملت نقصاً إذ كان الناس إلى الآن لا يجدون كتاباً قائماً بذاته لكل خليفة ، يتناول ترجمته وما جرى من الحوادث في عهده ، حتى أن علماء الإفرنج مع اجتهادهم في التأليف نراهم قد حذوا حذو مؤلفي المسلمين فلم يفردوا لكل خليفة كتاباً . فللأستاذ «موير» كتاب الخلافة ، وللأستاذ «واشنجتون ايرفنج» كتاب محمد وخلفائه وكلاهما في مجلد واحد، وهكذا غيرهما من المؤلفين .

ولا شك أن هذا نقص يجب تداركه ، على أنه لا يغيب عنا أن نذكر أن العلاّمة رفيق بك العظم قد تدارك الأمر فجعل لكل خليفة جزءاً من كتابه أشهر مشاهير الإسلام ، ولم أعثر إلا على الأجزاء الأربعة الأولى إلى عثمان .

ثم لا نجد غير كتب التاريخ العامة كالطبري وهو ثقة ، وابن الأثير ، وابن خلدون وهو مختصر ، اختصره من الطبري غالباً وحوليات البرنس كيتاني الذي ترجم النصوص العربية إلى اللغة الإيطالية . والكتب العربية في الخلفاء الراشدين ما هي إلا سير . ثم كتب التراجم كأسد الغابة والإصابة وطبقات ابن سعد والإستيعاب والكمال والتهذيب الخ ، وهي تكاد تكون متشابهة إنما بعضها مطوّل وبعضها مختصر وقد نقل عنها المستشرقون في تأليف دائرة المعارف الإسلامية ، فلم يزيدوا عليها إلا تعليقات من عندهم ترمي إلى التشكيك من غير تحقيق كما ذكرناه في كتابنا هذا في وفاة العباس بن عبد المطلب، واستسقاء عمر بن الخطاب به في حياته .

أما كتاب تاريخ الأمم الإسلامية للمرحوم محمد الخضري بك فهو مختصر ألقاه محاضرات في الجامعة المصرية القديمة وكان فيها محتاطاً أشد الإحتياط ، فلم يزج بنفسه في التفاصيل ومناقشة مختلف الروايات فلا يجد فيه مُريد التوسع بغيته . هذا ويجب أن يكون المؤرخ في زماننا مجيداً للغة أجنبية على الأقل ، ولا يكفي أن يترجم له . ففي عهد الخلفاء مثلاً يتحتّم الإطلاع على ما كتبه الإفرنج في تاريخ سقوط الدولة الرومانية وتاريخ مصر والرجوع إلى دوائر المعارف . فمؤرخو العرب مثلاً يذكرون المقوقس كأنه كان حياً عندما فتح عمرو بن العاص الإسكندرية للمرة الثانية مع أنه كان قد مات الخ .

أما الواقدي فقد قرأت شيئاً مما كتبه عن فتوح إفريقية فرأيت العجب العجاب ، فهي قصص لا يصح اعتبارها تاريخاً ولا حاجة بي إلى ضرب الأمثال خشية الإطالة .

★ ★ ★

ولنعد إلى عثمان — رضي الله عنه — فنقول إن اختياره قد تم بتفويض أرباب الشورى إلى عبد الرحمن بن عوف أمر اختيار أحد الرجلين علي ، أو عثمان ، بعد أن تنازل هو عن ترشيح نفسه لعدم رغبته في الخلافة وكان صهر عثمان، وكان أغلب المسلمين يريدون تولية عثمان بعد عمر. فقد كان عمر شديداً لا يحابي أحداً ، ولا يخاف أحداً ولا يتهاون ولا يلين مع حرصه على إجراء العدل وكانوا يرهبونه ويحسبون حسابه ، وكان شديداً حتى على نفسه ، متقشفاً كارهاً للترف والتنعم في المأكل والملبس . أما عثمان فقد كان ليناً حليماً ، رحيماً ، يصل أهله ، شديد الحياء لا يميل إلى العنف . فكان انتخابه كما قيل ردَّ فعل لخلافة من قبله. ولما كان عليّ شديداً لم يريدوا توليته . قال الأستاذ رفيق بك العظم : « والذي أعتقده أن قريشاً وإن كانت لا تريد استخلاف علي لأسباب سيأتي بيانها إلا أن الخلافة من أبي بكر إلى عثمان تمت على ترتيب طبيعي بحكم الحاجة ، وعلى وفق المعروف يومئذ للمسلمين ، والثابت عندهم من أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم التي تشير إلى مثل هذا الترتيب في المقام والدرجة التي وضع كلاً منهم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليّ نفسه يعرف ذلك ويعترف به » ا هـ . [1]

(١) كتاب اشهر مشاهير الاسلام ، رفيق بك العظم .

لكن هل كان ذلك ملحوظاً في اختيار عثمان ؟ لا أظن ذلك ولم يكن يلحظه عمر بن الخطاب حين اختار أهل الشورى .

وقد خاف بنو أمية سيادة بني هاشم فنجحوا في اختيار عثمان . وكانت شخصية عثمان فوق ذلك شخصية محبوبة محترمة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحبه ويقربه ويلاطفه لحسن أخلاقه فزوجه ابنتيه . فهذه أسباب هيأت لعثمان تسلم الخلافة .

لما ولي عثمان — رضي الله عنه — الخلافة قضى الشطر الأول منها وهو أحب إلى الناس من عمر للينه ورأفته ، وقد امتلأت الأيدي من المغانم .

إن الفتنة التي أدت إلى قتل عثمان . والتي سنعنى بتفصيلها في كتابنا هذا قد أدت إلى نتائج وخيمة . أدت إلى انقسام المسلمين وسفك الدماء والتحزب والتشيع وتفرقة الكلمة بعد قتله — رضي الله عنه — واقتتلوا للأخذ بثأره حتى قتل من المسلمين تسعون ألفاً ! !

إن للفتنة أسباباً ذكرها المؤرخون وأصدق المصادر التي بين أيدينا تاريخ ابن جرير الطبري . وقد كانت بين كبار الصحابة وعثمان رضي الله عنه محادثات ومباحثات طويلة وعديدة ومشاورات بشأن الفتنة ونشأتها وأسبابها فإنه رضي الله عنه ما ترك أحداً يوثق به ويعوّل على رأيه إلا استشاره . وقد أدلى إليه كل برأيه .

وهنا يجدر بي أن أبين موقف المؤرخ ومسئوليته فأقول :

المؤرخ يستطيع أن يستعرض الحوادث أن يستنتج منها ما يبني حكمه عليه كالقاضي النزيه ، وليس من شأنه أن يلتمس المعاذير ويميل كل الميل مع قوم دون آخرين . فإن من عدّ السيئات حسنات ، والأغلاط في

حكم الصواب جرياً وراء إحساسه وعواطفه ، أو خشية الرأي العام أو البيئة أو لإشباع شهوة في نفسه ، أو للتظاهر بالعلم أو الصلاح لا يعد في نظرنا مؤرخاً بل متحيزاً أو مغرضاً . وقد تصدى قوم لتدوين سير بعض السلف فنزهوهم عن جميع الهفوات معتبرين ذلك تعبداً وصلاحاً ونسكاً، غاضين الطرف عن الحوادث المؤلمة التي ترتبت عليها . وهذا فضلاً عن كونه مخالفاً مخالفة صريحة للتاريخ ولآراء المعاصرين من السلف الصالح الذين هم أعرف من غيرهم بالدين وأصوله وبأساليب الحكم في زمانهم وأسباب السخط العام ، فإنه مضيع للفائدة المرجوة من التاريخ وما فيه من عبر يعتبر بها الخلف .

ومن المؤرخين من يتصدى للطعن واللعن وتشويه الحقائق وتسوئة المحاسن بدافع التعصب لرأي أو لكي يعد من أرباب العقول الراجحة . وهؤلاء ينفثون سمومهم ولا يدركون مغبة ما تخطه أقلامهم الجامحة من إفك وبهتان .

وإني أرجو أن أكون قد خدمت الحقيقة والتاريخ ببحثي في سيرة عثمان رضي الله عنه وقدمت لأهل هذا العصر والعصور المقبلة درساً يستفيدون منه في أمور دينهم ودنياهم .

محمد رضا



ترجمة حياة عثمان بن عفان

٥٧٦ م ـ ٦٥٦ م

هو عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف . فهو قرشي أموي يجتمع هو والنبي صلى الله عليه وسلم في عبد مناف . وهو ثالث الخلفاء الراشدين .

ولد بالطائف بعد الفيل بست سنين على الصحيح (سنة ٥٧٦ م) .

وأمه أروى بنت كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس بن عبد مناف . وأم أروى البيضاء بنت عبد المطلب عمة الرسول صلى الله عليه وسلم [1] .

كنيتـه :

يكنى بأبي عبد الله وأبي عمرو . كني أولا بإبنه عبد الله ابن زوجته رقية بنت النبي صلى الله عليه وسلم . توفي عبد الله سنة أربع من الهجرة بالغاً من العمر ست سنين .

---

(١) مروج الذهب للمسعودي ، الجزء الثاني ، ص ٣٤٠ .

ويقال لعثمان رضي الله عنه « ذو النورين » لأنه تزوج رقيـة وأم كلثوم ابنتي النبي صلى الله عليه وسلم . ولا يعرف أحد تزوج بنتي نبي غيره .

أولاده وأزواجه :

(١) عبد الله بن رقية . (٢) عبد الله الأصغر ، وأمه فاختة بنت غزوان بن جابر . (٣) عمرو . (٤) خالد . (٥) أبان . (٦) عمر . (٧) مريم وأمهم أم عمرو بنت جُنْدَب (٨) الوليد . (٩) سعيد . (١٠) أم سعيد وأمهم فاطمة بنت الوليد بن عبد شمس . (١١) عبد الملك وأمه أم البنين بنت عُيينة بن حصن بن حذيفة . (١٢) عائشة . (١٣) أم أبان . (١٤) أم عمرو وأمهن رملة بنت شيبة بن ربيعة . (١٥) مريم وأمها نائلة بنت الفُرَافِصَة ابن الأحوص . (١٦) أم البنين وأمها أم ولد وهي التي كانت عند عبد الله بن يزيد بن أبي سفيان .

فأولاده ستة عشر ، تسعة ذكور ، وسبع إناث ، وزوجاته تسع ، ولم تذكر هنا أم كلثوم لأنها لم تعقب . وقتل عثمان وعنده رملة ونائلة وأم البنين وفاختة . غير أنه طلق أم البنين وهو محصور .

زوجته رقية :

رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمها خديجة وكان رسول الله قد زوّجها من عتبة بن أبي لهب ، وزوج أختها أم كلثوم عتيبة بن أبي لهب . فلما نزلت (تبت) قال لهما أبو لهب وأمهما أم جميل بنت حرب بن أمية « حمالة الحطب » فارقا إبنتّي محمد . ففارقاهما قبل أن يدخلا بهما كرامة من الله تعالى لهما ، وهواناً لإبنى أبي لهب ؛

فتزوج عثمان بن عفان رقية بمكة وهاجرت معه إلى الحبشة ؛ وولدت له هناك ولداً فسماه « عبدالله » وكان عثمان يُكنى به ، فبلغ الغلام ست سنين فنقر عينه ديك فورم وجهه ومرض ومات. وكان موته سنة أربع، وصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ونزل أبوه عثمان حفرتـــه . ورقية أكبر من أم كلثوم . ولما سار رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بدر كانت ابنته رقية مريضة فتخلف عليها عثمان بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتوفيت يوم وصول زيد بن حارثة مبشراً بظفر رسول الله صلى الله عليـــه وسلم بالمشركين . وكانت قـــد أصابتها الحصبة فماتت بها .

زوجته أم كلثوم :

بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأمها خديجة وهي أصغر من أختها رقية . زوجها النبي صلى الله عليه وسلم من عثمان بعد وفاة رقية . وكان نكاحه إياها في ربيع الأول من سنة ثلاث ؛ وبنى بها في جمادي الآخرة من السنة . ولم تلد منه ولداً . وتوفيت سنة تسع وصلى عليهـــا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونزل في قبرها عليّ والفضل وأسامة بن زيد وقيل أن أبا طلحة الأنصاري استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في أن ينزل معهم فأذن له . وقال لو أن لنا ثالثة لزوجنا عثمان بهـــا . وروى سعيد بن المسيب أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى عثمان بعـــد وفاة رقية مهموماً لهفان فقال له ما لي أراك مهموماً ؟ فقال : يا رسول الله : وهل دخل على أحد ما دخل عليّ ماتت ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم التي كانت عندي وانقطع ظهري ؛ وانقطع الصهر بيني وبينك. فبينما هو يحاوره إذ قال النبي صلى الله عليه وسلم : « هذا جبريل عليه

السلام يأمرني عن الله عز وجل أن أزوجك أختها أم كلثوم على مثل صداقها ؛ وعلى مثل عشرتها » فزوجه إياها .

صفته :

كان عثمان جميلاً وكان ربعة لا بالقصير ولا بالطويل ، حسن الوجه ، رقيق البشرة كبير اللحية ، أسمر اللون ، كثير الشعر ضخم الكراديس [1] ، بعيد ما بين المنكبين له جُمَّة أسفل من أذنيه [2] ، جذل الساقين ، طويل الذراعين شعره قد كسا ذراعيه . أقنى بيِّن القنا ، بوجهه نكتات جدري ، وكان يصفر لحيته ويشد أسنانه بالذهب . [3]

وكان رضي الله عنه أنسب قريش لقريش ، وأعلم قريش بما كان فيها من خير وشر ، وكان رجال قريش يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمور لعلمه وتجاربه وحسن مجالسته ، وكان شديد الحياء ومن كبار التجار .

أخبر سعيد بن العاص أن عائشة رضي الله عنها وعثمان حدثاه : أن أبا بكر استأذن النبي صلى الله عليه وسلم وهو مضطجع على فراشه لابس مرط عائشة فأذن له وهو كذلك فقضى إليه حاجته ثم انصرف . ثم استأذن عمر فأذن له وهو على تلك الحال فقضى إليه حاجته ثم انصرف.

---

(١) الكراديس جمع كردوسة ــ كل عظمين التقيا في مفصل . وقيل رءوس العظام .

(٢) الجمة مجتمع شعر الرأس اذا تدلى من الراس الى شحمة الأذن.

(٣) راجع البداية والنهاية لابن كثير الجزء السابع ص ١٩٢ .

ثم استأذن عليه عثمان فجلس وقال لعائشة اجمعي عليك ثيابك فقضى إليه حاجته ، ثم انصرف . قالت عائشة : يا رسول الله لم أرك فزعت لأبي بكر وعمر كما فزعت لعثمان . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « إن عثمان رجل حيي وإني خشيت إن أذنت له على تلك الحال لا يُبلغ إليّ حاجته » : وقال الليث قال جماعة من الناس : ألا أستحي ممن تستحي منه الملائكة .

لا يوقظ نائماً من أهله إلا أن يجده يقظان فيدعوه فيناوله وضوءه ، وكان يصوم الدهر . ويلي وضوء الليل بنفسه . فقيل له لو أمرت بعض الخدم فكفوك ، فقال: لا . الليل لهم يستريحون فيه . وكان لين العريكة كثير الإحسان والحلم . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أصدق أمتي حياء عثمان) وهو أحد الستة الذين توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض . وقال عن نفسه قبل قتله: « والله ما زنيت في جاهلية وإسلام قط » .

لباسه :

رئي وهو على بغلة عليه ثوبان أصفران له غديرتان . ورئي وهو يبني الزوراء [١] على بغلة شهباء مصفّراً لحيته . وخطب وعليه خميصة [٢] سوداء وهو مخضوب بحناء ، ولبس ملاءة صفراء وثوبين ممصرين ،

---

(١) الزوراء . دار عثمان بالمدينة .

(٢) الخميصة : كساء اسود له علمان ، فان لم يكن معلما فليس بخميصة ومنه للحريري : لبست الخميصة ابغي الخبيصة .

وبرداً يمانياً ثمنه مئة درهم وتختم في اليسار وكان ينام في المسجد متوسداً رداءه .

اسلامه :

أسلم عثمان رضي الله عنه في أول الإسلام قبل دخول رسول الله دار الأرقم . وكانت سنّه قد تجاوزت الثلاثين . دعاه أبو بكر إلى الإسلام فأسلم ، ولما عرض أبو بكر عليه الإسلام قال له : ويحك يا عثمان والله إنك لرجل حازم ما يخفى عليك الحق من الباطل . هذه الأوثان التي يعبدها قومك . أليست حجارة صماء لا تسمع ولا تبصر . ولا تضر ولا تنفع ؟ فقال : بلى والله إنها كذلك . قال أبو بكر : هذا محمد بن عبد الله قد بعثه الله برسالته إلى جميع خلقه ، فهل لك أن تأتيه وتسمع منه ؟ فقال : نعم .

وفي الحال مر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا عثمان أجب الله إلى جنته فإني رسول الله إليك وإلى جميع خلقه . قال : فوالله ما ملكت حين سمعت قوله أن أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله ، ثم لم ألبث أن تزوجت رقية. وكان يقال أحسن زوجين رآهما إنسان ، رقية وعثمان . كان زواج عثمان لرقية بعد النبوة لا قبلها ، كما ذكر السيوطي ذلك خطأً .

وفي طبقات ابن سعد : قال عثمان : يا رسول الله قدمت حديثاً من الشام ، فلما كنا بين معان والزرقاء فنحن كالنيام إذا منادٍ ينادينا : أيها النيام هبّوا فإن أحمد قد خرج بمكة فقدمنا فسمعنا بك .

وفي إسلام عثمان تقول خالته سعدى :

هدى الله عثمان الصفيَّ بقوله	فأرشده والله يهدي إلى الحـــق
فبايع بالرأي السديد محمداً	وكان ابن أروى لا يصد عن الحق
وأنكحه المبعوث إحدى بناته	فكان كبدر مازج الشمس في الأفق
فداؤك يا ابن الهاشميين مهجتي	فأنت أمين الله أرسلت في الخلق

لما أسلم عثمان أخذه عمه الحكم بن أبي العاص بن أمية فأوثقـــه رباطاً وقال : أترغب عن ملة آبائك إلى دين محدَث ! والله لا أخليـــك أبداً حتى تدع ما أنت عليه من هذا الدين . فقال : والله لا أدعه أبداً . فلما رأى الحكم صلابته في دينه تركه .

وفي غداة اليوم الذي أسلم فيه عثمان جاء أبو بكر بعثمان بن مظعون وأبي عبيدة بن الجراح ، وعبد الرحمن بن عوف ، وأبي مسلمة بن عبد الأسد ، والأرقم بن أبي الأرقم ، فأسلموا وكانوا مع من اجتمع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثمانية وثلاثين رجلاً .

وأسلمت أخت عثمان آمنة بنت عفان ، وأسلم إخوته لأمه الوليد وخالد وعمارة أسلموا يوم الفتح ، وأم كلثوم . وبنو عقبة بن أبي معيط ابن عمرو بن أمية أمهم كلهم أروى . ذكر ذلك الدارقطني في كتـــاب الإخوة وذكر أن أم كلثوم من المهاجرات الأُوَل . يقال إنها أول قرشية بايعت النبي صلّى الله عليه وسلم وأنكحها زيد بن حارثة ، ثم خلفه عليها عبد الرحمن بن عوف ثم تزوجها الزبير بن العوام .

هجرتـــه :

هاجر عثمان إلى أرض الحبشة فاراً بدينه مع زوجته رقية بنت رسول الله صلى اللهُ عليه وسلم . فكان أول مهاجر إليها ، ثم تابعـــه سائـــر المهاجرين إلى أرض الحبشة ثم هاجر الهجرةَ الثانية إلى المدينة عن أنس قال

أول من هاجر إلى الحبشة عثمان ، وخرجت معه ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فأبطأ على رسول الله صلى الله عليه وسلم خبرهما ، فجعل يتوكف الخبر فقدمت امرأة من قريش من أرض الحبشة فسألها فقالت : رأيتها فقال : على أي حال رأيتها ؟ قالت رأيتها وقد حملها على حمار من هذه الدواب وهو يسوقها ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم صحبهما الله ، إن كان عثمان لأول من هاجر إلى الله عز وجل بعد لوط .

تبشيره بالجنة :

كان عثمان رضي الله عنه أحد العشرة الذين شهد لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة .

عن أبي موسى الأشعري ، قال كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديقة بني فلان والباب علينا مغلق إذ استفتح رجل فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « يا عبد الله بن قيس قم فافتح له الباب وبشره بالجنة » فقمت ففتحت الباب فإذا أنا بأبي بكر الصديق فأخبرته بما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فحمد الله ودخل وقعد ، ثم أغلقت الباب فجعل النبي صلى الله عليه وسلم ينكت بعود في الأرض فاستفتح آخر فقال يا عبد الله بن قيس : قم فافتح له الباب وبشره بالجنة ، فقمت ففتحت فإذا أنا بعمر بن الخطاب فأخبرته بما قال النبي صلى الله عليه وسلم فحمد الله ودخل فسلم وقعد . وأغلقت الباب فجعل النبي صلى الله عليه وسلم ينكت بذلك العود في الأرض إذ استفتح الثالث الباب فقال النبي صلى الله عليه وسلم : يا عبد الله بن قيس قم فافتح الباب له وبشره بالجنة على بلوى تكون . فقمت ففتحت الباب فإذا أنا بعثمان بن عفان فأخبرته بما قال النبي صلى الله عليه وسلم فقال « الله المستعان وعليه التكلان » ثم دخل فسلم وقعد .

وقال صلى الله عليه وسلم : « أبو بكر في الجنة وعمر في الجنة وعثمان في الجنة وعلي في الجنة وطلحة في الجنة والزبير في الجنة وعبد الرحمن بن عوف في الجنة وسعد في الجنة والآخر لو شئت سميته » ثم سمى نفسه .

وعن سعيد بن زيد أن رجلاً قال له أحببت علياً حباً لم أحبه شيئاً قط قال : أحسنت أحببت رجلاً من أهل الجنة . قال : وأبغضت عثمان بغضاً لم أبغضه شيئاً قط . قال أسأت . أبغضت رجلاً من أهل الجنة ، ثم أنشأ يحدث قال : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم على حراء ومعه أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير قال (اثْبُتْ حِرَاءُ ما عليك إلا نبيٌّ أو صديق أو شهيد) .

وعن أنس قال : صعد النبي صلى الله عليه وسلم أحداً ومعه أبو بكر وعمر وعثمان فرجف الجبل فقال أثبت أحد فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان .

وعن حسان بن عطية قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « غفر الله لك يا عثمان ما قدّمتَ وما أخّرتَ ، وما أسررتَ ، وما أعلنتَ وما هو كائن إلى يوم القيامة » .

تخلفه عن بيعة الرضوان :

في الحديبية دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب ليبعثه إلى مكة فيبلغ عنه أشراف قريش ما جاء له فقال : يا رسول الله إني أخاف قريشاً على نفسي وليس بمكة من بني عدي بن كعب أحد يمنعني وقد عرفت قريش عداوتي إياها وغلظتي عليها ولكني أدلك على رجل أعز بها مني ، عثمان بن عفان . فدعا رسول الله صلى الله عليه

وسلم عثمان بن عفان فبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحربهم وإنه إنما جاء زائراً لهذا البيت ومعظماً لحرمته .

فخرج عثمان إلى مكة فلقيه أبان بن سعيد بن العاص حين دخل مكة أو قبل أن يدخلها فحمله بين يديه ، ثم أجاره حتى بلّغ رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم . فانطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش فبلغهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أرسله به . فقالوا لعثمان حين فرغ من رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم . إن شئتَ أن تطوف بالبيت فطف . فقال ما كنت لأفعل حتى يطوف رسول الله صلى الله عليه وسلم واحتبسته قريش عندها . فبلغ رسولَ الله والمسلمين أن عثمان بن عفان قد قتل . وقيل إنه دخل مكة ومعه عشرة من الصحابة بإذن رسول الله ليزوروا أهاليهم ولم يذكروا أسماءهم . وقيل إن قريشاً احتبست عثمانَ عندها ثلاثة أيام وأشاع الناس أنهم قتلوه هو والعشرة الذين معه . وعلى كل حال أبطأ عثمان رضي الله عنه عن الرجوع فقلق عليه المسلمون فلما بلغ ذلك الخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا نبرح حتى نناجز القوم » .

ولما لم يكن قتل عثمان رضي الله عنه محققاً ، بل كان بالإشاعة بايع النبي صلى اللهُ عليه وسلم عنه على تقدير حياته . وفي ذلك إشارة منه إلى أن عثمان لم يُقتل ، وإنما بايع القوم أخذاً بثأر عثمان جرياً على ظاهر الإشاعة تثبيتاً وتقوية لأولئك القوم ، فوضع يده اليمنى على يده اليسرى وقال: « اللهم هذه عن عثمان في حاجتك وحاجة رسولك ».

قال تعالى يذكر هذه البيعة (لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ)[1] وبعد أن جاء عثمان رضي الله عنه بايع بنفسه .

---

(١) السورة : الفتح الآية : ١٨ .

تخلفه عن غزوة بدر :

تزوج عثمان رضي الله عنه رقية بنت رسول الله بعد النبوة ، وتوفيت عنده في أيام غزوة بدر في شهر رمضان من السنة الثانية من الهجرة . وكان تأخره عن بدر لتمريضها بإذن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فجاء البشير بنصر المؤمنين يوم دفنوها بالمدينة . وضرب رسول الله لعثمان بسهمه وأجره في بدر فكان كمن شهدها ، أي أنه معدود من البدريين .

اختصاصه بكتابة الوحي :

عن فاطمة بنت عبد الرحمن عن أمها أنها سألت عائشة وأرسلها عمها فقال : إن أحد بنيك يقرئك السلام ويسألك عن عثمان بن عفان فإن الناس قد شتموه فقالت : لعن الله من لعنه . فوالله لقد كان عند نبي الله صلى الله عليه وسلم وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لمسند ظهره إلي وأن جبريل ليوحي إليه القرآن ، وأنه ليقول له اكتب يا عثيم فما كان الله لينزل تلك المنزلة إلا كريماً على الله ورسوله . أخرجه أحمد وأخرجه الحاكم وقال : (قالت لعن الله من لعنه ؛ لا أحسبها قالت إلا ثلاث مرات . لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مسند فخذه إلى عثمان . وإني لأمسح العرق عن جبين رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن الوحي لينزل عليه وأنه ليقول : أكتب يا عثيم . فوالله ما كان الله لينزل عبداً من نبيه تلك المنزلة إلا كان عليه كريماً) .

وعن جعفر بن محمد عن أبيه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا جلس جلس أبو بكر عن يمينه . وعمر عن يساره ، وعثمان بين يديه ، وكان كَاتِبَ سر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

كراماته :

عن نافع أن جهجاها الغفاري تناول عصا عثمان وكسرها على

ركبته فأخذته الأكلة في رجله [1] . وعن أبي قلابة . قال كنت في رفقة بالشام سمعت صوت رجل يقول يا ويلاه النار ، وإذا رجل مقطوع اليدين والرجلين من الحقوين أعمى العينين منكباً لوجهه فسألته عن حاله فقال : إني قد كنت ممن دخل على عثمان الدار ؛ فلما دنوت منه صرخت زوجته فلطمتها فقال : « مالك قطع الله يديك ورجليك وأعمى عينيك وأدخلك النار » فأخذتني رعدة عظيمة وخرجت هارباً فأصابني ما ترى ولم يبق من دعائه إلا النار . قال فقلت له بعداً لك وسحقاً . أخرجهما الملأ في سيرته . وعن مالك أنه قال : كان عثمان مر بحش كوكب فقال إنه سيدفن هنا رجل صالح فكان أول من دفن فيه .

تجهيزه جيش العسرة :

يقال لغزوة تبوك غزوة العُسرة مأخوذة من قوله تعالى : (الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ) [2] .

ندب رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس إلى الخروج وأعلمهم المكان الذي يريد ليتأهبوا لذلك . وبعث إلى مكة وإلى قبائل العرب يستنفرهم وأمر الناس بالصدقة ، وحثهم على النفقة والحملان فجاءوا بصدقات كثيرة فكان أول من جاء أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، فجاء بماله كله ٤٠,٤٠٠٠ درهم فقال له صلى الله عليه وسلم : هل أبقيت لأهلك شيئاً ؟ قال أبقيت لهم الله ورسوله . وجاء عمر رضي الله عنه بنصف ماله فسأله هل أبقيت لهم شيئاً . قال : نعم نصف مالي ، وجاء عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه بمائتي أوقية ؛ وتصدق عاصم ابن عدي بسبعين وسقاً من تمر ، وجهز عثمان رضي الله عنه ثلث الجيش

---

(١) الأكلة : الحكة .

(٢) سورة التوبة ، الآية ١١٧ .

جهزهم بتسعمائة وخمسين بعيراً وبخمسين فرساً . قال ابن إسحاق أنفق عثمان رضي الله عنه في ذلك الجيش نفقة عظيمة لم ينفق أحد مثلها . وقيل جاء عثمان رضي الله عنه بألف دينار في كمه حين جهز جيش العُسرة فنثرها في حجر رسول الله فقبلها في حجره وهو يقول : ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم . وقال رسول الله : « من جهز جيش العُسرة فله الجنة » .

حفره بئر رومة :

واشترى بئر رومة من يهودي بعشرين ألف درهم . وسبلها للمسلمين كان رسول الله قد قال : « من حفر بئر رومة فله الجنة » .

وهذه البئر في عقيق المدينة : روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « نعم القليب قليب المزني » ، وهي التي اشتراها عثمان بن عفان فتصدق بها . وروي عن موسى بن طلحة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « نعم الحفير حفير المزني » . يعني رومة : فلما سمع عثمان ذلك ابتاع نصفها بمائة بكرة وتصدق بها على المسلمين فجعل الناس يستقون منها . فلما رأى صاحبها أنه امتنع منه ما كان يصيب منها باعها من عثمان بشيء يسير فتصدق بها كلها .

علمه وقراءته القرآن :

كان عثمان أعلم الصحابة بالمناسك ، وبعده ابن عمر .

وكان يحيي الليل فيختم القرآن في ركعة . قالت امرأة عثمان حين قتل : لقد قتلتموه وأنه ليحيي الليل كله بالقرآن في ركعة . وعن عطاء ابن أبي رباح « أن عثمان بن عفان صلى بالناس ، ثم قام خلف المقام فجمع كتاب الله في ركعة كانت وتره فسميت بالبتيراء » ، وكان

يضرب المثل به في التلاوة ، أما عمر بن الخطاب فكان يضرب المثل به في قوة الهيبة ، وعلي بن أبي طالب في القضاء .

زيادته في المسجد النبوي سنة ٢٩ هـ : (١)

كان المسجد النبوي على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم مبنياً باللبن وسقفه الجريد ، وعمده خشب النخل ، فلم يزد فيه أبو بكر شيئاً وزاد فيه عمر وبناه على بنائه في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم باللبن والجريد وأعاد عمده خشباً . ثم غيره عثمان فزاد فيه زيادة كبيرة وبنى جداره بالحجارة المنقوشة والفضة ، وجعل عمده من حجارة منقوشة وسقفه بالساج ، وجعل أبوابه على ما كانت أيام عمر ستة أبواب .

وروى يحيى عن المطلب بن عبد الله بن حنطب قال : لما ولي عثمان ابن عفان سنة أربع وعشرين ، كلّمه الناس أن يزيد في مسجدهم ، وشكوا إليه ضيقه يوم الجمعة حتى إنهم ليصلون في الرحاب . فشاور فيه عثمان أهل الرأي من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأجمعوا على أن يهدمه ويزيد فيه . فصلى الظهر بالناس ، ثم صعد المنبر فحمدالله وأثنى عليه ثم قال : « أيها الناس إني قد أردت أن أهدم مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأزيد فيه وأشهد أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (من بنى مسجداً بنى الله له بيتاً في الجنة) وقد كان لي فيه سلف ، وإمام سبقني وتقدمني عمر بن الخطاب ، كان قد زاد فيه وبناه ، وقد شاورت أهل الرأي من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأجمعوا على هدمه وبنائه وتوسيعه » فحسن الناس يومئذ ذلك ودعوا له . فأصبح فدعا العمال وباشر ذلك بنفسه . وكان رجلاً يصوم

---

(١) أوردها ابن كثير ، والطبري في العام ٢٦ هـ . وفي العام ٢٩ هـ وسع عثمان الحرم وبناه ــ بالفضة ــ الكلس كما ذكر ابن كثير في البداية والنهاية في الجزء السابع .

الدهر ويصلي الليل ، وكان لا يخرج من المسجد ، وأمر بالفضة المنخولة تعمل ببطن نخل ، وكان أول عمله في شهر ربيع الأول من سنة ٢٩ هـ وفرغ منه حين دخلت السنة لهلال المحرم سنة ٣٠ فكان عمله عشرة أشهر.

قال الحافظ بن حجر : كان بناء عثمان للمسجد سنة ثلاثين على المشهور وقيل في آخر سنة من خلافته .

وروى يحيى عن أفلح بن حميد عن أبيه قال : لما أراد عثمان أن يكلم الناس على المنبر ويشاورهم قال له مروان بن الحكم : فداك أبي وأمي ، هذا أمر خير لو فعلته ولم تذكر لهم . فقال : ويحك إني أكره أن يروا أني أستبد عليهم بالأمور . قال مروان : فهل رأيت عمر حيث بناه وزاد فيه ذكر لهم ذلك ؟ قال : إسكت إن عمر اشتد عليهم فخافوه حتى لو أدخلهم في جحر ضب دخلوا ، وإني لنت لهم ، حتى أصبحت أخشاهم . قال مروان بن الحكم فداك أبي وأمي لا يسمع هذا منك فيُجترأ عليك .

وقد جعل عثمان طول المسجد ١٦٠ ذراعاً وعرضه ١٥٠ .

(زيادته في المسجد الحرام) سنة ٢٦ هـ :

كان المسجد الحرام فناء حول الكعبة ، وفناء للطائفين ولم يكن له على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، وأبي بكر رضي الله عنه جدار يحيط به ، وكانت الدور محدقة به ، وبين الدور أبواب يدخل الناس من كل ناحية ، فلما استخلف عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وكثر الناس وسع المسجد واشترى دوراً وهدمها وزادها فيه واتخذ للمسجد جداراً قصيراً دون القامة ، وكانت المصابيح توضع عليه ، وكان عمر رضي الله عنه أول من اتخذ الجدار للمسجد الحرام .

فلما استخلف عثمان رضي الله عنه إبتاع منازل ووسعه بها أيضاً ،

وبنى المسجد الحرام ، والأروقة ، فكان عثمان رضي الله عنه أول من اتخذ للمسجد الأروقة [1] . وكانت كسوة الكعبة في الجاهلية الأنطاع (بسط من الأديم أي الجلد) والمغافر فكساها رسول الله الثياب اليمانية ثم كساها عمر وعثمان القُباطي (ثياب من كتان تُنسج في مصر) .

(تحويل الساحل من الشعيبة الى جدة) :

في سنة ٢٦ هـ كلم أهل مكة عثمان رضي الله عنه أن يحول الساحل من الشُعَيْبة ، وهي ساحل مكة قديماً في الجاهلية إلى ساحلها اليوم وهي جُدّة لقربها من مكة . فخرج عثمان إلى جدة ورأى موضعها ، وأمر بتحويل الساحل إليها ودخل البحر واغتسل فيه وقال : إنه مبارك ، وقال لمن معه ادخلوا البحر للاغتسال ، ولا يدخل أحد إلا بمئزر ، ثم خرج من جدة على طريق عسفان إلى المدينة ، وترك الناس ساحل الشعيبة في ذلك الزمان واستمرت جدة بندراً إلى الآن لمكة المشرفة .

أكل عثمان اللين من الطعام :

عن عمرو بن أمية الضُمري . قال إن قريشاً كان من أسن منهم مولعاً بأكل الخزيرة [2] وإني كنت أتعشى مع عثمان خزيراً من طبخ من أجود ما رأيت قط ، فيها بطون الغنم وأدمها اللبن والسمن. فقال عثمان كيف ترى هذا الطعام ؟ فقلت : هذا أطيب ما أكلت قط . فقال يرحم الله ابن الخطاب ، أكلتَ معه هذه الخزيرة قط ؟ قلت : نعم فكادت اللقمة تفرث [3] بين يدي حين أهوي بها إلى فمي وليس فيها

---

(١) يراجع ابن الاثير ، الجزء الثالث ، صفحة ٤٣ .

(٢) الخزيرة : اللحم البائت يقطع صفارا في القدر ثم يطبخ بالماء الكثير والملح فاذا اميت طبخا ذر عليه الدقيق فعصد به .

(٣) تفرث اي تتفتت .

لحم ، وكان أدمها السمن ، ولا لبن فيها . فقال عثمان صدقت إن عمر رضي الله عنه أتعب والله من تبع أثره ، وأنه كان يطلب بثنيه عن هذه الأمور ظَلَفاً [1] أما والله ما آكله من مال المسلمين ولكني آكله من مالي أنت تعلم أني كنت أكثر قريش مالا وأجدهم في التجارة ، ولم أزل آكل من الطعام ما لان منه وقد بلغت سنّاً . فأحب الطعام إليّ ألينه ولا أعلم لأحد عليّ في ذلك تبعة .

وعن عبد الله بن عامر قال : كنت أفطر مع عثمان في شهر رمضان ، فكان يأتينا بطعام هو ألين من طعام عمر . قد رأيت على مائدة عثمان الدَّرْمك [2] وصغار الضأن كل ليلة وما رأيت عمر قط أكل من الدقيق منخولاً ولا أكل من الغنم إلا مسانّها . فقلت لعثمان في ذلك فقال يرحم الله عمر ومن يطيق ما كان عمر يطيق .

كرمه رضي الله عنه :

كان لعثمان على طلحة خمسون ألفاً فخرج عثمان يوماً إلى المسجد فقال له طلحة : قد تهيأ مالك فاقبضه . قال هو لك يا أبا محمد معونة لك على مروءتك .

بعض أحكامه :

استخف رجل بالعباس بن عبد المطلب فضربه عثمان فاستحسن منه ذلك وقال : أيفخم رسول الله عمه وأرخص في الإستخفاف به . لقد خالف رسول الله صلى الله عليه وسلم من فعل ذلك ورضي به .

وحدث بين الناس النشو – السكر – فأرسل عثمان يطوف عليهم

---

(١) الظلف : الشدة والغلظ في المعيشة .

(٢) الدرمك : هو دقيق الحواري وهو تحريف الدرمق .

فمنعهم من ذلك ، ثم اشتد ذلك فأفشى الحدود ونبّأ ذلك عثمان وشكاه إلى الناس فاجتمعوا على أن يجلدوا في التنفيذ فأخذ نفر منهم وجلدوا .

وبلغ عثمان أن ابن ذي الحبكة النهدي يعالج نيرْنجاً[1] قال محمد ابن سلمة : إنما هو نيرنج فأرسل إلى الوليد بن عقبة ليسأله عن ذلك فإن أقر به أوجعه فدعا به فسأله فقال : إنما هو رفق وأمر يعجب منه فأمر فعزِّرَ وأخبر الناس خبره وقرأ عليهم كتاب عثمان « إنه قد جُدّ بكم فعليكم بالجدّ وإياكم والهزّال » فكان الناس عليه وتعجبوا من عثمان على وقوف مثل خبره فغضب فنفر في الذين نفروا .

فراسته :

دخل رجل على عثمان فقال له عثمان : يدخل عليّ أحدكم والزنا في عينيه ، فقال الرجل أوحي بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال لا ولكن فراسة صادقة .

أوليات عثمان :

هو أول من رزق المؤذنين ، وأول من ارتج عليه في الخطبة ، وأول من قدم الخطبة في العيد على الصلاة ، وأول من فوض إلى الناس إخراج زكاتهم ، وأول من ولي الخلافة في حياة أمه ، وأول من اتخذ صاحب شرطة ، وأول من هاجر بأهله من هذه الأمة ، وأول من جمع الناس على حرف واحد في القراءة ، وأول من زاد النداء الثالث يوم الجمعة على الزوراء ، وأول من نخل له الدقيق ، وأول من أقطع القطائع ، وأول من حمى الحمى لنعم الصدقة .

---

(١) النيرنج : نوع من السحر .

حجه رضي الله عنه :

حج عثمان بالناس سنوات خلافته كلها إلا آخر حجة ، وحج بأزواج النبي صلى الله عليه وسلم كما كان يصنع عمر .

قتله :

قتل عثمان يوم الجمعة ١٨ ذي الحجة سنة ٣٥ من الهجرة (يونيه سنة ٦٥٦ م) بعد العصر وكان يومئذ صائماً . قال ابن إسحاق : قتل عثمان على رأس إحدى عشرة سنة وأحد عشر شهراً واثنين وعشرين يوماً من مقتل عمر بن الخطاب ؛ وعلى رأس خمس وعشرين من متوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

دفنه :

دفن في حش كوكب وقد كان اشتراه ووسع به البقيع ، ليلة السبت بين المغرب والعشاء فصلى عليه جبير بن مطعم وخلفه حكيم بن حزام وأبو جهم بن حذيفة . وسيأتي تفصيل قتله ودفنه في آخر هذا الكتاب إن شاء الله .

ما خلف عثمان :

كان لعثمان عند خازنه يوم قتل ٠٠٠ , ٥٠٠ , ٣٠ درهم ومن الدنانير ١٠٠,٥٠ أي ما يزيد عن ٨٠٠,٠٠٠ جنيه فانتهبت وذهبت وترك ١٠٠٠ بعير بالرَّبذة . وترك صدقات بها براديس وخيبر ووادي القرى قيمة ٠٠٠ , ٠٠٠ , ١ دينار .

صدقاته :

عن ابن عباس قال : قحط الناس في زمان أبي بكر . فقال أبو بكر : لا تمسون حتى يفرج الله عنكم . فلما كان من الغد جاء البشير إليه

قال : لقد قدمت لعثمان ألف راحلة برّاً وطعاماً قال : فغدا التجار على عثمان فقرعوا عليه الباب فخرج إليهم وعليه ملاءة قد خالف بين طرفيها على عاتقه . فقال لهم : ما تريدون ؟ قالوا : قد بلغنا أنه قدم لك ألف راحلة برّاً وطعاماً . بعنا حتى نوسع به على فقراء المدينة : فقال لهم عثمان : ادخلوا ، فدخلوا ، فإذا ألف وقر قد صدت في دار عثمان فقال لهم: كم تربحوني على شرائي من الشام؛ قالوا: العشرة اثني عشر . قال : قد زادوني . قالوا : العشرة أربعة عشر . قال : قد زادوني . قالوا : العشرة خمسة عشر . قال : قد زادوني قالوا : من زادك ونحن تجار المدينة ؟ قال : زادوني بكل درهم عشرة . هل عندكم زيادة ؟ قالوا : لا . قال : فأشهدكم معشر التجار أنها صدقة على فقراء المدينة .

خوفه :

كان لعثمان عبد فقال له : إني كنت عركت أذنك فاقتص مني ، فأخذ بأذنه ثم قال عثمان : أشدد ، يا حبذا قصاص في الدنيا لا قصاص في الآخرة . وروي عنه أنه قال : « لو أني بين الجنة والنار لا أدري إلى أيتهما يؤمر بي لاخترت أن أكون رماداً قبل أن أعلم إلى أيتهما أصير ».

ثناء علي عليه :

قال عليّ رضي الله عنه : كان عثمان أوصلنا للرحم وأتقانا للرب وقال رضي الله عنه : أنا وطلحة والزبير وعثمان كما قال الله تعالى : (وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ) . [1] . وسأله سائل عن عثمان بعد قتله فقال له : إن عثمان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين .

---

(١) سورة الحجر ، آية ٤٧ .

الأحاديث الواردة في فضلـه :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(١) اللهم إني رضيت عن عثمان فارض عنه .

(٢) غفر الله لك يا عثمان ما قدمت ، وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، وما هو كائن إلى يوم القيامة .

(٣) عثمان أحيا أمتي وأكرمها .

(٤) عثمان في الجنة .

(٥) عثمان حيي تستحي منه الملائكة .

(٦) عثمان رفيقي معي في الجنة .

(٧) عثمان وليي في الدنيا والآخرة .

(٨) رحمك الله يا عثمان ما أصبت من الدنيا ، ولا أصابت منك .

(٩) يا عثمان إنك ستبلى بعدي فلا تقاتلن .

عثمان وابو عبيدة :

إختصم عثمان وأبو عبيدة عامر بن الجراح ، فقال أبو عبيدة : يا عثمان تخرج عليّ في الكلام وأنا أفضل منك بثلاث . فقال عثمان وما هن ؟ قال الأولى أني كنت يوم البيعة حاضراً وأنت غائب ، والثانية شهدت بدراً ولم تشهده ، والثالثة كنت ممن ثبت يوم أحد ولم تثبت أنت . فقال عثمان صدقت : أما يوم البيعة فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثني في حاجة ومد يده عني وقال : هذه يد عثمان بن عفان وكانت يده الشريفة خيراً من يدي . وأما يوم بدر فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم استخلفني على المدينة ، ولم يمكنني مخالفته وكانت ابنته رقية مريضة واشتغلت بخدمتها حتى ماتت ودفنتها . وأما انهزامي يوم أحد فإن الله عفا عني وأضاف فعلي إلى الشيطان . فقال تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ

الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ) [1] فخصمه عثمان وغلبه .

عثمان قبل الخلافة

كان عثمان رضي الله عنه تاجراً غنياً جميل الصورة . وقد بادر إلى الإسلام بناء على دعوة أبي بكر الصديق فزوجه رسول الله صلى الله عليه وسلم رقية وهاجر بها إلى الحبشة ثم زوجه أختها أم كلثوم بعد وفاتها . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يثق به ويحبه ويكرمه لحيائه ودماثة أخلاقه وحسن عشرته ، وما كان يبذله من المال لنصرة المسلمين وبشره بالجنة كأبي بكر وعمر وعلي وبقية العشرة وأخبره بأنه سيموت شهيداً .

وكان أحد كتاب الوحي لكن لم يكن له في الغزوات حظ كغيره من الصحابة مثل أبي بكر وعمر وعلي وسعد بن أبي وقاص وجعفر وطلحة وخالد بن الوليد وغيرهم . فلم يرق دماً ولم يبارز أحداً ولم يخرج أميراً على جيش في إحدى السرايا ، ولم يثبت في غزوة أحد مع رسول الله . واستخلفه رسول الله على المدينة في غزوته إلى ذات الرقاع وإلى غطفان وكان محبوباً من قريش وكان حليماً رقيق العواطف كثير الإحسان . وقد توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنه راض به وروي عن رسول الله مائة وستة وأربعين حديثاً ، وكانت العلاقة بيننا وبين أبي بكر وعمر وعليّ على أحسن ما يرام . ولم يكن من الخطباء حتى إنه قد ارتج عليه في أول خطبة خطبها ، وكان أعلم الصحابة بالمناسك حافظاً للقرآن . ولم يكن متقشفاً مثل عمر بل كان يأكل اللين من الطعام .

---

(1) سورة آل عمران ، آية ١٥٥ .

هذه صفة عثمان رضي الله عنه قبل الخلافة .[1]

خلافة عثمان رضي الله عنه [2]

اول المحرم سنة ٢٤ هـ (٧ من نوفمبر سنة ٦٤٤ م)

كانت مبايعة عثمان يوم الإثنين لليلة بقيت من ذي الحجة سنة ٢٣ هـ واستقبل الخلافة في المحرم سنة ٢٤ هـ وقيل لهذه السنة عام الرعاف لأنه كثر فيها الرُّعاف في الناس ، والرعاف الدم يخرج من الأنف . ولي عثمان الخلافة وعمره ٦٨ عاماً ميلادياً أو ٧٠ عاماً هجرياً أي أنه كان في سن الشيخوخة [3] وقد كان عمر رضي الله عنه يخشى أن يميل الخليفة بعده إلى أقاربه ويحابيهم ويحرم ذوي الكفايات فتسوء الحال فقال لعليّ : إن ولّيت من أمر المؤمنين شيئاً فلا تحملن بني عبد المطلب على رقاب الناس : وقال لعثمان : يا عثمان إن ولّيت من أمر المسلمين شيئاً فلا تحملن بني أبي معيط على رقاب الناس . وكذلك قال لعبد الرحمن بن عوف : فإن كنت على شيء من أمر الناس يا عبد الرحمن فلا تحمل ذوي قرابتك على رقاب الناس .

أما أبو بكر رضي الله عنه فإنه قال لما اختار عمر للخلافة : «أترضون بمن أستخلف عليكم فإني والله ما ألوت من جهد الرأي ولا ولّيت ذا قرابة وإني قد استخلفت عمر بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوه».

---

(١) يراجع مروج الذهب للمسعودي ، الجزء الثاني ، ص ٣٤١ .

(٢) أوردها الطبري ، يراجع الجزء الخامس ، ص ٤٣ .

(٣) جاء في تاريخ القرون الوسطى لجامعة كامبردج ان اختيار عثمان للخلافة تم بعد تردد طويل وذلك لأنه أضعف الستة وألينهم عريكة ، وكان كل منهم يؤمل أن يحكم بواسطته ثم يخلفه ، وهذا الاختيار كان كرد فعل لخلافة عمر القوية الشديدة .

ثم إن عمر احتاط فأوصى الخليفة بعده بأن يبقي عماله سنة وليس في وسعه أن يفعل أكثر من ذلك،ولندع ذلك الآن إلى فرصة أخرى .

لما بويع عثمان خرج إلى الناس وأراد أن يخطبهم فارتج عليه ، ثم قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

« أيها الناس،إن أول مركب صعب ، وإن بعد اليوم أياماً ، وإن أعش تأتكم الخطبة على وجهها ، وما كنا خطباء وسيعلمنا الله » لكنه خطبهم خطبة أخرى ذكرها الطبري فقال :

« إنكم في دار قلعة وفي بقية أعمار فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه فلقد أتيتم صبحتم أو مسيتم . ألا وإن الدنيا طويت على الغرور فلا تغرنكم الحياة الدنيا ، ولا يغرنكم بالله الغرور . اعتبروا بمن مضى . ثم جدوا ولا تغفلوا ، فإنه لا يغفل عنكم . أين أبناء الدنيا وإخوانها الذين أثاروها وعمروها ومتعوا بها طويلاً ؟ ألم تلفظهم ؟ ارموا بالدنيا حيث رمى الله بها ، واطلبوا الآخرة فإن الله قد ضرب لها مثلاً والذي هو خير فقال (وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ)[1] إلى قوله أملا . وهذه خطبة كما يراها القارىء في الزهد واحتقار الدنيا وعدم الركون إليها .

وأول ما فعل عثمان رضي الله عنه بعد البيعة ، أنه جلس في جانب المسجد ودعا عبيد الله بن عمر بن الخطاب ، وكان قد قتل جماعة من الذين تسببوا في قتل أبيه وشاور الأنصار في أمره وأشار عليّ بقتله . فقال عمرو بن العاص لا يقتل عمر بالأمس ، ويقتل ابنه اليوم . فجعلها عثمان دية واحتملها وقال أنا وليه .

---

(١) سورة الكهف ، آية ٤٥ .

وكان زياد بن لبيد البياضي الأنصاري إذا رأى عبيد الله يقول :

ألا يا عبيد الله ما لك مهرب ولا ملجأ من ابن أروى ولا خفر
أصبت دماً والله في غير حله حراماً وقتل الهرمزان لـه خطر
على غير شيء غير أن قال قائل أتتهمون الهرمزان على عمر
فقال سفيه والحوادث جمة نعم أتهمه قد أشار وقد أمر
وكان سلاح العبد في جوف بيته يقلبها والأمر بالأمر يعتبر

كان الهرمزان من قواد الفرس ، وقد أسره المسلمون بتستر وأرسلوه إلى المدينة في خلافة عمر بن الخطاب ، فلما رأى عمر سأل أين حرسه وحجابه ؟ قالوا ليس له حارس ولا حاجب ، ولا كاتب ، ولا ديوان فقال : « ينبغي له أن يكون نبياً » ، ثم أسلم وفرض له عمر على ألفين وأنزله بالمدينة . وقيل إن السكين التي قتل بها عمر رؤيت قبل قتله عند الهرمزان فلما بلغ عبيد الله بن عمر ذلك ذهب إليه وقتله فهذا هو الهرمزان المذكور في شعر زياد بن لبيد . فشكا عبيدالله إلى عثمان زياد بن لبيد فنهى عثمان زياداً فقال في عثمان :

أبا عمرو عبيد الله رهن فلا تشكك بقتل الهرمزان
أتعفو إذ عفوت بغير حق فما لك بالذي تحكي يدان

فدعا عثمان زياداً فنهاه وشذ به [1] .

ولاية سعد بن ابي وقاص (٢)
الكوفة سنة ٢٥ هـ

كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه عزل سعد بن أبي وقاص عن

(١) ابن الأثير .
(٢) يراجع الطبري ، الجزء الخامس ، ص ٤٤ .

الكوفة ، وولى مكانه المغيرة بن شعبة . وقد اتهم سعد بأنه لا يحسن الصلاة وأن الصيد يلهيه ولا يقسم بالسوية ، ولا يعدل في القضية . لكنها تهم لم تثبت قد أذاعها بعض حساده فأوصى عمر رضي الله عنه الخليفة من بعده أن يستعمل سعداً وقال « إني لم أعزله عن سوء ولا خيانة » فكان أول عامل بعث به عثمان على الكوفة سعد وعزل المغيرة الذي كان يومئذ بالمدينة .. وروى الواقدي أن عمر أوصى أن يقر عماله سنة فلما ولي عثمان أقرّ المغيرة بن شعبة على الكوفة سنة ثم عزله ، واستعمل سعد بن أبي وقاص ثم عزله ، واستعمل الوليد بن عقبة . قال الطبري فإن كان ما رواه الواقدي من ذلك فولاية سعد الكوفة من قبل عثمان كانت سنة ٢٥ هـ .

كتب عثمان

١ ـ كتابه إلى عماله

كان أول كتاب كتبه عثمان إلى عماله :

« أما بعد فإن الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاة ولم يتقدم إليهم أن يكونوا جباة وأن صدر هذه الأمة خلقوا رعاة ولم يخلقوا جباة وليوشكن أئمتكم أن يصيروا جباة ولا يكونوا رعاة فإذا عادوا كذلك إنقطع الحياء والأمانة والوفاء . ألا وإن أعدل السيرة أن تنظروا في أمور المسلمين وفيما عليهم فتعطوهم مالهم وتأخذوهم بما عليهم ، ثم تثنوا بالذمة فتعطوهم الذي لهم وتأخذوهم بالذي عليهم . ثم العدو الذي تنتابون فاستفتحوا عليهم بالوفاء » .

٢ ـ كتابه إلى أمراء الأجناد

وكان أول كتاب كتبه إلى أمراء الأجناد في الفروج :

« أما بعد فإنكم حماة المسلمين وذادتهم وقد وضع لكم عمر ما لم يغب عنا بل كان عن ملأ منا. ولا يبلغني عن أحد منكم تغيير ولا تبديل فيغير الله ما بكم ويستبدل بكم غيركم . فانظروا كيف تكونون فيما ألزمني الله النظر فيه والقيام عليه » .

٣ ــ كتابه إلى عمال الخراج

كان أول كتاب كتبه إلى عمال الخراج :

« أما بعد فإن الله خلق الخلق بالحق فلا يقبل إلا الحق . خذوا الحق وأعطوا الحق به . والأمانة الأمانة ولا تكونوا أول من يسلبها فتكونوا شركاء من بعدكم إلى ما اكتسبتم . والوفاء الوفاء ولا تظلموا اليتيم ولا المعاهد فإن الله خصم لمن ظلمهم » .

٤ ــ كتابه إلى العامة

وكان كتابه إلى العامة :

« أما بعد فإنكم إنما بلغتم ما بلغتم بالإقتداء والإتباع فلا تلفتنكم الدنيا عن أمركم فإن أمر هذه صائر إلى الإبتداع بعد اجتماع ثلاث فيكم : تكامل النعم ، وبلوغ أولادكم من السبايا ، وقراءة الأعراب والأعاجم القرآن فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « الكفر في العجمة فإذا استعجم عليهم أمر تكلفوا وابتدعوا [1] » .

هذه أربعة كتب كتبها عثمان رضي الله عنه في أول خلافته وقد أوصى عماله برعاية شؤون المسلمين والذميين ، وأن لا يقصروا همهم على جباية الأموال لئلا يرهقوا العباد وينسوا أول واجب عليهم وهو العدل بين الرعية ، وأمر أمراء الأجناد في الفروج أي الثغور بأن يتبعوا

(١) هذه الكتب الأربعة مذكورة بنصها في تاريخ الطبري .

أوامر عمر رضي الله عنه وأن لا يحيدوا عنها . ثم أنه شدد على عمال الخوارج بأخذ الحق والتمسك بالأمانة والوفاء ، وأوصى باليتيم والمعاهد خيراً وهذه كلها من تعاليم الإسلام وفضائله .

وعثمان أول خليفة زاد الناس في أعطياتهم مائة وكان عمر يجعل لكل نفس منفوسة (مولودة) من أهل الفيء في رمضان درهماً في كل يوم وفرض لأزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم درهمين . فقيل له : لو صنعت طعاماً فجمعتهم عليه فقال : أشبع الناس في بيوتهم . فأقر عثمان الذي كان صنع عمر وزاد فوضع طعام رمضان ، فقال : للمتعبد الذي يتخلف في المسجد وابن السبيل والمعترين من الناس .

عزل سعد بن أبي وقاص عن الكوفة

وتولية الوليد بن عقبة

لم تطل ولاية سعد على الكوفة فعزله عثمان وولى بعده الوليد ابن عقبة والسبب في عزل سعد هو أنه استقرض من عبدالله بن مسعود من بيت المال مالاً فأقرضه ، فلما تقاضاه لم يتيسر عليه فارتفع بينهما الكلام حتى استعان عبد الله بأناس على استخراج المال واستعان سعد بأناس على استنظاره فاقتربوا وبعضهم يلوم بعضاً . يلوم هؤلاء سعداً ويلوم هؤلاء عبد الله .

عن قيس بن أبي حازم قال : كنت جالساً عند سعد وعنده ابن أخيه هاشم ابن عتبة فأتى ابن مسعود سعداً فقال له : أدّ المال الذي قبلك . فقال له سعد : ما أراك إلا ستلقى شراً . هل أنت إلا ابن مسعود عبد من هذيل ؟ ! فقال : أجل والله إني لابن مسعود وإنك لابن حمينة . فقال هاشم : إنكما لصاحبا رسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر إليكما . فطرح سعد عوداً كان في يده وكان رجلاً فيه حدة ورفع

يديه . وقال : اللهم رب السموات والأرض . فقال عبد الله : ويلك قل خيراً ولا تلعن . فقال سعد عند ذلك : أما والله لولا اتقاء الله لدعوت عليك دعوة لا تخطئك . فولى عبدالله سريعاً حتى خرج (وكان سعد بن أبي وقاص مجاب الدعوة) .

غضب عثمان رضي الله عنه على سعد وعلى ابن مسعود بسبب هذه المشادة فعزل سعداً ولم يعزل ابن مسعود بل أقره واستعمل الوليد ابن عقبة وكان عاملاً لعمر على ربيعة بالجزيرة فقدم الكوفة فلم يتخذ لداره باباً حتى خرج من الكوفة .

ولعل القارىء يعجب لماذا أقر عثمان ابن مسعود ولم يعزله ؟ فنقول إن عبدالله بن مسعود لما كان غلاماً كان يرعى أغنام عقبة بن أبي معيط وكان إسلامه قديماً وهو أول من جهر بالقرآن بمكة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو راع لعقبة بن أبي معيط والد الوليد أي أنه من أتباع بني أمية وكان عمر رضي الله عنه بعثه إلى الكوفة معلماً ووزيراً ثم إن ابن مسعود لم يكن والياً حتى يعزله عثمان رضي الله عنه بل كان وزيراً للمالية .

أما الوليد الذي خلف سعداً فهو أموي أخو عثمان لأمه أسلم يوم الفتح ولا خلاف بين أهل العلم بتأويل القرآن أن قوله عز وجل (إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا) نزلت في الوليد بن عقبة وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثه مصدقاً إلى بني المصطلق فعاد وأخبر عنهم أنهم ارتدوا ومنعوا الصدقة ، وذلك أنهم خرجوا إليه يتلقونه فهابهم فانصرف عنهم فبعث إليهم رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد فأخبروه أنهم متمسكون بالإسلام ونزلت : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا)[1] .

---

(1) سورة الحجرات ، آية ٦ .

لما قدم الوليد على سعد قال له : والله ما أدري أكست بعدنا أم حمقنا بعدك فقال : « لا تجز عن أبي إسحاق فإنما هو الملك يتغداه قوم ويتعشاه آخرون » فقال سعد : « أراكم والله ستجعلونه مُلكا » وكان الوليد من رجال قريش ظرفاً وحلماً وشجاعة وأدباً ، وكان من الشعراء المطبوعين .

قال الطبري فقدم الوليد في السنة الثانية من إمارة عثمان ، وقد كان سعد عمل عليها سنة وبعض أخرى فقدم الكوفة وكان أحب الناس في الناس وأرفقهم بهم ، فكان كذلك خمس سنين وليس على داره باب .

وحدثنا أبو فرج الأصفهاني في الجزء الخامس من الأغاني عن سبب تولية الوليد الكوفة فقال :

لم يكن يجلس مع عثمان رضي الله عنه على سريره إلا العباس ابن عبد المطلب وأبو سفيان بن حرب والحكم بن العاص والوليد بن عقبة ، فأقبل الوليد يوماً فجلس ثم أقبل الحكم . فلما رآه عثمان زحل (تنحـّى) له عن مجلسه فلما قام الحكم قال له الوليد : والله يا أمير المؤمنين ، لقد تلجلج في صدري بيتان قلتهما حين رأيتك آثرت عملك على ابن أملك . فقال له عثمان رضي الله تعالى عنه : إنه شيخ قريش ، فما البيتان اللذان قلتهما ؟ قال قلت :

رأيت لعم المرء زُلْفَى قرابة دون أخيه حادثاً لم يكن قدما
فأمَّلْتُ عَمْراً أن يَشِبّ وخالداً لكي يدعواني يوم مزحمة عمّا

يعني عمراً وخالداً ابني عثمان . فرق له عثمان وقال له : قد وليتك العراق (يعني الكوفة) ا هـ . ولا يصدق إنسان يعرف مكانة عثمان رضي الله عنه أنه ولى الوليد الكوفة بعد أن أنشده هذين البيتين إرضاء له .

نقض أهل الاسكندرية الصلح (١)

سنة ٢٥هـ (اواخر سنة ٦٤٥ م)

جاء في دائرة المعارف البريطانية أنه بعد استيلاء العرب على الإسكندرية بقليل انتهز الروم فرصة تغيب عمرو بن العاص وارتحال جزء كبير من جيشه . فاستولوا على الإسكندرية . فلما بلغ عمرو بن العاص ذلك عاد سريعاً واستولى على المدينة ، وهذا يوافق ما جاء في ابن الأثير .

كان استيلاء الرومان على الإسكندرية في أوائل سنة ٢٥ هـ وأواخر سنة ٦٤٥ م وكان عمرو بن العاص استخلف على الإسكندرية عبدالله ابن حذافة . قال الأستاذ بتلر : « وعلى كل حال فمن المؤكد أنه قد عزل قبل نزول الجيش الروماني إلى البر وأن خلفه لم يكن كفأً فترك وسائل الدفاع في حالة ضعف شديد » .

أما رواية الطبري فنفيد أن عمرو بن العاص كان قد استدعي إلى مكة فلما ذاعت أخبار الثورة في الإسكندرية صدرت الأوامر إليه بتولي القيادة .

وجاء في تاريخ كامبردج للقرون الوسطى (جزء ٢ ص ٣٥) ما يؤيد استدعاء عمرو بن العاص بعد عزله وتولية عبد الله .

كاتب الروم قسطنطين بن هرقل (وكان الملك يومئذ) يخبرونه بقلة من عندهم من المسلمين (وكانوا ألف جندي) وبما هم فيه من الذلة وأداء الجزية فبعث رجلاً من أصحابه يقال له أمنويل Emanuel the Eunuch في ثلاثمائة مركب مشحونة بالمقاتلة — ولم يكن

---

(١) ابن كثير «البداية والنهاية» ص١٥١ ، والطبري في تاريخه ص٤٧ .

للمسلمين أسطول كالأسطول الروماني . وقد رست هذه المراكب في ميناء الإسكندرية بلا إنذار فقتل حرس الإسكندرية من المسلمين ويبلغون ألفاً ولم ينج منهم إلا القليل . ولم يقتصر الجيش الروماني على الإستيلاء عليها بل توغلوا في البلاد والقرى المجاورة في أرض الدلتا واستولوا على الغلال والأموال بلا حساب ، وعاملوا الأهالي معاملة الأعداء المحاربين .

كان العنصر الروماني في الإسكندرية هو السائد . ويرى الأستاذ بتلر أن الجيش الروماني لو استمر في زحفه إلى الفسطاط بدلاً من ضياع الوقت في بلاد الدلتا ، لكان في وسعه التغلب على عبدالله بن أبي سرح وإعادة حصن بابليون ، ولكنهم لم يقدموا على ذلك وبذا مكنوا عمرو بن العاص من إعادة مركزه وتنظيم جيشه ا هـ .

سار عمرو في خمسة عشر ألفاً ، والتقى بالجيش الروماني الذي يفوقه عدداً بنقيوس فالتحمت بينهم الحرب فاقتتلوا قتالاً شديداً وأصيب جواد عمرو بن العاص بسهم فنزل واضطر أن يحارب على قدميه وانتهى الأمر بانهزام جيش منويل وفراره نحو الإسكندرية في حالة ارتباك عظيم فتحصنوا بها فقاتلهم عمرو أشد قتال ونصب المجانيق فأخذت جُدُرَها وألح بالحرب حتى دخلها بالسيف عنوة ، وقتل امنويل وهدم المسلمون جدار الإسكندرية وكان عمرو نذر لئن فتحها ليفعلن ذلك . ووضع عمرو على أرض الإسكندرية الخراج ، وعلى أهلها الجزية وبذلك استولى العرب للمرة الثانية . ويقول الأستاذ بتلر إن ذلك كان في صيف سنة ٦٤٦ م .

روى البلاذري عن يزيد بن أبي حبيب قال : « كان عثمان عزل عمرو بن العاص عن مصر وجعل عليها عبدالله بن سعد ، فلما نزلت الروم الإسكندرية سأل أهل مصر عثمان أن يقر عَمرًا حتى يفرغ من

قتال الروم ، لأن له معرفة بالحرب وهيبة في أنفس العدو حتى هـزم إلخ » .

وقد أخطأ مؤرخو العرب فقالوا : إن المقوقس كان حياً في هذه الغزوة والحقيقة أنه كان قد مات منذ زمن طويل ، كما قرر الأستاذ بتلر ، وقد أدرك البلاذري خطأ وجود المقوقس في ذلك الوقت فقال ما نصه :

(وروى أن المقوقس إعتزل أهل الإسكندرية حين نقضـوا فأقره عمرو ومن معه على أمرهم الأول ، وروى أيضاً أنه كان قد مات قبل هذه الغزاة) .

والحقيقة أن بنيامين كان بطريركاً وزعيماً للوطنيين المصريـين فظن المؤرخون أنه المقوقس ، وهذا خلط في الحوادث والتواريخ ، وقد كانت وفاة المقوقس في ٢١ مارس سنة ٦٤٢ م [١] على ما جاء في تاريخ كامبردج للقرون الوسطى . أما الأستاذ بتلر فيؤرخ وفاته ١٤ يوليه سنة ٦٤٢ م . ولم يكن البطريرك بنيامين موجوداً في الإسكندرية عند دخول الروم ، ويظن أنه هرب لكنه على كل حال بقي مواليـاً للعرب ولم ينقض صلحهم بل الذي نقضه الروم .

كانت نتيجة نقض الإسكندرية الصلح أن استولى عليها العـرب مرة ثانية ، وقتلوا الروم ، ولم يكن هناك سبب واضح لنقض معاهدة الصلح ، فما فعله الإمبراطور كان مخالفاً للقوانين الحربية كما قـال الأستاذ بتلر ، ولا يوجد ما يبرره فلا غرو إذا عامل العرب الثائرين بالشدة ، ثم إن عَمرًا بعد أن أخضع الثوار في الإسكندرية ذهـب لإخضاع المدن التي ثارت في الدلتا . ولما تم له ذلك أرسل الأسرى إلى المدينة فأعادهم عثمان رضي الله عنه .

---

(1) Cambridqe Medeival History (1931) Vol. 2, page 351 .

وكان الروم لما خرجوا من الإسكندرية قد أخذوا أموال أهل تلك القرى من وافقهم ومن خالفهم ، فلما ظفر بهم المسلمون جاء أهل القرى الذين خالفوهم فقالوا لعمرو بن العاص : إن الروم أخذوا دوابنا وأموالنا ، ولم نخالف نحن عليكم ، وكنا على الطاعة . فرد عليهم ما عرفوا من أموالهم بعد إقامة البينة هذا ما ذكره ابن الأثير وأشار إليه الأستاذ بتلر معترفاً بفضل المبادىء التي سار عليها عمرو في إدارة حكومته وبشرف طبيعته ، وكان أهل هذه القرى المذكورة الذين تظلموا لعمرو من الروم أقباطاً .

غزو ارمينية وآذربيجان(1)
سنة ٢٥ هـ

قلنا إن الوليد بن عقبة تولى مكان سعد بن أبي وقاص في الكوفة فعزل عتبة بن فرقد عن آذربيجان ، وكان أميراً عليها لعمر بن الخطاب . وروى الطبري أنه كان بالرّيّ وآذربيجان ١٠,٠٠٠ مقاتل من أهل الكوفة ٦٠٠٠ بآذربيجان و ٤٠٠٠ بالري وكان بالكوفة ٤٠,٠٠٠ . فنقض أهل أرمينية وآذربيجان الصلح بعد أن عزل الوليد عتبة ابن فرقد فغزاهم الوليد .

فدعا (سلمان بن ربيعة الباهلي) فبعثه أمامه مقدمة له وخرج الوليد في جيش وهو يريد التوغل في أرض أرمينية فمضى حتى دخل آذربيجان .

---

(1) حدثت تغييرات في حدود ارمينية لما طرأ عليها من التقلبات فحدودها القديمة من جهة (الشرق) بحر الخزر وبلاد العجم (والجنوب) اشورية وما بين النهرين وارض السريان وكيليكية (والغرب) آسيا الصغرى (والشمال) البحر الأسود وكرجستان وافغانستان وكانت سابقا تمتد نحو جبال القوقاز وتتصل بها من الجهة الشمالية وإلى بحر قزوين .

وبعث (عبد الله بن شُبيْل بن عوف الأحمسي) في ٤٠٠٠ فأغار على أهل موقان والببر والطيلسان ورجع إلى الوليد .

ثم صالح الوليد أهل آذربيجان على ٨٠٠,٠٠٠ درهم وذلك هو الصلح الذي كانوا صالحوا عليه حذيفة بن اليمان سنة ٢٢ هـ بعد موقعة نهاوند بسنة ، ثم إنهم حبسوها عند وفاة عمر . فلما هزمهم الوليد وصالحهم قبض منها المال وبث فيمن حولهم من الأعداء الغارات .

ولما عاد عبد الله بن شبيل من غارته بعث سلمان بن ربيعة الباهلي إلى أرمينية في ١٢٠٠٠ فهزمهم [1] .

معاوية بن ابي سفيان يطلب المدد

بعد أن عاد الوليد بن عقبة من الغزو أتاه كتاب عثمان رضي الله عنه هذا نصه :

« أما بعد فإن معاوية بن أبي سفيان كتب إليّ يخبرني أن الروم قد أجلبت على المسلمين بجموع عظيمة وقد رأيت أن يمدهم إخوانهم من أهل الكوفة فإذا أتاك كتابي هذا فابعث رجلاً ممن ترضى نجدته وبأسه وشجاعته وإسلامه في ثمانية آلاف أو تسعة آلاف أو عشرة آلاف إليهم من المكان الذي يأتيك فيه رسولي والسلام » .

يرى القارىء من ذلك أن أهالي البلاد التي دخلت في حوزة الإسلام انتهزوا فرصة وفاة عمر رضي الله عنه لمحاربة المسلمين فنقض أهل الأسكندرية الصلح لكن عمرو بن العاص هزمهم ،

---

(١) راجع البداية والنهاية لابن كثير ، الجزء السابع ص ١٥٠ .

ونقض كذلك أهل أرمينية وآذربيجان صلحهم فهزمهم الوليد ، والآن نجد معاوية بالشام يطلب المدد لأن الروم جمعوا جيوشهم وأجلبوا على المسلمين .

وبعد أن وصل إلى الوليد كتاب الخليفة قام في الناس فحمد الله وأثنى عليه وقال :

« أما بعد أيها الناس فإن الله قد أبلى المسلمين في هذا الوجه بلاءً حسناً رد عليهم بلادهم التي كفرت وفتح بلاداً لم تكن افتتحت وردهم سالمين غانمين مأجورين فالحمدلله رب العالمين . وقد كتب أمير المؤمنين يأمرني أن أندب منكم ما بين العشرة الآلاف إلى الثمانية الآلاف . تمدون إخوانكم من أهل الشام فإنهم قد جاشت عليهم الروم وفي ذلك الأجر العظيم ، والفضل المبين فانتدبوا رحمكم الله مع سلمان بن ربيعة الباهلي » .

فانتدب الناس وخرج ثمانية آلاف رجل من أهل الكوفة فمضوا حتى دخلوا مع أهل الشام أرض الروم وعلى جند أهل الشام (حبيب بن مسلمة بن خالد الفهري) وعلى جند أهل الكوفة سلمان بن ربيعة فصد المسلمون هجوم الروم فأصاب الناس ما شاءوا من سبي وغنائم وافتتحوا حصوناً كثيرة وساروا منتصرين حتى بلغوا آسيا الصغرى مجتازين أرمينية فوصلوا طبرستان واتصلوا بزملائهم على الشاطىء الشرقي لبحر قزوين واتجهوا نحو الشمال إلى أن وصلوا تفليس والبحر الأسود . فهذا نصر عظيم وتوسع في الفتح سريع لا نظير له في تاريخ العالم .

عزل عمرو بن العاص عن مصر (١)

سنة ٢٦ هـ (٦٤٧ م)

وفتح افريقية

لما ولي عثمان أقر عمرو بن العاص على عمله ، وكان لا يعزل أحداً إلا عن شكاة ، أو استعفاء من غير شكاة ، ثم عزل عمرو ابن العاص عن خراج مصر واستعمل عليه عبد الله بن سعد بن أبي سرح أمير الصعيد في زمن عمر بن الخطاب .

كان عمرو بن العاص صاحب السلطة في مصر زمن عمر رضي الله عنه ، فكان قائد الجيوش ، وصاحب الخراج ، لكن عمر كان يستبطىء عمراً في جمع الخراج ويستقل ما يجبيه من مصر . ومما كتبه له في هذا الشأن : (وأعجب مـا عجبت أنها « أي مصر » لا تؤدي نصف ما كانت تؤديه من الخراج قبل ذلك على غير قحط ولا جدب) لكن يلاحظ أن عمرو بن العاص ألغى كثيراً من الضرائب التي كانت تجبى في عهد الدولة الرومانيـة ، وكانت سبب شكوى المصريين وتألمهم من الحكم الروماني .

وعلى كل حال لم يفكر عمر بن الخطاب في نزع الخراج من عمرو وقصره على الحرب مع تشدده عليه في جباية الخراج . فلما ولي عثمان رأى إسناد الخراج إلى عبد الله بن سعد أبي سرح[٢]

(١) راجع الطبري ، الجزء الخامس ، ص ٤٨ .

(٢) أسلم عبدالله بن سعد قبل الفتح وهاجر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان يكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ارتد مشركا وسار الى قريش بمكة فقال لهم : اني كنت أصرفه محمدا حيث اريد . كان يملي علي « عزيز حكيم » فاقول : أو عليم حكيم فيقول نعم كل صواب . فلما كان يوم الفتح أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتله :

وكان أخا عثمان من الرضاعة (أرضعت أمه عثمان) فكتب عبدالله إلى عثمان يقول : إن عمراً كسر عليّ الخراج و كتب عمرو يقول إن عبد الله قد كسر عليّ مكيدة الحرب ، فعزل عثمان عمراً واستقدمه واستعمل بدله عبد الله على حرب مصر وخراجها ، أي أنه أعطاه السلطة التي كانت مخولة لعمرو من قبل فقدم عمرو مغضباً فدخل على عثمان وعليه جبة محشوة فقال : ما حشو جبتك ؟ قال : عمرو ، فقال عثمان قد علمت أن حشوها عمرو ولم أرد هذا إنما سألتك أقطن هو أم غيره ؟ ثم بعث عبد الله بن سعد إلى عثمان بمال من مصر قد حشد فيه فدخل عمرو ، على عثمان فقال عثمان : يا عمرو هل تعلم أن تلك اللقاح درّت بعدك ؟ فقال عمرو : إن فصالها هلكت (واللّقاح جمع اللقحة وهي الناقة الحلوب الغزيرة اللبن وقد شبه مصر بها ودرّت أي أخرجت لبنها) يريد عثمان أن مصر قد كثر خراجها على يد عبد الله بن سعد فقال له عمرو : إن فصالها هلكت أي أن أولاد اللقاح قد هلكت بحرمانها من اللبن ، يريد أن في ذلك إرهاقاً لأهالي مصر وتحميلهم ما لا يطاق .

← ولو وجد تحت أستار الكعبة ففر عبدالله بن سعد الى عثمان بن عفان فتبعه عثمان حتى اتى به الى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ما اطمأن اهل مكة فاستأمنه له فصمت رسول الله طويلا ثم قال : نعم ، فلما انصرف عثمان قال رسول الله لمن حوله : ما صمت إلا ليقوم إليه بعضكم فيضرب عنقه ، فقال رجل من الأنصار : فهلا اومأت إليّ يا رسول الله ؟ فقال : إن النبي لا ينبغي ان يكون له خائنة الأعين. ، واسلم ذلك اليوم فحسن إسلامه ولم يظهر منه بعد ذلك ما ينكر عليه .

وهذه الزيادة التي أخذها عبد الله ، إنما هي على الجماجم فإنه أخذ عن كل رأس ديناراً خارجاً عن الخراج فحصل لأهل مصر بسبب ذلك الضرر الشامل . وكانت هذه أول شدة وقعت لأهل مصر في مبتدأ الإسلام . ويقال أن عبد الله جبى خراج مصر في تلك السنة ١٤,٠٠٠,٠٠٠ دينار بعد أن كان ١٢,٠٠٠,٠٠٠ زمن عمرو بن العاص وهذا ما دعا عثمان رضي الله عنه إلى توجيه اللوم إلى عمرو فكان جوابه ما ذكر .

كان عبد الله من جند مصر وكان قد أمره عثمان بغـزو إفريقية سنة خمس وعشرين وقال له عثمان : إن فتح الله عليك فلك من الفيء خمس الخمس نفلاً . وأمر عبـدالله بن نافع بن عبد القيس وعبد الله بن نافع بن الحارث على جند وسرّحهما ، وأمرهما بالإجتماع مع عبد الله بن سعد صاحب إفريقية ، ثم يقيم عبد الله في عمله . فخرجوا حتى قطعوا أرض مصر وكان مـن بين الجيش الذي أرسله عثمان جماعة من أعيان الصحابة منهم بن عباس ، وبن عمر . وبن عمرو بن العاص ، وبن جعفـر والحسن ، والحسين فسار بهم عبد الله بن سعد إلى أن وصلوا برقة فلقيهم عقبة بن نافع فيمن معه من المسلمين وساروا إلى طرابـلس الغرب في جيش عدده ٤٠,٠٠٠ فنهبوا من عندها من الروم وسار نحو شمال إفريقية وبث السرايا في كل ناحية وكان ملكهم اسمه جرجير (Greaorius) وملكه من طرابلس إلى طنجة [1] فلما بلغه خبر المسلمين ، تجهز وجمع العساكر وأهالي البلاد من قبائل

---

(١) قال مستر ج.ب. بري الذي علق على كتاب جيبون في سقوط الامبراطورية الرومانية (طبعة سنة ١٩١١ الجزء الخامس ص٤٩٠ بالهامش) ولا شك في ان جريجوري ثار على كونستانس واعلن نفسه امبراطورا .

البربر غير المدربين على القتال فبلغ عسكره ١٢٠,٠٠٠ والتقى هو والمسلمون في مكان بينه وبين سُبيَطلة يوم وليلة وهذه المدينة كانت في ذلك الوقت دار الملك (Sujetula) بينهـا وبين القيروان سبعون ميلاً وكان بها حصن قوي فأقاموا هناك يقتتلون كل يوم وراسله عبد الله بن سعد يدعوه إلى الإسلام ، أو الجزية فامتنع منهما وتكبر عن قبول أحدهما وقيل كان عدد جيش المسلمـين ٢٠,٠٠٠ وانقطع خبر المسلمين عن عثمان فسير عبد الله بن الزبير في جماعة إليهم ليأتيه بأخبارهم . فسار مجداً ووصل إليهم وأقام ولما وصل كثر الصياح والتكبير في المسلمين فسأل جرجير عن الخبر فقيل قد أتاهم عسكر ففت ذلك في عضده . ورأى عبد الله بـن الزبير قتال المسلمين كل يوم من الصباح إلى الظهر فإذا أذن بالظهر عاد كل فريق إلى خيامه وشهد القتال من الغـد فلم يرَ ابن أبي سرح معهم فسأل عنه فقيل إنه سمع منادى جرجير يقول من قتل عبد الله بن سعد ، فله مائة ألف دينار وأزوجه ابنتي وهو يخاف . فحضر عنده (في خيمته) وقال له تأمر منادياً ينادي من أتـاني برأس جرجير نفلته مائة ألف وزوجته ابنته واستعملته على بـلاده ففعل ذلك فصار جرجير يخاف أشد من عبد الله .

ثم إن عبد الله بن الزبير قال لعبد الله بن سعد ، إن أمرنـا يطول مع هؤلاء وهم في أمداد متصلة وبلادهم لهم ؛ ونحـن منقطعون عن المسلمين وبلادهم . وقد رأيت أن نترك غداً جماعة صالحة من أبطال المسلمين في خيامهم متأهبين ونقاتل نحن الروم في باقي العسكر إلى أن يضجروا أو يملوا فإذا رجعوا إلى خيامهم ورجع المسلمون ركب من كان في الخيام من المسلمين ولم يشهدوا القتال وهم مستريحون ونقصدهم على غرة فلعل الله ينصرنا عليهم .

فأحضر جماعة من أعيان الصحابة واستشارهم فوافقوه على ذلك . فلما كان الغد فعل عبد الله ما اتفقوا عليه وأقام جميع شجعان المسلمين في خيامهم وخيولهم عندهم مسرجة ومضى الباقون فقاتلوا الروم إلى الظهر قتالاً شديداً . فلما أذن بالظهر هم الروم بالانصراف على العادة فلم يمكنهم ابن الزبير وألح عليهم بالقتال حتى أتعبهم ، ثم عاد عنهم هو والمسلمون فكل من الطرفين ألقى سلاحه ووقع تعباً فعند ذلك أخذ عبد الله بن الزبير من كان مستريحاً من شجعان المسلمين وقصد الروم ، فلم يشعروا بهم حتى خالطوهم وحملوا عليهم حملة رجل واحد وكبروا فلم يتمكن الروم من لبس السلاح حتى غشيهم المسلمون .

قتل جرجير وانهزام الروم

إنتصر المسلمون بفضل الخطة التي دبرها عبد الله بن الزبير ، لأن الجيشين اعتادا القتال إلى الظهر وطرح السلاح والركون إلى الراحة بعد العناء من القتال ثم استئناف الحرب في اليوم التالي وهكذا . ولو بقي الحال على هذا المنوال لطال أمد القتال بلا جدوى لكن عبد الله رأى أن يحارب بنصف الجيش في الصباح والنصف الآخر بعد الظهر حتى لا يتمكن العدو من الراحة كما ألف .

وعبد الله بن الزبير بن العوام أمه أسماء بنت أبي بكر الصديق ذات النطاقين . وهو أول مولود في الإسلام بعد الهجرة فحنكه رسول الله صلى الله عليه وسلم بتمرة لاكها في فيه ثم حنكه بها فكان ريق رسول الله صلى الله عليه وسلم أول شيء دخل جوفه وسماه عبد الله وكان صوّاماً قوّاماً . طويل الصلاة عظيم الشجاعة وقد أخطأ جيبون في كتابه « سقوط الدولة الرومانية » فتوهم أن

الذي انتصر في هذه الموقعة هو الزبـــير نفسه الذي تسلق حصن بابليون والصواب أنه عبد الله بن الزبير كما ذكره ابن الأثير وابن خلدون .

انهزم الروم وقتل منهم خلق كثير وقتل جرجير . قتله ابـــن الزبير وأخذت ابنته سبية وكانت تحارب مع أبيها وهي موصوفة بالجمال وتحسن ركوب الخيل وتجيد الرمي . وحاصر المدينة عبد الله بن سعد حتى فتحها ووجد فيها من الأموال شيئاً كثيراً وكان سهم الفارس ٣٠٠٠ دينار وسهم الراجل ألفا . وقد دام القتـــال خمسة عشر شهراً .

ولما فتح عبد الله مدينة سبيطلة بث جيوشه في البلاد فبلغـــت قَفْصَة (وهي بلدة صغيرة بينها وبين القيروان ثلاثة أيـــام) فسبوا وغنموا وسير عسكره إلى حصن الأجم وقد احتمى به أهل تلك البلاد فحاصره وفتحه بالأمان فصالحه أهل إفريقيـــة عـــلى ٢,٥٠٠,٠٠٠ دينار[1] ونفل عبد الله بن الزبير ابنة الملك وأرسل إلى عثمان بالبشارة . وكان مقام عبد الله بن سعد سنة وثلاثة أشهر وذلك سنة ٢٧هـ وحمل الخمس إلى المدينة فاشتراه مروان بن الحكم بمبلغ ٥٠٠,٠٠٠ دينار فوضعها عنه عثمان . وكان هذا مما أخـــذ عليه .[2]

ومروان بن الحكم هو ابن عم عثمان وكان مع أبيـــه بالطائف حتى استخلف عثمان فردهما واستكتب عثمان مروان وضمه إليه .

وفي ذلك يقول عبد الرحمن الكندي :

---

(١) وقيل : بذلوا له ٣٠٠ قنطار من الذهب .

(٢) راجع ابن كثير ، الجزء السابع ، ص ١٥٢ .

سأحلف بالله جهد اليميـ ـن ما ترك الله أمراً سدى
ولكن خلقت لنا فتنـــة لكي نبتلي بك أو تبتـــلي
دعوت اللعين فأدنيتـــه خلافاً لسنة من قد مضى
وأعطيت مروان خمس العبا د ظلماً لهم وحميت الحمى

كان بيع خمس الغنائم لمروان مما أخذ على عثمان رضي الله عنه أولاً لأن مروان ابن عمه . ثانياً لأنه لا يُعلم على أي أساس قدر الخمس بهذا المبلغ فقد يساوي أضعاف ذلك . ثالثاً لأن عثمان هو الذي دفع المبلغ . رابعاً لأنه لم تجر سنة رسول الله وأبي بكر وعمر ببيع الغنائم لا إلى غريب ولا إلى قريب بل كانت توزع على المسلمين في الحال . أما ابن الزبير فانه رجع إلى عثمان بالبشارة بفتح إفريقية ومعه ابنة جرجير وقيل بل وقعت لرجل آخر من الأنصار .

فتح قبرص (١)

سنة ٢٨ هـ (٦٤٩ م)

قبرص من أكبر جزائر البحر الأبيض المتوسط في أقصى شرقيه وهي جزيرة جبلية بها سلسلتان من الجبال . يشتغل أهلها بالزراعة وأرضها خصبة جداً وكانت تابعة للأمبراطورية الرومانية .

كان فتح قبرص على يد معاوية سنة ٢٨ هـ غزاها في هذه السنة وغزاها معه جماعة من الصحابة فيهم أبو ذر وعبادة بن الصامت ومعه زوجته أم حرام وأبو الدرداء وشداد بن أوس[٢] واستعمل عليهم عبد الله بن قيس الحارثي . وكان معاوية قد ألحّ على عمر بن

---

(١) ذكرها المؤلف أصلاً : قبرس .

(٢) الطبري ، المجلد الخامس ، ص ٥١ .

الخطاب في غزو البحر لقرب الروم من حمص . وقال إن قرية من قرى حمص ليسمع أهلها نُباح كلابهم وصياح دجاجهم . فكتب عمر إلى عمرو بن العاص صف لي البحر وراكبه . فكتب إليه عمرو بن العاص :

« إني رأيت خلقاً كبيراً يركبه خلق صغير ليس إلا السماء والماء . إن ركد خرق القلوب وإن تحرك أزاغ العقول . يزاد فيه اليقين قلة . والشك كثرة . وهم فيه كدود على عود إن مال غرق وإن اعتدل برق » .

فلما قرأ الكتاب عمر كتب إلى معاوية :

« والذي بعث محمداً صلى الله عليه وسلم بالحق لا أحمل فيه مسلماً أبداً ، وقد بلغني أن بحر الشام يشرف على أطول شيء من الأرض فيستأذن الله في كل يوم وليلة أن يغرق الأرض ! ! فكيف أحمل الجنود على هذا الكافر بالله ، لمسلم أحب إليّ مما حوت الروم وإياك أن تعرض إليّ فقد علمت ما لقي العلاء مني » (١) .

إن هذا الكتاب غريب فإنه يدل على أن العرب كانوا يخشون البحر وقد حسبه عمر خطراً يهددالأرض بالغرق كل يوم وليلة واعتبره كافراً . وعلى كل حال كان عمر رضي الله عنه يكره أن يجازف بالمسلمين في البحر .

فلما كان زمن عثمان رضي الله عنه كتب إليهمعاوية يستأذنه في غزو البحر وألحّ عليه في ذلك . وأخيراً أجابه عثمان ولكنه احتاط فلم يجعل التجنيد إجبارياً بل جعله إختيارياً حيث قال :

---

(١) راجع الطبري وابن الأثير في باب الأحداث المشهورة من العام ٢٨ ، الجزء السابع ص ٤٦ .

« لا تنتخب الناس ولا تقرع بينهم . خيرهم فمن اختار الغزو طائعاً فاحمله وأعنه » وبهذه نراه أجاب معاوية من جهة ومن جهة أخرى لم يجازف بإرسال المسلمين فجعل التجنيد إختيارياً حتى إذا ما هزموا لم يكن ملوماً . والظاهر أنه كان لا يزال متأثراً برأي عمر من حيث تخوفه من البحر . فأول أسطول جهزه المسلمون كان لغزو قبرص سنة ٢٨ هـ تحت قيادة عبد الله بن قيس وسار إليها عبد الله بن سعد من مصر بسفن أقلعت من الإسكندرية فاجتمعوا عليها فصالحهم أهلها على جزية ٧٠٠٠ دينار كل سنة [1] يؤدون إلى الروم مثلها ولا منعة لهم على المسلمين ممن أرادهم من سواهم ، وعلى أن يكونوا عوناً للمسلمين على عدوهم ويكون طريق الغزو للمسلمين عليهم . وعلى ذلك أخذت قبرص بسهولة فقد كانت الحامية المسيحية فيها ضعيفة . وقيل إن عبد الله بن قيس غزا في البحر خمسين غزوة بين شاتية وصائفة ولم يغرق فيه أحد ثم إنه قتل عندما كان مشتغلاً بكشف مرفأ في الروم إذ خرج في قارب طليعة فانتهى إلى المرفأ من أرض الروم فعرفوه وقتلوه ذلك في آخر زمان عبد الله بن قيس الحارثي .

وفي هذه الغزوة ماتت أم حرام بنت ملحان الأنصارية زوجة عبادة بن الصامت . ألقتها بغلتها بجزيرة قبرص فاندقت عنقها فماتت تصديقاً للنبي صلى الله عليه وسلم .

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكرمها ويزورها في بيتها ويقيل عندها وأخبرها أنها شهيدة . ففي ذات يوم نام في بيتها فاستيقظ وهو يضحك وقال عُرض عليّ ناس من أمتي يركبون

---

(١) الطبري ، الجزء الخامس ، ص ٤٣ .

ظهر البحر الأخضر كالملوك على الأسرة . فقالت يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم . قال إنك منهم . ثم نام فاستيقظ وهو يضحك فقالت يا رسول الله ما يضحكك ؟ قال عُرض عليّ ناس من أمتي يركبون ظهر البحر الأخضر كالملوك على الأسرة . قلت يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم . قال أنت من الأولين فتزوجها عبادة ابن الصامت فأخرجها معه . فلما جاز البحر ركبت دابة فصرعتها فقتلتها وقد دفنت رحمها الله في قبرص .

وفي هذه السنة ٢٨ هـ تزوج عثمان نائلة ابنة الفرافصة وكانت نصرانية فأسلمت قبل أن يدخل بها[١] . وسيأتي لها ذكر عند مقتل عثمان رضي الله عنه . وفيها بنى عثمان داره بالمدينة المسماة بالزوراء وفرغ منها .

عزل أبي موسى الأشعري عن البصرة وتولية عبدالله بن عامر سنة ٢٩ هـ

عزل عثمان رضي الله عنه في سنة ٢٩ هـ أبا موسى الأشعري عن البصرة لثلاث سنين مضت من خلافته . وولى عبد الله بن عامر بن كريز وهو ابن خاله .[٢]

وكان سبب عزل أبي موسى أن أهل إيذَج[٣] والأكراد كفروا فنادى أبو موسى في الناس وحضهم وندبهم وذكر من فضل

---

(١) أورد الخبر الطبري صفحة ٥٤ في المجلد الخامس .
(٢) راجع البداية والنهاية لابن كثير ، ص ١٥٤ .
(٣) ايذج : كورة وبلد بين خوزستان واصبهان وهي في وسط الجبال يقع بها ثلج كثير وزرعهم على الأمطار ولهم بطيخ كثير وهي كثيرة الزلازل وبها معادن كثيرة وبها بيت نار قديم كان يوقد إلى أيام الرشيد .

الجهاد في الرُّجلة .(القوة على المشي) حتى حمل نفر على دوابهم وأجمعوا على أن يخرجوا رجالاً (ماشين) . وقال آخرون لا والله لا نعجل بشيء حتى ننظر ما يصنع فإن أشبه قوله فعله فعلنا كما يقول : فلما خرج أخرج ثقله (أمتعته وأثقاله كلها) من قصره على أربعين بغلاً فتعلقوا بعنانه وقالوا : احملنا على بعض هذه الفضول وارغب في المشيّ كما رغبتنا فضرب القوم بسوطه فتركوا دابته فمضى . وأتوا عثمان فاستعفوه منه وقالوا ما كل ما نعلم نحب أن نقوله فأبدلنا به . فقال من تحبون فقالوا غيلان بن خرشة، في كل أحد عوض من هذا العبد الذي قد أكل أرضنا وأحيا أمر الجاهلية فينا . أما منكم خسيس فترفعوه ؟ أما منكم فقير فتجبروه يا معشر قريش حتى يأكل هذا الشيخ الأشعري هذه البلاد ؟ فانتبه لها عثمان فعزل أبا موسى وولى عبد الله بن عامر فلما سمع أبو موسى قال : يأتيكم غلام عمر خراج ولاج كريم الجدات ، والخالات والعمات يجمع له الجندان ، وكان عمر عبد الله خمساً وعشرين سنة وجمع له جند أبي موسى وجند عثمان بن أبي العاص الثقفي من عمان والبحرين واستعمل على خراسان عمير بن عثمان بن سعد وعلى سجستان عبد الله بن عمير الليثي وهو من ثعلبة فأثخن فيها إلى كابل وأثخن عمير في خراسان حتى بلغ فرغانة لم يدع دونها كورة إلا أصلحها وبعث إلى مكران عبيد الله بن معمر فأثخن فيها حتى بلغ النهر وبعث على كرمان عبد الرحمن بن عبيس وبعث إلى الأهواز وفارس نفراً ثم عزل عبد الله بن عمير واستعمل عبد الله بن عامر فأقره عليها سنة ثم عزله واستعمل عاصم بن عمرو وعزل عبد الرحمن بن عبيس وأعاد عدي بن سهيل بن عدي وصرف عبيدالله ابن معمر إلى فارس واستعمل مكانه عمير بن عثمان واستعمل على خراسان أمير بن أحمر اليشكري واستعمل على سجستان سنة أربع

عمران بن الفضيل البرجمي ومات عاصم بن عمرو بكرمان . [1]

عثمان رضي الله عنه يصلي بمنى صلاة المقيم(٢)

سنة ٢٩ هـ

صلى عثمان بالناس بمنى أربعاً . فأتى آت عبد الرحمن بن عوف فقال : هل لك في أخيك قد صلى بالناس أربعاً . فصلى عبد الرحمن بأصحابه ركعتين ثم خرج حتى دخل على عثمان فقال له : ألم تصلِّ في هذا المكان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ركعتين ؟ قال : بلى . قال : أفلم تصلِّ مع أبي بكر ركعتين ؟ قال : بلى . قال : أفلم تصلِّ مع عمر ركعتين ؟ قال : بلى . قال : ألم تصلِّ صدراً من خلافتك ركعتين ؟ قال : بلى . ثم قال : فاسمع مني يا أبا محمد : إني أخبرت أن بعض من حج من أهل اليمن وجفاة الناس قد قالوا في عامنا الماضي إن الصلاة للمقيم ركعتان ، هذا إمامكم عثمان يصلي ركعتين وقد اتخذت بمكة أهلاً فرأيت أن أصلي أربعاً لخوف ما أخاف على الناس وأخرى قد اتخذت بها زوجة ولي بالطائف مال فربما أطلعته فأقمت بعد الصدر . فقال عبد الرحمن بن عوف ما من هذا شيء لك فيه عذر . أما قولك اتخذت أهلاً فزوجتك بالمدينة تخرج بها إذا شئت ، وتقدم بها إذا شئت إنما تسكن بسكناك . وأما قولك : ولي مال بالطائف ، فإن بينك وبين الطائف مسيرة ثلاث ليال وأنت لست من أهل الطائف . وأما قولك يرجع من حج من أهل اليمن

---

(١) راجع الطبري ، الجزء الخامس ص ٥٥ .

(٢) أورد الطبري الخبر وقال : إن عثمان قد حج هذا العام وصلى بمنى صلاة المقيم ، كما أورد الخبر ابن كثير في البداية والنهاية ، ج٧ ص ١٥٣ .

وغيرهم فيقولون هذا إمامكم عثمان يصلي ركعتين وهو مقيم ، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينزل عليه الوحي والناس يومئذ الإسلام فيهم قليل ، ثم أبو بكر مثل ذلك . ثم عمر فضرب الإسلام بجرانه فصلى بهم عمر حتى مات ركعتين . فقال عثمان هذا رأي رأيته .

موقعة الصواري(١)

٣١ هـ ـ ٦٥٢ م

The Baftle of Masts

بعد ثلاث سنين من سقوط قبرص (٢) في يد المسلمين خرج الروم في جمع لم يجتمع مثله لهم قط منذ كان الإسلام فخرجوا في أسطول مؤلف من ٥٠٠ سفينة وقيل أكثر وتحدوا المسلمين وعليهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح الذي جهز كل سفينة في مصر وكانت مراكب المسلمين مائتي مركب ونيفاً واختار جيشاً من الشجعان فأمن الفريقان بعضهم بعضاً حتى قرنوا بين سفن المسلمين والروم بين صواريها وكانت الريح هبت فرست السفن على الشاطىء وربط المسلمون السفن بعضها إلى بعض بالقرب من الإسكندرية واشتبك القتال بين الفريقين ووثب الرجال على الرجال يتضاربان بالسيوف على السفن حتى رجعت الدماء إلى الساحل تضربها الأمواج وطرحت الأمواج جثث الرجال فقتل من المسلمين بشر كثير وقتل من الروم عدد كثير أيضاً وصبروا يومئذ صبراً لم يصبروا مثله في

---

(١) راجع البداية والنهاية لابن كثير ص ١٥٧ ، الجزء السابع ، وتاريخ الطبري الجزء الخامس ، ص ٦٨

(٢) في معظم المراجع العربية والإسلامية وردت قبرس فيها بالسين لا بالصاد .

موطن قط . وفي النهاية عجز الروم عن مقاومة المسلمين لشجاعتهم وحسن بلائهم وانهزموا وفر قائدهم إلى سرقوسة Syracause وهي أكبر مدينة بجزيرة [1] صقلية Scile

من هو قائد الروم في موقعة الصواري ؟

جاء في تاريخ الطبري وصف معركة الصواري وذكر قائد الروم كما يلي :

« فلقوا جموع الروم في خمسمائة أو ستمائة فيها (القسطنطين ابن هرقل » فقال أشيروا عليّ . قالوا ننظر الليلة فباتوا يضربون بالنواقيس وبات المسلمون يصلون ويدعون الله ، ثم أصبحوا وقد أجمع القسطنطين أن يقاتل فقربوا سفنهم وقرب المسلمون فربطوا بعضها إلى بعض وصف عبد الله بن سعد المسلمين على نواحي السفن ، وجعل يأمرهم بقراءة القرآن ويأمرهم بالصبر ووثب الروم في سفن المسلمين على صفوفهم حتى نقضوها فكانوا يقاتلون على غير صفوف . فاقتتلوا قتالاً شديداً . ثم إن الله نصر المؤمنين فقتلوا منهم مقتلة عظيمة لم ينج من الروم إلا الشريد » .

---

(١) صقلية بثلاث كسرات وتشديد اللام والياء ايضا مشددة وبعضهم يقول بالسين واكثر اهل صقلية يفتحون الصاد واللام وهي من جزائر البحر الأبيض المتوسط . مثلثة الشكل . خصيبة وبها مدينة بلرم Paiermo

ذكر ابن حمديس صقلية في شعره فقال :

ذكرت صقلية والهوى يهيج للنفس تذكارها
فإن كنت اخرجت من جنة فإني احدث اخبارها

ولما فتحها المسلمون عمروها واحسنوا عمارتها بعد ان كانت خاملة وفيها كثير من الفواكه .

فأنت ترى أن اسم القائد الروماني في موقعة الصواري كما ذكره الطبري « القسطنطين بن هرقل » وذكره ابن الأثير في تاريخه بدون أداة تعريف « قسطنطين بن هرقل » واكتفى الأستاذ موير في كتابه (الخلافة ص ٢٠٦ طبعة سنة ١٩٢٤) بقوله :

« إن قائد الروم أبحر إلى سرقوسة وهنالك غضب عليه أهلها لانهزامه وعجلوا بقتله في حمامه » وكتب في الهامش أن كنستانس الثاني (Constant II) بناء على رأي تيوفان هو الذي قتل بهذه الكيفية . وقال الأستاذ واشنجتون ايرفنج « إن الأمبراطور فرّ بالمراكب » والحقيقة أن قائد الروم في موقعة الصواري هو كنستانس الثاني الذي ذكره مؤرخو العرب باسم قسطنطين وكان هذا الأمبراطور يلقب (بهرقل) وسمي عند تتويجه بقسطنطين (Constantine) إلا أن تيوفان يسميه كنستانس وهو معروف بكنستانس الثاني وإسمه الرسمي قسطنطين فهو بالضبط كنستانس الثاني ابن قسطنطين الثالث ابن هرقل وكان مولده سنة ٦٣٠ م وذكرت دائرة المعارف البريطانية في الطبعة الأخيرة : أنه قتل في الحمام من غير أن تذكر أسباب قتله .

وجاء في المقريزي :

« فبعث الله عليهم ريحاً فغرقتهم إلا قسطنطين فإنه نجا بمركبه فألقته الريح بصقلية . فسألوه عن أمره فأخبرهم . فقالوا : شتتت النصرانية وأفنيت رجالها . لو دخلت العرب علينا لم نجد من يردهم فقال : خرجنا مقتدرين فأصابنا هذا . فصنعوا له الحمام ودخلوا عليه . فقال : ويلكم يذهب رجالكم وتقتلون ملككم ! قالوا : كأنه غرق معهم ثم قتلوه وخلوا من كان معه في المركب .

وفي هذه السنة (٣١ هـ) غزا عبد الله غزوة الأساود حتى بلغ دنقلة .

بدء الطعن على عثمان رضي الله عنه (١)

أقام عبد الله بن سعد بذات الصوَّاري بعد الهزيمة أياماً ورجع فكان أول ما تكلم به « محمد بن أبي حذيفة ومحمد بن أبي بكر » في أمر عثمان في هذه الغزوة وأظهروا عيبه وما غيَّر وما خالف به أبا بكر وعمر ويقولان إنه استعمل عبد الله بن سعد رجلاً كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أباح دمه ونزل القرآن بكفره وأخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم قوماً وأدخلهم . ونزع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . واستعمل سعيد بن العاص وابن عامر . فبلغ ذلك عبد الله بن سعد فقال : ألا تركبا معنا فركبا في مركب ما معهما إلا القبط فلقوا العدو فكانا أقل المسلمين نكاية وقتالاً ، فقيل لهما في ذلك ، فقالا : كيف نقاتل مع عبد الله بن سعد ، استعمله عثمان وعثمان فعل كذا وكذا . فأرسل إليهما عبد الله ينهاهما ، ويتهددهما ، ففسد الناس بقولهما وتكلموا ما لم يكونوا ينطقون به .

وروي أن محمد بن أبي حذيفة جعل يقول للرجل : أما والله لقد تركنا خلفنا الجهاد حقاً فيقول الرجل : وأي جهاد ؛ فيقول : عثمان ابن عفان فعل كذا وكذا . واستحل كلاهما دم عثمان .

ولد محمد بن أبي حذيفة بأرض الحبشة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ابن خال معاوية بن أبي سفيان أخذه عثمان بن

---

(١) راجع مروج الذهب ، المجلد الثاني ، ص ٣٤٧ .

عفان عنده بعد أن قتل أبوه حذيفة فكفله إلى أن كبر ثم سار إلى مصر فصار من أشد الناس تأليباً على عثمان .

وأما محمد بن أبي بكر فقد ولد في حجة الوداع بذي الحليفة الخمس بقين من ذي القعدة والذي دعا محمد بن أبي حذيفة إلى الخروج على عثمان أنه كان يتيماً في حجر عثمان فسأل عثمان العمل حين ولي فقال : يا بني لو كنت رضًى ، ثم سألتني العمل لاستعملتك ولكن لست هناك . قال : فأذن لي فلأخرج فلأطلب ما يقوتني . قال : اذهب حيث شئت وجهزه من عنده وحمله وأعطاه ، فلما وقع إلى مصر كان فيمن تغير عليه إن منعه الولاية .

ثم إن الذي دعا محمد بن أبي بكر إلى الطعن في عثمان أن محمداً كانت دالة فلزمه حق فأخذه عثمان من ظهره ولم يُدْهِن فاجتمع هذا إلى هذا فصار مذمماً بعد أن كان محمداً .

عزل الوليد بن عقبة عن الكوفة

كان للكوفة شأن عظيم وتأثير في مجرى الحوادث في ذلك الوقت وقد أخذ أهلها يتذمرون ويتحزبون ويثيرون الفتن على الولاة ، فلم تطل ولاية المغيرة على الكوفة [1] فعزله عثمان وولى مكانه سعد بن أبي وقاص عملاً بوصية عمر إلى أن حدث الخلاف بينه وبين ابن مسعود الذي كان على بيت المال (وزيراً للمالية) فغضب عثمان على سعد فعزله وولى مكانه الوليد بن عقبة وهو أخو عثمان لأمه . وكان شجاعاً لكنه كان متهماً بشرب الخمر ، ثم أن أبا عقبة بن أبي معيط كان من أشد الناس عداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ومن المستهزئين به ولما أسر في غزوة بدر وقدم للقتل نادى : يا معشر

(١) راجع ابن الاثير ، الجزء الثالث ص ٥٠ .

قريش مالي أقتل بينكم صبرا ؟ ! فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : بكفرك واجترائك على الله ورسوله ، وعقبة هو الذي وضع سلا الجزور على ظهر النبي صلى الله عليه وسلم وهو ساجد [1] . فهناك مجال واسع للطعن على ولاية الوليد بن عقبة . أولاً لأنه ابن عقبة بن أبي معيط المعروف بعدائه لرسول الله صلى الله عليه وسلم . ثانياً لأنه هو الذي ذكر في القرآن بقوله تعالى : (إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا) [2] ثالثاً لأنه كان متهماً بشرب الخمر . رابعاً لأن المسلمين يعلمون قرابته لعثمان وقد كان من الصحابة من هو أحق منه بهذا المركز ولا سيما سعد الذي كانت له مواقف مشهورة في حرب الفرس ، ومع ذلك كان الوليد محبوباً وقام بغزوات عدة ظهرت فيها شجاعته لكن أهل الكوفة حملوا عليه حملة شديدة . وقد بقي خمس سنين وليس لداره باب . ثم إن شباناً من أهل الكوفة نقبوا على ابن الحَيْسُمَان الخزاعي وكاثروه فنذر بهم (علم بهم واستعد لهم) وخرج عليهم بالسيف وصرخ فأشرف عليهم أبو شريح الخزاعي وكان قد انتقل من المدينة إلى الكوفة للقرب من الجهاد . فصاح بهم أبو شريح فلم يلتفتوا إليه وقتلوا ابن الحيسمان وأخذهم الناس وفيهم زهير بن جُنْدَب الأزدي ومورّع بن أبي مورع الأسدي وشبيل ابن أبي الأزدي وغيرهم فشهد عليهم أبو شريح وابنه فكتب فيهم الوليد إلى عثمان فكتب عثمان بقتلهم فقتلهم على باب القصر ، في الرّحبة .

---

(١) كان عقبة بن ابي معيط تزوج اروى بعد وفاة عفان فولدت له الوليد وخالدا وعمارة وام كلثوم ، كل هؤلاء اخوة عثمان لأمه .

(٢) سورة الحجرات ، آية ٦ .

ولهذا أخذ في القسامة [1] بقول ولي المقتول عن ملأ من الناس ليكف الناس عن القتل .

وكان أبو زبيد الطائي الشاعر في الجاهلية والإسلام في بني تغلب وكانوا أخواله فجحدوه ديناً له فأخذ له الوليد حقه إذ كان عاملاً عليهم فشكر أبو زبيد ذلك له وانقطع إليه وغشيه بالمدينة والكوفة وكان نصرانياً فأسلم عند الوليد وكان معروفاً بشرب الخمر فأنزله داراً لعقيل بن أبي طالب على باب المسجد فاستوهبها منه زبيد فوهبها له فكان ذلك أول الطعن على الوليد بالكوفة لأن أبا زبيد كان يخرج من منزله حتى يشق الجامع إلى الوليد فيَسْمُرَ عنده ويشرب معه ويخرج فيشق المسجد وهو سكران . فلذلك نبهم عليه . فبينما هو عنده أتى آت أبا زينب وأبا مورع وجندبا وكانوا يتربصون للوليد منذ قتل أبناءهم ويضعون له العيون للإيقاع به فقال لهم إن الوليد وأبا زبيد يشربان الخمر فثاروا وأخذوا معهم نفراً من أهل الكوفة فاقتحموا عليه فلم يروه فأقبلوا يتلاومون وسبهم الناس وكتم الوليد ذلك عن عثمان . وجاء جندب ورهط معه إلى ابن مسعود فقالوا له : إن الوليد معتكف على الخمر وأذاعوا ذلك . فقال ابن مسعود « من استتر عنا لم نتبع عورته » فعاتبه الوليد على قوله حتى تغاضبا ثم أتى الوليد بساحر فأرسل إلى ابن مسعود يسأله عن حده واعترف الساحر عند ابن مسعود ، وكان يخيل إلى الناس أنه يدخل في دبر الحمار ويخرج من فيه فأمره ابن مسعود بقتله . فلما أراد الوليد قتله أقبل الناس ومعهم

---

(1) القسامة بالفتح : الإيمان تقسم على أولياء القتيل اذا ادعوا الدم. يقال قتل فلان بالقسامة اذا اجتمعت جماعة من أولياء القتيل فادعوا على رجل انه قتل صاحبهم ومعهم دليل دون البينة فحلفوا خمسين يمينا أن المدعى عليه قتل صاحبهم فهؤلاء الذين يقسمون على دعواهم يسمون قسامة ايضا .

جندب بن كعب فضرب الساحر فقتله فحبسه الوليد وكتب إلى عثمان فيه فأمره بإطلاقه وتأديبه فغضب لجندب أصحابه وخرجوا إلى عثمان يستعفون من الوليد فردهم خائبين فلما رجعوا أتاهم كل موتور فاجتمعوا معهم على رأيهم ودخل أبو زينب وأبو مُورّع وغيرهما على الوليد فتحدثوا عنده فنام فأخذا خاتمه وسارا إلى المدينة . واستيقظ الوليد فلم ير خاتمه فسأل نساءه عن ذلك فأخبرنه أن آخر من بقي عنده رجلان صفتهما كذا وكذا فاتهمهما وقال هما أبو زينب وأبو مورع وأرسل يطلبهما فلم يوجدا . فقدما على عثمان ومعهما غيرهما وأخبراه أنه شرب الخمر . فأرسل إلى الوليد فقدم المدينة ودعا بهما عثمان . فقال أتشهدان أنكما رأيتماه يشرب . فقالا : لا . قال فكيف ؟ قالا اعتصرناها من لحيته وهو يقيء الخمر فأمر سعيد بن العاص فجلده . فأورث ذلك عداوة بين أهليهما . وقيل إن الذي جلده عبد الله بن جعفر بن أبي طالب جلده أربعين جلدة وهو الصحيح لأن علياً أمر ابنه الحسن أن يجلده فقال الحسن : ولّ حارّها من تولى قارها فأمر عبد الله بن جعفر فجلده أربعين فقال عليّ : أمسك . جلد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر أربعين وجلد عمر ثمانين وكل سُنّة . وهذا أحب إليّ .

وقيل إن الوليد سكر وصلى الصبح بأهل الكوفة أربعاً ، ثم التفت إليهم وقال أزيدكم ؟ فقال ابن مسعود « ما زلنا معك في زيادة منذ اليوم » وشهدوا عليه عند عثمان فأمر علياً بجلده فأمر عليٌ جعفرًا فجلده .

وروي أنه لما أحضر عثمان رضي الله عنه الوليد في شرب الخمر حضر الحُطيئة فاستأذن على عثمان وعنده بنو أمية متوافرون فطمعوا

أن يلتمس للوليد عذراً فقال : [1]

شهد الحطيئة يوم يلقى ربه … أن الوليد أحق بالعذر
خلعوا عنانك إذ جريت ولو … تركوا عنانك لم تزل تجري
ورأوا شمائل ماجد أنف … يعطي على الميسور والعسر
فنزعت مكذوباً عليك ولم … تنزع إلى طمع ولا فقر

فسروا بذلك وظنوا أنه قد قام بعذره . فقال رجل من بني عجل يرد على الحطيئة :

نادى وقد تمت صلاتهم … أأزيدكم - ثملاً - وما يدري
فأبوا أبا وهب ولو فعلوا … وصلت صلاتهم إلى العشر

فوجم القوم وأطرقوا . فأمر به عثمان رضي الله تعالى عنه فحُدَّ .

شهد على الوليد أبو زينب ، وأبو مورع ، وجندب وسعد ابن مالك الأشعري ولم يشهد عليه إلا يمان (أي أن كل من شهد عليه من اليمن) .

جُلد الوليد في المدينة أمام أقارب عثمان . أمام بني أمية . أمام علي بن أبي طالب وأولاده وأنصاره وهذه فضيحة شنيعة . أولاً لأنه كان والياً على الكوفة والخمر محرمة في الشريعة الإسلامية ويحد شاربها والوالي هو الذي يقيم الحدود فيجب عليه أن يكون قدوة للناس في الصلاح والتقوى واتباع الكتاب والسنة ثانياً : لأنه أخو الخليفة الذي ولاه مكان سعد بن أبي وقاص . فاختيار عثمان للوليد

(١) راجع ابن الأثير ، الجزء الثالث ، ص ٥١ .

لم يكنْ موفقاً . فما كل ذي قرابة يصلح للحكم ومن خلق الناس أنهم يتربصون وقوع الخطأ ممن يعين لقرابته لأولي الأمر فإذا هفا هفوة ، أو أذنب طعنوا عليه وعددوا مثالبه وطعنوا على من ولاه .
وقد قيل إن عثمان رضي الله عنه كان واقعًا تحت تأثير أقاربه وبني أمية وكان يثق بهم . أما أبو بكر وعمر رضي الله عنهما ، فقد كانا يتجنبان المحاباة ولا يراعيان غير المصلحة العامة . ولم يرَ عثمان بدأ من جلد الوليد بعد أن شهدوا عليه إقامة للحدود .

وفي الطبري : كان الناس في الوليد فرقتين ، العامة معه والخاصة عليه . فما زال عليهم من ذلك الخشوع حتى كانت صفين فولى معاوية فجعلوا يقولون عيّب عثمان بالباطل فقال لهم عليّ عليه السلام « إنكم وما تعيرون به عثمان كالطاعن نفسه ليقتل ردفه ما ذنب عثمان في رجل ضربه بقوله وعزله عن عمله . وما ذنب عثمان فيما صنع عن أمرنا ؟ » .[1]

وعن نافع بن جبير قال : قال عثمان رضي الله عنه : إذا جلد الرجل الحرّ ثم ظهرت توبته جازت شهادته .

وقيل كان الوليد أدخل الناس على الناس خيراً — حتى جعل يقسم للولائد والعبيد ، ولقد تفجع عليه الأحرار والمماليك كان يُسْمَع الولائد — وعليهن الحداد — يقلن :

يا ويلنا قد عزل الوليد	وجاءنا مُجوّعاً سعيد
ينقص في الصاع ولا يزيد	فَجُوّعَ الإماء والعبيد

(١) راجع الطبري ، الجزء الخامس ، ص ٦١ والنص له .

تولية سعيد بن العاص الكوفة

سنة ٣٠ هـ (٦٥١ م)

هو سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي الأموي وجده هو المعروف بأبي أحيحة . وأم سعيد هي أم كلثوم بنت عمرو بن عبد الله بن أبي قيس . ولد عام الهجرة وقيل بل ولد سنة إحدى وقتل أبوه العاص يوم بدر كافراً قتله عليّ بن أبي طالب . وكان سعيد من أشراف قريش وأجوادهم وفصحائهم وهو أحد الذين كتبوا المصحف لعثمان رضي الله عنه . وكان كثير الجود والسخاء إذا سأله سائل وليس عنده ما يعطيه كتب به ديناً إلى وقت ميسرته . وكان يجمع إخوانه كل جمعة يوماً فيصنع لهم الطعام ويخلع عليهم ويرسل إليهم بالجوائز ويبعث إلى عيالاتهم بالبر الكثير وكان يبعث مولى له إلى المسجد بالكوفة في كل ليلة جمعة ومعه الصرر فيها الدنانير فيضعها بين يدي المصلين فكثر المصلون بالمسجد بالكوفة في كل ليلة جمعة ، إلا أنه كان عظيم الكبر . وإن عربية القرآن أقيمت على لسان سعيد بن العاص لأنه كان أشبههم لهجة برسول الله صلى الله عليه وسلم .

توفي سعيد سنة ٥٩ هـ ولما حضرته الوفاة قال لبنيه « أيكم يقبل وصيتي ؟ قال ابنه الأكبر أنا يا أبت . قال إن فيها وفاء ديني . قال وما دينك ؟ قال ثمانون ألف دينار قال وفيم أخذتها ؟ قال يا بني في كريم سددت خلته . وفي رجل جاءني ودمه ينزوي في وجهه من الحياء فبدأته بحاجته قبل أن يسألنيها » وكان سعيد قد ربي في حجر عثمان [1] فلما

---

(١) في حجر عثمان لا في حجر عمر كما ورد في ابن الأثير خطأ ونقل عنه الاستاذ موير ، والذي ذكر انه ربي في حجر عثمان هو الطبري وابن خلدون ويؤيد ذلك انه أموي .

فتح الشام قدمه فأقام مع معاوية . فذكر عمر يوماً قريشاً فسأل عنه فأخبر أنه بالشام فاستقدمه فقدم عليه . فقال له بلغني عنك بلاء وصلاح ، فازدد يزدك الله خيراً ، وقال له هل لك زوجة ؟ قال لا . وجاء عمر بنات سفيان بن عوف ومعهن أمهن فقالت أمهن : هلك رجالنا وإذا هلك الرجال ضاع النساء فضعهن في أكفائهن فزوج سعيداً إحداهن وزوّج عبد الرحمن بن عوف الأخرى وأتاه بنات مسعود بن نعيم النهشلي فقلن له : قد هلك رجالنا وبقي الصبيان فضعنا في أكفائنا . فزوّج سعيداً إحداهن وجبير بن مطعم الأخرى وكانت عمومته ذوي بلاء في الإسلام وسابقة فلم يمت عمر حتى كان سعيد من رجال قريش . فلما استعمله عثمان سار حتى أتى الكوفة أميراً ورجع ومعه الأشتر وأبو خشة الغفاري وجندب بن عبد الله وأبو مصعب بن جثامة وكانوا ممن شخص مع الوليد يعيبونه فصاروا عليه .

ولما وصل سعيد الكوفة صعد المنبر [1] فحمد الله وأثنى عليه ثم قال [2] : « والله لقد بعثت إليكم وإني لكاره ، ولكني لم أجد بداً إذا أمرت أن آتمر ، إلا أن الفتنة قد أطلعت خطمها وعينيها ووالله لأضربن وجهها حتى أقمعها أو تعييني وإني لرائد نفسي اليوم » .

ثم نزل وسأل عن أهل الكوفة فعرف حال أهلها .وهذه الخطبة إنذار لأهل الكوفة بأنه سيستعمل الشدة معهم .

---

(١) قبل ان يصعد سعيد المنبر امر بغسله فقال : اغسلوا هذا المنبر فإن الوليد كان رجسا نجسا فلم يصعده حتى غسل ، عيبا على الوليد .

(٢) راجع ابن الأثير ، الجزء الثالث ص ٥٢ .

كتاب سعيد إلى عثمان (١)

ثم كتب سعيد إلى الخليفة كتاباً قال فيه :

« إن أهل الكوفة قد اضطرب أمرهم وغُلب أهل الشرف منهم والبيوتات السابقة ، والغالب على تلك البلاد روادف قدمت وأعراب لحقت حتى لا ينظر إلى ذي شرف وبلاء من نابتتها ولا نازلتها » .

فكتب عثمان إليه :

« أما بعد ففضل أهل السابقة والقدمة ممن فتح الله عليه تلك البلاد ، وليكن من نزلها بسببهم تبعاً لهم إلا أن يكونوا تثاقلوا عن الحق وتركوا القيام به وقام به هؤلاء ، واحفظ لكل منزلته وأعطهم جميعاً بقسطهم من الحق . فإن المعرفة بالناس بها يصاب العدل » .

فأرسل سعيد إلى وجوه الناس من أهل الأيام والقادسية فقال : « أنتم وجوه من وراءكم . والوجه ينبيء عن الجسد فأبلغونا حاجة ذي الحاجة وخلة ذي الخلة ، وأدخلوا معهم من يحتمل من اللواحق والروادف » .

كثر القيل والقال وقال بعض شعراء الكوفة يندد بسعيد وكثرة التبديل في الولاة :

فررت من الوليد إلى سعيد ... كأهل الحجر إذ جزعوا فباروا
بلينا من قريش كل عام ... أميرٌ مُحْدَثٌ أو مستشار
لنا نار نخوّفها فنخشى ... وليس لهم فلا يخشون نار

(١) ابن الأثير ، الجزء الثالث ص ٥٢ .

ثم إن سعيداً جعل القراء في سمره ففشت القالة في أهل الكوفة فكتب سعيد إلى عثمان بذلك فجمع الناس وأخبرهم بما كتب إليه فقالوا له : أصبت لا تطمعهم فيما ليسوا له بأهل فإنه إذا نهض في الأمور من ليس بأهل لها لم يحتملها وأفسدها ، فقال عثمان :

« يا أهل المدينة استعدوا واستمسكوا ، فقد دبت إليكم الفتن وإني والله لأستخلصن لكم الذي لكم حتى أنقله إليكم إن رأيتم حتى يأتي من شهد مع أهل العراق سهمه فيقيم معه في بلاده ، فقالوا كيف تنقل إلينا سهمنا من الأرضين ؟ فقال ببيعها ممن شاء بما كان له بالحجاز واليمن وغيرها من البلاد ففرحوا وفتح الله لهم أمراً لم يكن في حسابهم وفعلوا ذلك واشتراه رجال من كل قبيلة وجارٍ لهم عن تراض منهم ومن الناس وإقرار بالحقوق .

غزوة طبرستان (١)
سنة ٣٠ هـ

نبذة عن تاريخها وتسميتها :

تعرف طبرستان باسم مازندران أيضاً ، وهي ولاية من ولايات إيران قديماً وموقعها إلى الجنوب الشرقي من بحر طبرستان ، وهو بحر الخزر أو بحر قزوين يحدها من الغرب كيلان ، أو الجيلان ، ومن الجنوب العراق العجمي وخراسان البُرز ومن الشرق خراسان أيضاً . ومن نواحيها أستراباذ وهي إلى الشرق وقاعدتها دُنباوند أو ديماقند .

(١) راجع البداية والنهاية لابن كثير ، الجزء السابع ، ص ١٥٤ ، وتاريخ ابن الأثير الجزء الثالث ، ص ٥٢ .

وجاء في كتب العرب أن معنى طبرستان موضع الأطبار فهي مؤلفة من لفظتين « طبر » وهي تعريب تبر الفارسية اسم لنوع من الفؤوس ، وإستان معناها الموضع ، أو الناحية . سميت بذلك لكثرة ما فيها من الأطبار (الفؤوس) .

قال القزويني في استعمارها وتسميتها : إن بعض الأكاسرة اجتمع في جيشه جناة كثيرون فقال وزيره : نأمر بهم إلى بعض البلاد ليعمروها ، فإن عمروها كان العمران لك ، وإن تلفوا برئت من دمهم ، واختار أرض طبرستان وهي يومئذ جبال وأشجار فأرادوا قطع الأشجار وطلبوا فؤوساً والفأس بالعجمية « تبر » فكثرت بها الفؤوس فقالوا (طبرستان) .

ويؤيد ذلك ياقوت في كلامه عن أهلها — إن أهل تلك الجبال كثيرو الحروب وأكثر أسلحتهم بل كلها الأطبار ، حتى إنك قل أن ترى صعلوكاً ، أو غنياً إلا وبيده الطبر صغيرهم وكبيرهم .

غزوها :

وللعرب في طبرستان وقائع مشهورة فاستولوا عليها وكانت جزءاً من مملكتهم ، وأول من قصدها سويد بن مقرن أرسله أخوه نعيم بأمر عمر فسار سويد نحو قومس فأخذها سلماً ، ثم دخل جرجان وقيل صالحه الأصبهند صاحب طبرستان .

ثم غزاها سعيد بن العاص . خرج عبدالله بن عامر [1] من

---

(١) عبدالله بن عامر هو ابن خال عثمان بن عفان استعمله على البصرة وكان عمره اذ ذاك خمسا وعشرين سنة كما تقدم .

البصرة يريد خراسان فسبق سعيداً ، ونزل أبرشهر وبلغ نزول أبرشهر سعيداً ، فنزل سعيد قومس وهي صلح ، صالحهم حذيفة بعد نهاوند فأتى جرجان فصالحوه على ٢,٠٠٠,٠٠٠ ثم أتى طَمِية وهي كلها من طبرستان متاخمة جرجان . وهي مدينة على ساحل البحر وهي في تخوم جرجان فقاتله أهلها حتى صلى صلاة الخوف . فقال لحذيفة كيف صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فأخبره . فصلى بها سعيد صلاة الخوف وهم يقتتلون . وضرب يومئذ سعيد رجلاً من المشركين على حبل عاتقه فخرج السيف من تحت مرفقه ، وحاصرهم فسألوا الأمان فأعطاهم على أن لا يقتل منهم رجلاً واحداً . ففتحوا الحصن فقتلهم جميعاً إلا رجلاً واحداً وحوى ما كان في الحصن .

وفتح سعيد بن العاص نامية ؛ وهي ليست بمدينة بل صحارى ثم قفل إلى الكوفة فمدحه كعب بن جعيل فقال :

فنعم الفتى إذ جال جيلانُ دونه
وإذ هبطوا من دَستبى ثم أبهرا
تعلم سعيد الخير أن مطيتي
إذا هبطت أشفقتُ من أن تعقّرا
كأنك يوم الشعب ليثُ خفية
تحرّد من ليث العرين وأصحرا
تسوس الذي ما ساس قبلك واحد
ثمانين ألفاً دارعين وحسّرا

ولما صالح سعيد أهل جرجان كانوا يجبون أحياناً مائة ألف وأحياناً مائتي ألف وأحياناً ثلثمائة ألف وكانوا ربما أعطوا ذلك وربما منعوه ، ثم امتنعوا وكفروا .

سقوط خاتم رسول الله (١)
من اصبع عثمان سنة ٣٠ هـ

لما أراد رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أن يكتب إلى الأعاجم كتباً يدعوهم إلى الله عز وجل وقال له رجل : يا رسول الله إنهم لا يقبلون كتاباً إلا مختوماً فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعمل له خاتم من فضة فجعله في إصبعه ، وكان نقشه ثلاثة أسطر « محمد » سطر و « رسول » سطر و « الله » سطر والأسطر الثلاثة تقرأ من أسفل إلى فوق محمد آخر الأسطر ورسول في الوسط ، والله فوق ، وكانت الكتابة مقلوبة لتكون على الإستواء إذا ختم به . فكان ذلك الخاتم في يده ﷺ ولما استخلف أبو بكر ختم به . ثم ولي عمر بن الخطاب فجعل يتختم به ، ثم ولي من بعده عثمان فتختم به ست سنين فحفر بئراً بالمدينة شرباً للمسلمين (بئر أريس) وهي على ميلين من المدينة وكانت قليلة الماء فجاء عثمان ذات يوم فقعد على رأس البئر فجعل يعبث بالخاتم فسقط من يده في البئر فطلبوه فيها ونزحوا ما فيها من الماء ، فلم يعثروا عليه فجعل فيه مالاً عظيماً لمن جاء به واغتم لذلك غماً شديداً ، فلما يئس منه صنع خاتماً آخر على مثاله ونقشه فبقي في إصبعه حتى قتل ثم ضاع هذا الخاتم ولم يُعلم من أخذه . وقد تشاءم المسلمون لضياع خاتم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا إن عثمان لما مال عن سيرة مَن كان قبله كان أول ما عوقب به ذهاب خاتم رسول الله صلى الله عليه وسلم من يده .

---

(١) البداية والنهاية ، لابن كثير ص ١٥٥ ، الجزء السابع ، ابن الأثير الجزء الثالث ، ص ٥٤ . الطبري ، الجزء الخامس ص ٦٥ .

قال أحمد بن يحي بن جابر : نسبت إلى أريس رجل من المدينة من اليهود وعليها مال لعثمان بن عفان . والأريس في لغة أهل الشام الفلاح وهو الأكار وجمعه أريسون وأرارسة وأرارس وفي الأصل جمع أريس بتشديد الراء .

تسيير ابي ذر الغفاري الى الربذة (١)

سنة ٣٠ هـ

أبو ذر الغفاري وهو جندب بن جُنادة علي المشهور وكان من كِبار الصحابة وفضلائهم قديم الإسلام .

لما بلغ أبا ذر مبعث رسول الله صلى اللهُ عليه وَسلم قال لأخيه : إركب إلى هذا الوادي فاعلم لي علم هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي يأتيه الخبر من السماء واسمع من قوله ثم ائتني فانطلق الأخ حتّى قدم وسمع من قولـه : ثم رجع إلى أبي ذر فقال له : رأيته يأمر بمكارم الأخلاق وسمعت منه كلاماً ما هو بالشعر . فقال ما شفيتني مما أردت فتزود وحمل (قربة) فيها ماء حتّى قدم مكة فأتى المسجد فالتمس النبي صلى اللهُ عليه وسلم وهو لا يعرفه وكره أن يسأل عنه فانتظر ودخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فسمع من قوله وأسلم . فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : إرجع إلى قومك فأخبرهم حتّى يأتيك أمري . قال : والذي نفسي بيده لأصرخن بها بين ظهرانيهم فخرج حتّى أتى المسجد فنادى بأعلى صوته « أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله » فقاموا إليه فضربوه حتّى أضجعوه وأتى العباس فأكب عليه وقال : ويلكم ألسّم تعلمون أنه من

(١) راجع الطبري ، الجزء الخامس ، ص ٦٦ .

غفار وأنه طريق تجاركم إلى الشام فأنقذه منهم ، ثم عاد من الغد لمثلها فضربوه وثاروا عليه ، فأكب العباس إليه .

قال النبي صلى الله عليه وسلم « أبو ذر في أمتي على زهد عيسى ابن مريم » . كان أبو ذر بالشام في خلافة عثمان ، وكان معاوية عاملاً عليها ، فلما ورد ابن السوداء الشام لقي أبا ذر فقال : يا أبا ذر ألا تعجب إلى معاوية يقول (المال مال الله ألا إن كل شيء لله) كأنه يريد يحتجنه (يجمعه) دون الناس ويمحو اسم المسلمين [1] فأتاه أبو ذر.فقال : مايدعوك إلى أن تسمي مال المسلمين مال الله؟ قال : يرحمك الله يا أبا ذر ألسنا عباد الله والمال ماله والخلق خلقه والأمر أمره ؟ قال : فلا تقله . قال : فإني لا أقول إنه ليس لله ولكن سأقول مال المسلمين . وأتى ابن السوداء أبا الدرداء فقال له : من أنت أظنك والله يهودياً . فأتى عبادة بن الصامت فتعلق به معاوية . فقال : هذا والله الذي بعث عليك أبا ذر . وقام أبو ذر بالشام وجعل يقول :

« يا معشر الأغنياء واسوا الفقراء . بشر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله بمكاو من نار تكوى بها جباهم وجنوبهم وظهورهم » [2]

---

(١) كان معاوية يكثر ادخار المال في ولايته بالشام لصرفه وقت الحاجة ، وابن السوداء هو عبدالله بن سبأ كان يهوديا وأسلم سيأتي ذكره.

(٢) قال تعالى في سورة التوبة « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم.يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » اختلف علماء الصحابة في المراد بهذا الكنز المذموم . فقال

فما زال حتى ولع الفقراء بمثل ذلك وأوجبوه على الأغنياء ، وحتى شكا الأغنياء ما يلقون من الناس .

حرض أبو ذر بذلك الفقراء وفهمهم أن لهم حقوقاً لدى الأغنياء وأن الذين يكنزون المال لهم في الآخرة عذاب أليم فهو بذلك يدعو إلى نوع من التكافل . وقد تخوف الأغنياء من

الأكثرون هو المال الذي لم تؤد زكاته . وقال عمر بن الخطاب : ما اديت زكاته فليس بكنز . وقال ابن عمر : ما اديت زكاته فليس بكنز وإن كان تحت سبع أرضين وكل ما لم تؤد زكاته فهو كنز وإن كان فوق الأرض . وقال قوم : إن المال الكثير اذا جمع فهو الكنز المذموم سواء أُديت زكاته أو لم تؤد إلا انه كان في زمان رسول الله عليه الصلاة والسلام جماعة من كبار الأغنياء كعثمان وعبد الرحمن بن عوف وكان عليه السلام يعدهم من كبار المؤمنين . واحتج الذاهبون إلى القول الثاني ان ظاهر الآية يدل على المنع من جمع المال . فالمصير الى ان الجمع مباح بعد أخراج الزكاة ترك لظاهر الآية فلا يصار اليه إلا بدليل منفصل . وروى سالم بن الجعدان انه لما نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تبا للذهب تبا للفضة » قالها ثلاثا . وتوفى رجل فوجد في مئزره دينار فقال عليه السلام « كية » وتوفى آخر فوجد في مئزره ديناران فقال عليه الصلاة والسلام « كيتان » .

وعن أبي الدرداء انه كان اذا رأى العير تقدم بالمال يصعد على موضع مرتفع ويقول « جاءت القطار تحمل النار وبشر الكنازين بكي في الجباه والجنوب والظهور والبطلان » . وقيل انه تعالى إنما خلق الأموال ليتوسل بها إلى دفع الحاجات . فإذا حصل للانسان قدر ما يدفع به حاجته ثم جمع الأموال الزائدة عليه فهو لا ينتفع بها لكونها زائدة على قدر حاجته ومنعها من الغير الذي يمكنه ان يدفع حاجته بها فكان هذا الانسان بهذا المنع مانع من ظهور حكمته ومانع من وصول احسان الله الى عبيده .

قال الفخر الرازي : واعلم ان الطريق الحق أن يقال الأولى ان لا يجمع الرجل الطالب للدين المال الكثير الا انه لم يمنع عنه في ظاهر الشرع فالاول محمول على التقوى والثاني على ظاهر الفتوى .

ثورة الفقراء ومطالبتهم بالمال ، لذلك شكوا إلى معاوية فكتب معاوية إلى عثمان أن أبا ذر قد أعضل بي (أعياني أمره) وقد كان من أمره كيت وكيت .

فكتب إليه عثمان : « إن الفتنة قد أخرجت خطمها (أنفها) وعينيها ، فلم يبق إلا أن تثب فلا تنكأ القرح وجهز أبا ذر إليّ وابعث معه دليلاً وزوده ، وارفق به وكفكف الناس ونفسك ما استطعت ، فإنما تمسك ما استمسكت » (الطبري) .

وجاء في ابن الأثير : أن الأغنياء لما شكوا إلى معاوية ما يلقون من الفقراء أرسل إلى أبي ذر بألف دينار في جنح الليل ، فأنفقها (على الفقراء) ، فلما صلى معاوية الصبح دعا رسوله الذي أرسله إليه فقال : اذهب إلى أبي ذر فقل له أنقذ جسدي من عذاب معاوية ، فإنه أرسلني إلى غيرك وإني أخطأت بك ففعل ذلك . فقال له أبو ذر : يا بني قل له والله ما أصبح عندنا من دنانيرك ديناراً ولكن أخرنا ثلاثة أيام حتى نجمعها . فلما رأى معاوية أن فعله يصدق قوله كتب إلى عثمان الخ .

فلما قدم أبو ذر المدينة ورأى المجالس في أصل سلع (جبل بقرب المدينة) قال : بشّر أهل المدينة بغارة شعواء وحرب مذكار . ودخل على عثمان فقال : يا أبا ذر ما لأهل الشام يشكون ذَرَبك ؟ (حدة لسانك) فأخبره أنه لا ينبغي أن يقال مال الله ولا ينبغي للأغنياء أن يقتنوا مالاً . فقال : يا أبا ذر عليّ أن أقضي ما عليّ وآخذ ما على الرعية ولا أجبرهم على الزهد وأن أدعوهم إلى الاجتهاد والاقتصاد . قال : فتأذن لي في الخروج فإن المدينة ليست لي بدار . فقال : أو تستبدل بها إلا شراً منها . قال : أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أخرج منها إذا

بلغ البناء سلعًا . قال : فانفذ لما أمرك به فخرج حتّى نزل الربذة [1] فخط بها منزلاً وأقطعه عثمان صرمة من الإبل (قطعة من الإبل نحو الثلاثين) وأعطاه مملوكين ، وكان أبو ذر يتعاهد المدينة حتّى لا يعود أعرابيًّا وكان يحب الوحدة والخلوة ، فدخل على عثمان وعنده كعب الأحبار فقال لعثمان : لا ترضوا من الناس بكف الأذى حتّى يبذلوا المعروف وقد ينبغي للمؤدي الزكاة أن لا يقتصر عليها حتّى يحسن إلى الجيران والإخوان ويصل القرابات . فقال كعب : مَن أدّى الفريضة فقد قضى . فرفع أبو ذر محجنه (عصاه) فضربه فشجّه فاستوهبه عثمان فوهبه له وقال : يا أبا ذر اتقِ الله واكفف يدك ولسانك (الطبري) .

ولما نزل أبو ذر الربذة أقيمت الصلاة وعليها رجل يلي الصدقة فقال : تقدم يا أبا ذر . فقال لا ، تقدّم أنت فإن رسول الله صلّى اللهُ عليه وسلم قال لي : « اسمع وأطع وإن كان من رقيق الصدقة » وكان أسود يقال له مجاشع .

وذكر الطبري رواية عن محمد بن سيرين قال : خرج أبو ذر إلى الربذة من قبل نفسه لما رأى عثمان لا ينزع له (أي لا يميل إليه) الخ .

ثم قال الطبري بعد أن أورد قصة أبي ذر وإقامته بالربذة :

---

(1) الربذة من قرى المدينة على ثلاثة اميال ، وبها قبر ابى ذر ، اقام بها الى ان مات سنة ٣٢ هـ ، وقد تطاول عثمان في البنيان حتى عدوا سبع دور بناها بالمدينة : دارا لنائلة ودارا لعائشة وغيرهما من اهله وبناته . وبنى مروان القصور بذي خشب فلما شاهد ابو ذر كثرة البنيان لم يطق الاقامة بالمدينة لحديث رسول الله .

وأما الآخرون فإنهم رووا في سبب ذلك أشياء كثيرة وأموراً شنيعة كرهت ذكرها .

وقال اليعقوبي في تاريخه :

« وبلغ عثمان أن أبا ذر يقعد في مسجد رسول الله ويجتمع إليه ناس فيحدث بما فيه الطعن عليه وأنه وقف بباب المسجد فقال (أيها الناس من عرفني فقد عرفني ومن لم يعرفني فأنا أبو ذر الغفاري ، أنا جندب بن جنادة الربذي إنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيم) [1] محمد الصفوة من نوح . فالأول من إبراهيم والسلالة من إسماعيل والعترة الهادية من محمد . إنه شرف شريفهم واستحقوا الفضل في قوم هم فينا كالسماء المرفوعة وكالكعبة المستورة ، أو كالقبة المنصوبة ، أو كالشمس الضاحية أو كالقمر الساري ، أو كالنجوم الهادية، أو كالشجرة الزيتونية أضاء زيتها وبورك زبدها . ومحمد وارث علم آدم وما فضلت به النبيون وعلي بن أبي طالب وصيّ محمد ووارث علمه . أيتها الأمة المتحيرة بعد نبيها ، أما لو قدمتم من قدم الله وأخرتم من أخر الله وأقررتم الولاية والوراثة في أهل بيت نبيكم لأكلتم من فوق رءوسكم ومن تحت أقدامكم ولما عال ولي الله ولا طاش سهم من فرائض الله ولا اختلف اثنان في حكم الله إلا وجدتم علم ذلك عندهم من كتاب الله وسنة نبيه . فأما إذا فعلتم ما فعلتم فذوقوا وبال أمركم « وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ» [2] وبلغ عثمان أيضاً أن أبا ذر يقع فيه

(١) سورة آل عمران آية ٣٤ .

(٢) سورة الشعراء آية ٢٢٧ .

ويذكر ما غيّر وبدّل من سنن رسول الله وسنن أبي بكر وعمر فسيّره إلى الشام إلى معاوية . وكان يجلس في المسجد فيقول كما كان يقول ويجتمع إليه الناس حتى كثر من يجتمع إليه ويسمع منه . وكان يقف على باب دمشق إذا صلى صلاة الصبح فيقول : جاءت القطار تحمل النار . لعن الله الآمرين بالمعروف التاركين له ، ولعن الله الناهين عن المنكر الآتين له . وكتب معاوية إلى عثمان : إنك قد أفسدت الشام على نفسك بأبي ذر ، فكتب إليه أن احمله على قتب بعير بغير وطاء . أنك تقول سمعت رسول الله يقول : إذا كملت بنو أمية ثلاثين رجلاً اتخذوا بلاد الله دولاً وعباد الله خولاً ودين الله دغلاً . فقال : نعم ، سمعت رسول الله يقول ذلك . فقال لهم : أسمعتم رسول الله يقول ذلك ؟ فبعث إلى عليّ بن أبي طالب فأتاه فقال : يا أبا الحسن أسمعت رسول الله يقول ما حكاه أبو ذر ؟ وقص عليه الخبر . فقال : نعم . قال : وكيف تشهد ؟ قال : يقول رسول الله ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء ذا لهجة أصدق من أبي ذر . فلم يقم بالمدينة حتى أرسل إليه عثمان والله لتخرجن عنها. قال: أتخرجني من حرم رسول الله[1]؟ قال : نعم وأنفك راغم . قال : فإلى مكة ؟ قال : لا . قال : فإلى البصرة ؟ قال : لا . قال : فإلى الكوفة ؟ قال : لا . ولكن إلى الربذة التي خرجت منها حتى تموت بها . يا مروان أخرجه ولا تدع أحداً يكلمه حتى يخرج . فأخرجه على جمل ومعه امرأته وابنته فخرج وعليّ والحسن والحسين وعبد الله بن جعفر وعمار بن ياسر ينظرون . فلما رأى أبو ذر علياً . قام إليه فقبّل يده ثم بكى وقال : إني إذا رأيتك ورأيت ولدك ذكرت قول رسول الله فلم

---

(١) تاريخ اليعقوبي .

أصبر حتى أبكي فذهب عليّ يكلمه . فقال له مروان : إن أمير المؤمنين قد نهى أن يكلمه أحد . فرفع عليّ السوط فضرب وجه ناقة مروان وقال : تنحّ نحاك الله إلى النار . ثم شيعه فكلمه بكلام يطول شرحه وتكلم كل رجل من القوم وانصرفوا وانصرف مروان إلى عثمان فجرى بينه وبين عليّ في هذ بعض الوحشة وتلاحيا كلاماً . فلم يزل أبو ذر بالربذة حتى توفي » .

هذا ما ذكره اليعقوبي في تاريخه خاصًّا بأبي ذر وتسييره إلى الربذة من غير أن يسنده إلى أحد من الرواة كدأب الطبري في رواياته وقد اتفق الطبري وابن الأثير وابن خلدون على أن عثمان رضي الله عنه أذن لأبي ذر بالخروج إلى الربذة (بناء على طلبه لأنه لم يطق الإقامة بالمدينة) لكن عبارة اليعقوبي صريحة في أنه نفاه .

وإنا نستبعد أن ينفي عثمان رضي الله عنه أبا ذر لأن أبا ذر صحابي محترم مشهور بالزهد والصلاح والتشدد في الدين وله مكانة عالية في نفوس المسلمين ، ومما يدل على أن حكاية اليعقوبي مكذوبة ما ذكره من أن عثمان قال لمعاوية « احمله على قتب بعير بغير وطاء » فقدم إلى المدينة وقد ذهب لحم فخذيه .

فعثمان رضي الله عنه لا يأمر بإرهاق صحابي كبير كأبي ذر كما هو معروف عنه من الحلم والرأفة . فيكون ما ذكره الطبري من أنه رضي الله عنه كتب إلى معاوية — وجهز أبا ذر وزوده وأرفق به — هو الصواب لأنه يطابق ما جبل عليه عثمان رضي الله عنه من الرفق واحترام كبار الصحابة .

وفي طبقات ابن سعد رواية عن عبد الله بن الصامت قال : « دخلت مع أبي ذر في رهط من غفار على عثمان بن عفان من

الباب الذي لا يُدخل عليه منه وتخوفنا عثمان عليه ، فانتهى إليه فسلم عليه ثم ما بدأه بشيء إلا قال : أحسبتني منهم يــا أمير المؤمنين والله مــا أنا منهم ولا أدركهم . لو أمرتني أن آخــذ بعرقوتي قتب لأخذت بهما متى أمرت ، ثم استأذنه إلى الربذة فقال نعم نأذن لك ونأمر لك بنعم من نعم الصدقة ، فتصيب من رسلها . فنادى أبو ذر : دونكم معاشر قريش دنياكم فاعذموها لا حاجة لنا فيها .

ومما يدل على مكانة أبي ذر ما رواه عبد الله بن عمرو قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ما أقلت الغبراء ولا أظلت الخضراء من رجل أصدق من أبي ذر » .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء على ذي لهجة أصدق من أبي ذر . من سره أن ينظر إلى تواضع عيسى ابن مريم فلينظر إلى أبي ذر » .

أمر المصاحف

٣٠ هجرية (٦٥١ ميلادية)

لما عاد حذيفة بن اليمان من غزو الباب قال لسعيد بن العاص : لقد رأيت في سفرتي هذه أمرًا لئن ترك الناس ليختلفن في القرآن ثم لا يقومون عليه أبداً قال : وما ذاك ؟ قال رأيت أناساً مــن أهل حمص يزعمون أن قراءتهم خيرٌ من قراءة غيرهم وأنهــم أخذوا القرآن عن المقداد . ورأيت أهــل دمشق يقولون : إن قراءتهم خير من قراءة غيرهم — ورأيت أهل الكوفة يقولون مثل ذلك وأنهم قرأوا على ابن مسعود . وأهل البصرة يقولون مثــل

ذلك وأنهم قرأوا على أبي موسى ويسمون مصحفه « لباب القلوب » .

فلما وصلوا إلى الكوفة أخبر حذيفة بن اليمان بذلك وحذرهم ما يخاف فوافقه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكثير من التابعين . وقال له أصحاب ابن مسعود : ما تنكر ؟ ألسنا نقرؤه على قراءة ابن مسعود ؟ فغضب حذيفة ومن وافقه وقالوا إنما أنتم أعراب فاسكتوا فإنكم على خطأ . وقال حذيفة والله لئن عشت لآتين أمير المؤمنين ولأشيرن عليه أن يحول بين الناس وبين ذلك فأغلظ له ابن مسعود فغضب سعيد وقام وتفرق الناس وغضب حذيفة وسار إلى عثمان فأخبره بالذي رأى وقال : أنا النذير العريان فأدركوا الأمة . وفي البخاري رواية عن حذيفة أنه قال لعثمان — « أدرك الأمة قبل أن يختلفوا اختلاف اليهود والنصارى » . وكان حذيفة يغازي أهل الشام في فتح أرمينية وآذربيجان مع أهل العراق .

جمع عثمان رضي الله عنه الصحابة وأخبرهم الخبر فأعظموه ورأوا جميعاً ما رأى حذيفة . فأرسل إلى حفصة بنت عمر زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أرسل إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ، ثم نردها إليك : وكانت هذه الصحف هي التي كتبت في أيام أبي بكر فإن القتل لما كثر في الصحابة يوم اليمامة قال عمر لأبي بكر : إن القتل قد كثر واستحرّ بقراء القرآن يوم اليمامة وإني أخشى أن يستحر القتل بالقرّاء فيذهب من القرآن كثير . وإني أرى أن تأمر بجمعه فأمر أبو بكر زيد بن ثابت فجمعه من الرقاع والعُسُب (عُسُب النخل وهي الجريد الذي لا خوص له واحدها عسيب) وصدور الرجال . فكانت الصحف عند أبي بكر ثم

عند عمر ، فلما توفي عمر أخذتها حفصة فكانت عندها فأرسل عثمان إليها وأخذها منها وأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف . وقال عثمان : إذا اختلفتم فاكتبوها بلسان قريش فإنه إنما نزل بلسانهم ففعلوا . فلما نسخوا الصحف ردهـا عثمان إلى حفصة وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخـوا وحرق ما سوى ذلك وأمر أن يعتمدوا عليها ويدعوا ما سواها ، فكل الناس عرف فضل هذا العمل إلا ما كان من أهل الكوفة فإن المصحف لما قدم عليهم فرح به أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، وأصحاب عبد الله ومن وافقهم امتنعوا عن ذلك وعابوا الناس ، فقام فيهم ابن مسعود وقال : ولا كل ذلك فإنكم والله سبقتم سابقينا فاربعوا على ظلعكم [1] . ولما قدم على الكوفـة قام إليه رجل فعاب عثمان بجمع الناس على المصحف فصـاح وقال : (اسكت فعن ملأ منا فعل ذلك فلو وليت منه ما ولى عثمان لسلكت سبيله) [2] .

---

(١) اربع على ظلعك اي أنك ضعيف فتنكب عما لا تطيقه .

(٢) قال ابن قيم الجوزية في كتاب الطرق الحكميـة في السياسة الشرعية ص ١٨ ــ ١٩ « ومن ذلك جمع عثمان رضي الله عنه الناس على حرف واحد من الأحرف السبعة التي يطلق لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم القراءة بها لما كان ذلك مصلحة فلما خاف الصحابة رضي الله عنهـم على الأمة ان يختلفوا في القرآن وراوا ان جمعهـم على حرف واحد اسلم وابعد من وقوع الاختلاف فعلوا ذلك ومنعوا النـاس من القراءة بغيره. وهذا كما لو كان للناس عدة طرق الى البيت وكان سلوكهم من تلك الطرق يوقعهم في التفرق والتشتت ويطمع فيهم العدو فراى الامـام جمعهم على طريق واحد وترك بقية الطرق جاز ذلك ولم يكن فيـه ابطال لكون تلك الطرق موصلة الى المقصود وان كان فيه نهي عن سلوكها لمصلحة الأمة.

قال زيد : فقدت آية من الأحزاب حين نسخنا المصحف قد كنت أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ بها فالتمسناها فوجدناها مع خزيمة بن ثابت الأنصاري – من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه – فألحقناها في سورتها في المصحف .

واختلف في عدد المصاحف التي أرسل بها عثمان إلى الآفاق . قال السيوطي في الإتقان : : والمشهور أنها خمسة وقال ابن أبي داود من طريق سمعت أبا حاتم السجستاني يقول : كتب سبعة مصاحف فأرسل إلى مكة وإلى الشام وإلى اليمن وإلى البحرين وإلى البصرة وإلى الكوفة وحبس بالمدينة واحداً .

واختلف في ترتيب السور هل هو توقيفي أو باجتهاد الصحابة ؟ قال الكرماني في البرهان : ترتيب السور هكذا هو عند الله في اللوح المحفوظ على هذا الترتيب . وقال مالك : ترتيب السور باجتهاد الصحابة . وقال السيوطي في الإتقان : والذي ينشرح له الصدر ما ذهب إليه البيهقي وهو آن جميع السور ترتيبها توفيقي إلا براءة والأنفال .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مقتل يزدجرد بن شهريار[1]

سنة ٣١ هـ (اغسطس سنة ٦٥١ م)

The Deslh Yezdegetd

كان يزدجرد بن شهريار بن كسرى ملك فارس قد تولى في خلافة عمر بن الخطاب سنة ١٤ هـ وهو الذي جمع جيشاً تحت قيادة رستم لمحاربة المسلمين ، فانهزم جيشه ففر إلى خراسان ، ولم يزل المسلمون يتبعونه ويقفون أثره من مدينة إلى مدينة ، وهو يهرب حتى بيته جماعة من الترك فقتلوه سنة ٣١ هـ .

وقد اختلف في سبب قتله : قال ابن إسحاق : هرب يزدجرد من كرمان في جماعة يسيرة إلى مرو فسأل مرزبانها مالاً فمنعه فخافوا على أنفسهم ، فأرسلوا إلى الترك يستنصرونهم عليه فأتوه فبيتوه فقتلوا أصحابه ، وهرب يزدجرد حتى أتى منزل رجل ينقر الأرحاء على شط المرغاب (نهر بمرو) فأوى إليه ليلاً فلما نام قتله . وزاد بعضهم أن النقار أخذ متاعه وجواهره وألقى جسده في المرغاب ، وأصبح أهل مرو فاتبعوا أثره حتى خفي عليهم عند منزل النقار فأخذوه فأقر لهم بقتله وأخرج متاعه فقتلوا النقار وأهل بيته وأخذوا متاعه ومتاع يزدجرد وأخرجوه من المرغاب فجعلوه في تابوت من خشب . وقال

(١) راجع ابن الأثير ، الجزء الثالث ص ٥٧ ، والطبري جـ ٥ ص ٧١، والبداية والنهاية جـ٧ ص ١٥٨ .

بعضهم إنهم حملوه إلى إصطخر فدفن بها في أول سنة ٣١ هـ وهو آخر ملوك الفرس وصفا الملك بعده للعرب . وكان عمره عندما قتل ٣٤ سنة .

فتح خراسان(١) سنة ٣١ هـ

لما قتل عمر بن الخطاب نقض أهل خراسان وغدروا ، فلما استخلف عثمان بن عفان ولي عبد الله بن عامر بن كريز البصرة في سنة ٢٨ ويقال ٢٩ وهو ابن ٢٥ سنة ، وهو ابن خال عثمان بن عفان ، ولد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان كريماً ميمون النقيبة (أي مبارك النفس مظفّراً بما يحاول) فافتتح من أهل فارس ما افتتح ثم غزا خراسان واستخلف على البصرة زياد بن أبي سفيان ، وسار إلى كرمان (٢) فاستعمل عليها مجاشع بن مسعود السلمي وأمره بمحاربة أهلها ، وكانوا قد نكثوا واستعمل على سجستان (٣) الربيع بن زياد الحارثي ، وكانوا أيضاً قد نقضوا الصلح وسار ابن عامر إلى نيسابور وجعل على مقدمته الأحنف بن قيس فأتى الطّبسين وهما حصنان وهما بابا خراسان فصالحه أهلها على ٦٠٠,٠٠٠ درهم وسار إلى قهستان فلقيه أهلها وقاتلهم حتى ألجأهم إلى حصنهم . وبعث ابن عامر سرية إلى رستاق زام من أعمال نيسابور ففتحه عنوة وفتح باخرْز (٤) من أعمال نيسابور أيضاً وفتح جُوَين (٥) وسبى سبياً ووجه ابن عامر

---

(١) خراسان في الشمال الشرقي من بلاد فارس تحدها شمالا خيوا وشرقا افغانستان وجنوبا وغربا ولايات كرمان الفارسية وفرس ولورستان والعراق العجمي . ومن امهات مدن خراسان نيسابور وهراة ومرو وكانت قصبتها ربلخ وطالقان ونسا .

(٢) كرمان ولاية بين فارس ومكران وسجستان وخراسان .

(٣) سجستان بينها وبين كرمان ١٣٠ فرسخا .

(٤) بين نيسابور وهراة .

(٥) يسميها اهل خراسان كوبان بينها وبين نيسابور عشرة فراسخ .

الأسود بن كلثوم العدوي من عديّ الرباب وكان ناسكاً إلى بيهق من أعمال نيسابور فدخل حيطان البلد من ثلمة كانت فيها ودخلت معه طائفة من المسلمين فأخذ العدو عليهم تلك الثلمة فقاتل الأسود حتّى قتل هو وطائفة ممن معه وقام بأمر المسلمين بعده أخوه أدهم بن كلثوم فظفر وفتح بيهق [1] وكان الأسود يدعو الله أن يحشره من بطون السباع والطير فلم يواره أخوه ودفن من استشهد من أصحابه وفتح ابن عامر بُشت [2] من نيسابور وأشبَنْد ورُخّ وزاره وخَوَاف وأسفرائن وأرغيان [3] من نيسابور ثم أتى أبرشهر وهي مدينة نيسابور فحصر أهلها أشهراً وكان على كل ربع منها رجل موكل به وطلب صاحب ربع من تلك الأرباع الأمان على أن يدخل المسلمين المدينة فأعطاه وأدخلهم إياها ليلاً ففتحوا الباب وتحصن مرزبانها في القهندز [4] (حصنها) ومعه جماعة وطلب الأمان على أن يصالحه عن جميع نيسابور على وظيفة يؤديها فصالحه على ألف ألف درهم وولى نيسابور حين فتحها قيس بن الهيثم السلمي ووجه ابن عامر عبد الله بن خازم السلمي إلى حُمراندر من نسا [5] وهو رستاق (قرية) ففتحه وأتاه صاحب نسا فصالحه على ٣٠٠,٠٠٠ درهم ويقال على احتمال الأرض من الخراج على أن لا يقتل أحداً ولا يسبيه . وقدم بهمنة عظيم أبيورد على ابن عامر فصالحه على ٤٠٠,٠٠٠ درهم ويقال وجه إليها ابن عامر عبد الله بن خازم فصالح أهلها على ٤٠٠,٠٠٠ درهم ووجه عبد الله بن عامر عبد

(١) من اعمال نيسابور .

(٢) سميت بذلك لأنها كالظهر لنيسابور . والظهر باللغة الفارسية يقال له بشت .

(٣) كورة من نواحي نيسابور .

(٤) تعريب كهندز معناه القلعة العتيقة .

(٥) مدينة بخراسان .

الله ابن خازم إلى سَرَخْس [1] فقاتلهم ثم طلب زاذويه مرزبانها الصلح على تأمين مائة رجل وأن يدفع إليه النساء فصارت ابنته في سهم خازم واتخذها وسماها مَيساء وغلب ابن خازم على أرض سرخس ويقال : إنه صالحه على أن يؤمن مائة نفس فسمى له المائة ، ولم يسم نفسه فقتله ودخل سَرخس عنوة ، ووجه ابن خازم من سرخس يزيد بن سالم مولى شريك بن الأعور إلى كَيف وبينة ففتحهما . وأتى كنازتك مرزبان طوس ابن عامر فصالحه عن طوس على ٦٠٠,٠٠٠ . ووجه ابن عامر جيشاً إلى هراة عليه أوس ابن ثعلبة ويقال خُليد ابن عبد الله الحنفي فبلغ عظيم هراة ذلك فشخص إلى ابن عامر وصالحه عن هَراة وبادغيس وبوشنج غير طاغون وباغون فإنه فتحهما عنوة وكتب له ابن عامر : « بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أمر به عبد الله بن عامر عظيم بوشنج وبادغيس . أمره بتقوى الله ومناصحة المسلمين وإصلاح ما تحت يديه من الأرضين وصالحه عن هَراة . سهلها وجبلها على أن يؤدي من الجزية ما صالحه عليه وأن يقسم ذلك على الأرضين عدلاً بينهم فمن منع ما عليه فلا عهد له ولا ذمة . وكتب ربيع بن نهشل وجُثم بن عامر » [2] .

وأرسل مرزبان مرو الشاهجان يسأل الصلح ، فوجه ابن عامر إلى مرو حاتم بن النعمان الباهلي ، فصالحه على ألف ألف ومائتي ألف درهم . وكان في صلحهم أن يوسعوا للمسلمين في منازلهم وأن عليهم قسمة المال ، وليس على المسلمين إلا قبض ذلك . وكانت مرو صلحاً كلها إلا قرية منها يقال لها السنج ، فإنها أخذت عنوة . ووجه عبد الله

---

(١) ويقال بالتحريك والأول اكثر : مدينة قديمة بين نيسابور ومرو صحيحة التربة كثيرة المراعي ، قليلة القرى .

(٢) راجع تاريخ ابن الأثير ، الجزء الثالث ص ٦٠ .

ابن عامر الأحنف وهو حصن من مرو الروذ وله رستاق عظيم يعرف برستاق الأحنف ويدعي بشق الجرد فحصر أهله فصالحوه على ٣٠٠,٠٠٠ فقال الأحنف : أصالحكم على أن يدخل رجل منا القصر فيؤذن فيه ويقيم فيكم حتى أنصرف فرضوا وكان الصلح عن جميع الرستاق ، ومضى الأحنف إلى مرو الروذ فحصر أهلها وقاتلوه قتالاً شديداً فهزمهم المسلمون فاضطروهم إلى حصنهم ، وكان المرزبان من ولد باذام صاحب اليمن أو ذا قرابة له فكتب إلى الأحنف أنه دعاني إلى الصلح إسلام باذام فصالحه على ٦٠,٠٠٠ . ووجه الأحنف الأقرع بن حابس التميمي في خيل ، وقال : « يا بني تميم تحابوا وتباذلوا تعتدل أموركم وابدأوا بجهاد بطونكم وفروجكم يصلح لكم دينكم ولا تغلوا يسلم لكم جهادكم » فسار الأقرع فلقي العدو بالجوزجان فكانت في المسلمين جولة ثم كروا فهزموهم وفتحوا الجوزجان عنوة .

وفتح الأحنف الطالقان صلحاً وفتح الفارياب ، ثم سار الأحنف إلى بلخ وهي مدينة طخارا فصالحهم أهلها على ٤٠٠,٠٠٠ فاستعمل على بلخ أرسيد بن المتشمس ثم سار إلى خوارزم وهي من سقي النهر جميعاً ومدينتها شرقية فلم يقدر عليها فانصرف إلى بلخ وقد جبى أرسيد صلحها .

قال أبو عبيدة فتح ابن عامر ما دون النهر ، فلما بلغ أهل ما وراء النهر أمره طلبوا إليه أن يصالحهم ففعل . فيقال : إنه عبر النهر حتى أتى جميع مواضعه . وقيل بل أتوه وصالحوه وبعث من قبض ذلك فأتته الدواب والوصفاء والوصائف والحرير والثياب . ثم إنه أحرم شكراً لله .

ولما تم لابن عامر هذا الفتح قال له الناس : ما فتح لأحد ما فتح عليك ، فارس وكرمان وسجستان وخراسان . فقال لا جرم لأجعلن

شكري لله على ذلك أن أخرج محرماً من موقفي هذا فأحرم بعمرة من نيسابور . وقدم على عثمان واستخلف على خراسان قيس بن الهيثم .

جميع هذه المدن والقرى التي مر ذكرها هي بخراسان . ولما كانت فارسية فقد يستغربها القارىء ويصعب عليه النطق بها وقد اضطررت إلى ذكرها لأن المسلمين فتحوها تحت قيادة عبد الله بن عامر ، وفتح أغلبها صلحاً ، لأنهم لم يستطيعوا مقاومة المسلمين . وقد قتل يزدجرد آخر ملوك الفرس .

فتح اصطخر (١)

إصطخر : كورة وبلدة في بلاد فارس ، وبها كثير من المدن والقرى أشهرها البيضاء ومائتين ونيريز وأبرقوه ويزد وغيرها . وبها كانت خزائن الملوك قبل الإسلام . قيل وفي جبالها معدن الحديد . وفي دارا بجرد – إحدى قراها – معدن الزئبق . وفي إصطخر وضع هيستاسب كتاب زرادشت نبي المجوس لما كانت في عظمتها .

وعلى ثلاثة أو أربعة فراسخ من ميان تجد آثار مدينة إصطخر الشهيرة في قديم الزمان بإسم برسبوليس وهي مدينة قديمة كانت سابقاً دار سلطنة بلاد فارس .

لما جاء الإسلام كان أول من غزا بلاد فارس العلاء بن الحضرمي في خلافة عمر سنة ١٧ هجرية . سار بجيوشه بحراً وخرجوا بإصطخر فقاتلهم أهلها قتالاً شديداً فانجلى القتال عن هزيمة أهل إصطخر . ثم دخل أبو موسى الأشعري بلاد فارس في نفس السنة ، ودفع لواء إصطخر . إلى عثمان بن أبي العاص الثقفي لما فرق الألوية على رجاله

---

(١) راجع فتوح البلدان للبلاذري .

فلم يتيسر الفتح إلا سنة ١٨ هـ وقيل بعد ذلك . قال ابن الأثير وقصد عثمان بن أبي العاص الثقفي إصطخر فالتقى هو وأهلها بجور فاقتتلوا ، وانهزم الفرس وفتح المسلمون جور ، ثم إصطخر وقتلوا الكثير وفر بعضهم فدعا عثمان إلى الذمة والجزية فأجابه الهربذ إليها فتراجعوا ، وكان عثمان قد جمع الغنائم فبعث بخمسها إلى عمر وقسم الباقي في الناس .

ثم عصت إصطخر فعاد إليها عثمان سنة ٢٧ هـ وفتحها ثانية . ثم انتفض الفرس فواقعهم عبيد الله بن معمر على باب إصطخر سنة ٢٩ هـ فقتل وانهزم المسلمون فبلغ الخبر عبد الله بن عامر فسار إليهم والتقوا بإصطخر فانهزم الفرس وقتل منهم كثيرون وفتحت إصطخر عنوة . وأتى دارا بجرد وقد غدر أهلها ففتحها وصار إلى جور فانتفضت إصطخر فلم يرجع إليها إلا بعد أن فتح جور ففتحها أيضاً عنوة بعد أن حاصرها واشتد القتال عليها ورماها بالمناجيق، وقتل من أهلها خلق كثير وأفنى أكثر أهل البيوتات ووجوه الأساوده كانوا قد لجأوا إليها . والذي استخلفه على إصطخر شريك بن الأعور الحارثي فبنى مسجدها .

قال البلاذري في فتوح البلدان :

« لما فرغ عبد الله بن عامر بن فتح جوركر على أهل إصطخر وفتحها عنوة بعد قتال شديد ورمى بالمناجيق وقتل بها من الأعاجم ٤٠,٠٠٠ » إلخ .

فتح كرمان (١)

لما سار ابن عامر إلى فارس وجه مجاشع بن مسعود السلميّ إلى

---

(١) وتسمى قديما كرمانيا مقاطعة من بلاد الفرس بالجنوب الشرقي، راجع ابن الأثير ، الجزء الثالث ص ٦٢ .

كرمان وكان أهلها قد نكثوا وغدروا ففتح بيمنت عنوة واستبقى أهلها وأعطاهم أماناً وبنى قصراً يعرف بقصر مجاشع وفتح بروخروة وأتى الشيرجان وهي مدينة كرمان ، وأقام عليها أياماً يسيرة وأهلها متحصنون وقد خرجت لهم خيل فقاتلهم نفتحها عنوة ، ثم إن كثيراً من أهلها جلوا عنها وفتح جيرفت عنوة وسار في كرمان فدوخ أهلها وأتى القُفص وتجمع له بهرُمور خلق كثير من الأعاجم فقاتلهم فظفر بهم وظهر عليهم . وهرب كثير من أهل كرمان فركبوا البحر ولحق بعضهم بمكران وأتى بعضهم سجستان فأقطعت العرب منازلهم وأراضيهم فعمروها وأدوا العشر فيها واحتفروا القنوات في مواضع منها .

فتح سجستان وكابل (١)

فتحت سجستان في أيام عمر بن الخطاب ، ثم إن أهلها نقضوا عهدهم . فلما توجه ابن عامر إلى خراسان سير إليها من كرمان الربيع ابن زياد الحارثي ، فأتى حصن زالق فأغار على أهله في يوم مهرجان فأخذ دهقانه فافتدى نفسه بأن ركز عنزة ثم غمرها ذهباً وفضة وصالح الدهقان على حقن دمه وصالحه على صلح أهل فارس ، ثم أتى قرية يقال لها كَرْكويه على خمسة أميال من زالق فصالحوه على غير قتال ، ثم أتى زالق وأخذ الأدلاء منها إلى زَرَنج ، وسار حتى نزل الهند منذ ، وأتى زوشت وهي من زرنج على ثلثي ميل فخرج إليه أهلها فقاتلوه قتالاً شديداً وأصيب رجال من المسلمين ، ثم كر المسلمون وهزموهم حتى اضطروهم إلى المدينة بعد أن قتلوا منهم مقتلة

---

(١) سجستان معرب سيستان، وكانت قديما تسمى ساقستان اي بلاد الساقة وهي ولاية بالجنوب الغربي من افغانستان يتبعها قسم داخل حدود بلاد العجم .

عظيمة [1] . ثم أتى الربيع ناشروذ (قرية) فقاتل أهلها وظفر بهم ، ثم مضى إلى شرواذ (قرية) فغلب عليها ، ثم حاصر مدينة زرنج بعد أن قاتل أهلها فبعث إليه أبرْويز مرزبانها يستأمنه ليصالحه فأمر بجسد من أجساد القتلى فوضع له فجلس عليه واتكأ على آخر وأجلس أصحابه على أجساد القتلى مثله . وكان الربيع آدم أفـوه طويلاً . فلما رآه المرزبان هاله فصالحه على ألف وصيف مع كل وصيف جام من ذهب ودخل المسلمون المدينة ، ثم أتى سناروذ (وهو وادٍ) فعبره وأتى القريتين وهناك مربط فرس رستم فقاتله أهلها فظفر بهم ، ثم عاد إلى زرنج وأقام بها سنتين ثم أتى ابن عامر واستخلف بها رجلاً من بني الحارث بن كعب فأخرجوه وأغلقوها . وكانت ولاية الربيع سنتين ونصفاً وسبى في ولايته هذه ٤٠,٠٠٠ رأس وكان كاتبه الحسن البصري ثم ولى ابن عامر عبد الرحمن بن سُمرَة بن حبيب بن عبد شمس سجستان ، فأتى زرنج فحصر مرزبانها في قصره في يوم عيد لهم فصالحه على ألفي ألف درهم وألفي وصيف وغلب ابن سمرة على ما بين زرنج وكش من ناحية الهند وغلب من ناحية طريق الرُّخج على ما بينه وبين بلاد الداور ، فلما انتهى إلى بلاد الداور حصرهم في جبل الزور ثم صالحهم فكانت عدة من معه من المسلمين ٨٠٠٠ فأصاب كل رجل منهم ٤٠٠٠ ودخل على الزور وهو صنم من ذهب عيناه ياقوتتان فقطع يده وأخذ الياقوتتين ثم قال للمرزبان : دونك الذهب والجوهر وإنما أردت أن أعلمك أنه لا يضر ولا ينفع وفتح كابل وزابلستان . وأتى عبد الرحمن زرنج فأقام بها حتى اضطرب أمر عثمان فاستخلف عليها أمير بن أحمر اليشكريّ وانصرف من سجستان فأخرج أهلها أمير بن أحمر وامتنعوا .

---

(١) أوردها ابن الأثير في الجزء الثالث ص ٦٣ .

وفاة أبي سفيان سنة ٣١ هـ

أبو سفيان صخر بن حرب وهو والد يزيد ومعاوية . ولد قبل الفيل بعشر سنين وكان من أشراف قريش . وكان تاجراً يجهز التجار بماله وأموال قريش إلى الشام وغيرها من أرض العجم ، وكان يخرج أحياناً بنفسه وكانت إليه راية الرؤساء التي تسمى العقاب . وإذا حميت الحرب اجتمعت قريش فوضعتها بيد الرئيس . وقيل كان أفضل قريش رأياً في الجاهلية ثلاثة : عتبة ، وأبو جهل وأبو سفيان ، فلما أتى الإسلام أدبر في الرأي . وهو الذي قاد قريشاً كلها يوم أحد ولم يقدها قبل ذلك رجل واحد إلا يوم ذات نكيف قادها المطلب . وكان أبو سفيان صديق العباس ، وأسلم ليلة الفتح وأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم من غنائمها مائة بعير وأربعين أوقية ، وأعطى ابنيه يزيد ومعاوية كل واحد مثله . وشهد الطائف مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ففقئت عينه يومئذ وفقئت الأخرى يوم اليرموك . وشهد اليرموك تحت راية ابنه يزيد يقاتل ويقول « يا نصر الله اقترب » وكان يقف على الكراديس يقص ويقول « الله . الله . إنكم دارة العرب وأنصار الإسلام وإنهم دارة الروم وأنصار المشركين . اللهم هذا يوم من أيامك . اللهم أنزل نصرك على عبادك » .

وروي أنه لما أسلم ورأى المسلمين وكثرتهم قال للعباس : « لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً » فقال له العباس : إنها النبوة . قال : فنعم . وكان من المؤلفة قلوبهم وحسن إسلامه .

توفي سنة ٣١ هـ وصلى عليه عثمان وكان عمره ٨٨ سنة . [١]

---

(١) أوردها ابن الأثير في تاريخه ، الجزء الثالث ص ٦٤ .

غزوة بلنجرد سنة ٣٢ هـ

بلنجرد مدينة الخزَر خلف باب الأبواب .

ذكرنا في كتاب « الفاروق عمر بن الخطاب » أن عبد الرحمن ابن ربيعة زحف بجيشه (يريد بلنجرد)[1] فخافهم الترك في أول الأمر وقالوا إن هؤلاء « أي العرب » ملائكة لا يعمل فيهم السلاح فاتفق أن تركياً اختفى في غيضه (أجمة) ورشق مسلماً بسهم فقتله . فنادى في قومه أن هؤلاء يموتون . كما تموتون ، فلا تخافونهم ؟ فاجترأوا عليهم وأوقعوا بهم حتى استشهد عبد الرحمن بن ربيعة ، وأخذ الراية أخوه ولم يزل يقاتل حتى أمكنه دفن أخيه بنواحي بلنجرد ، ورجع بقية المسلمين على طريق جيلان .

وفي سنة ٣٢ هـ انتصرت الخزر والترك على المسلمين ، وسببه أن الغزوات لما تتابعت عليهم تذامروا (تحاضوا على القتال وتلاوموا) وقالوا كنا لا يُقرن بنا أحد حتى جاءت هذه الأمة « العربية » فصرنا لا نقوم لها .

لما قتل عبد الرحمن بن ربيعة وانهزم المسلمون افترقوا فرقتين فرقة نحو الباب فلقوا سلمان بن ربيعة أخا عبد الرحمن كان قد سيره سعيد بن العاص مدداً للمسلمين بأمر عثمان ، فلما لقوه نجوا معه . وفرقة نحو جيلان وجرجان فيهم سلمان الفارسي وأبو هريرة ، وكان في ذلك العسكر يزيد بن معاوية النخعي وعلقمة بن قيس ومعضد الشيباني وأبو مفرز التميمي في خباء واحد ، وخالد بن ربيعة والحلحان

---

(١) ذكرها ابن كثير في كتابه البداية والنهاية باسم «بلنجر» راجع ابن كثير جـ ٧ ص ١٥٩ ، وذكرها ايضا الطبري في تاريخه باسم «بلنجر» الجزء الخامس ص ٧٨ .

ابن دري والقرثع في خباء فكانوا متجاورين في ذلك العسكر . وكان القرثع يقول : ما أحسن لمع الدماء على الثياب . وكان عمرو بن عتبة يقول لقباء عليه أبيض ما أحسن حمرة الدماء على بياضك ، ورأى يزيد بن معاوية (في منامه) أن غزالاً جيء به لم ير أحسن منه فلف في ملحفة ، ثم دفن في قبر لم ير أحسن منه ، عليه أربعة نفر قعوداً ، فلما استيقظ واقتتل الناس رمى بحجر فهشم رأسه فمات فكأنما زين ثوبه بالدماء وليس بتلطيخ ، فدفن في قبر على الصورة التي رأى . وقال معضد لعلقمة أعرني بردك أعصب به رأسي ففعل فأتى برج بلنجرد الذي أصيب فيه يزيد فرماهم فقتل منهم . وأتاه حجر عرّادة [1] فضخ هامته فأخذه أصحابه فدفنوه إلى جنب يزيد ، وأخذ علقمة البرد فكان يغسله فلا يخرج أثر الدم منه وكان يشهد فيه الجمعة ، ويقول يحملني على هذا أن دم معضد فيه . وأصاب عمرو بن عتبة جراحة فرأى قباءه كما اشتهى ثم قتل ، وأما القرثع فإنه قاتل حتى خرق بالحراب . فبلغ الخبر بذلك إلى عثمان فقال إنا لله وإنا إليه راجعون ، انتكث أهل الكوفة . اللهم تب عليهم وأقبل بهم . وكان عثمان قد كتب إلى سعيد بن العاص أن ينفذ سلمان إلى الباب للغزو فسيره فلقي المهزومين على ما تقدم فنجاهم الله به . فلما أصيب عبد الرحمن استعمل سلمان بن ربيعة على الباب واستعمل على الغزو بأهل الكوفة حذيفة بن اليمان وأمدهم عثمان بأهل الشام . عليهم حبيب بن مسلمة فتأمر عليه سلمان وأبى حبيب حتى قال أهل الشام لقد هممنا بضرب سلمان . فقال الكوفيون إذن والله نضرب حبيباً ونحبسه وإن

---

(١) آلة تستخدم في الحرب لدك الحصون اصغر من المنجنيق وترمى بالحجارة البعيدة المرمى ، جمعها عرادات .

أبيتم كثرت القتلى فينا وفيكم [1] . وأراد حبيب أن يتأمر على صاحب الباب كما يتأمر أمير الجيش إذا جاء من الكوفة فكان ذلك أول خلاف وقع بين أهل الكوفة وغزا حذيفة ثلاث غزوات فقتل عثمان في الثالثة ولقيهم مقتل عثمان . فقال حذيفة بن اليمان « اللهم العن قتلته وشتامه ، اللهم إنا كنا نعاتبه ويعاتبنا فاتخذوا ذلك سلماً إلى الفتنة ، اللهم لا تمتهم إلا بالسيوف » .

خروج الترك مع ملكهم قارن (٢)
سنة ٣٢ هـ

خرجت جموع من الترك من ناحية خراسان في ٤٠,٠٠٠ عليهم؟ قارن من ملوكهم ، فانتهى إلى الطبسين واجتمع له أهل باذغيس وهراة وقهستان ، وكان على خراسان يومئذ ابن الهيثم السلمي استخلفه عليها ابن عامر عند خروجه إلى مكة محرماً ، فدوّخ جهتها ، وكان معه ابن عمه عبد الله بن خازم فقال لإبن عامر اكتب لي على خراسان عهداً إذا خرج منها قيس ففعل . فلما أقبلت جموع الترك قال قيس لابن خازم : ما ترى ؟ قال أرى أن تخرج من البلاد ، فإن عهد ابن عامر عندي بولايتها فترك منازعته وذهب إلى ابن عامر . وقيل أشار عليه أن يخرج إلى ابن عامر يستمده فلما خرج أشهر عهدابن عامر له؟ بالولاية عند مغيب قيس وسار ابن خازم للقاء الترك في أربعة آلاف

(١) وقال اوس بن مغراء في ذلك :

ان تضربوا سلمان نضرب حبيبكم ... وان ترحلوا نحو ابن عفان نرحل
وان تقسطوا فالثغر ثغر اميرنا ... وهذا امير في الكتائب مقبل
ونحن ولاة الثغر كنا حماته ... ليالي نرمي كل ثغر وننكل

(٢) راجع ابن الأثير في تاريخه ص ٦٦ الجزء الثالث .

وأمر الناس فحملوا الودك [1] فلما قرب من قارن أمر الناس أن يربط كل رجل منهم على زج رمحه خرقة ، أو قطناً ، ثم يكثروا دهنه ، ثم سار حتى أمسى فقدم مقدمته ستمائة ، ثم أتبعهم وأمر الناس فأشعلوا؟ النار في أطراف الرماح فانتهت مقدمته إلى معسكر قارن نصف الليل فناوشوهم وهاج الناس على دهش ، وكانوا آمنين من البيات ودنا ابن خازم منهم فرأوا النيران يمنة وميسرة تتقدم وتتأخر وتنخفض وترتفع فهالهم ذلك ومقدمة ابن خازم يقاتلونهم ، ثم غشيهم ابن خازم وأكثروا القتل في المشركين وقتل ملكهم قارن فانهزم المشركون واتبعهم المسلمون يقتلونهم كيف شاءوا وأصابوا سبياً كثيراً وكتب ابن خازم بالفتح إلى ابن عامر فرضي وأقره على خراسان .

هذه الخدعة الحربية التي ابتدعها ابن خازم بإشعال أطراف الرماح ومداهمة العدو ليلاً هي أول خدعة سمعنا بها في التاريخ الإسلامي وقد فزع العدو لرؤيتها وهالهم الأمر ، وبذلك انتصر المسلمون على الأتراك في هذه الموقعة .

وفاة كبار الصحابة

توفي بين سنة ٣٢ هـ وسنة ٣٤ هـ عدد من كبار الصحابة رضوان الله عليهم فرأيت أن أقدم للقراء نبذة عن تاريخ حياة كل منهم لأنهم توافوا في خلافة عثمان رضي الله عنه . أما أبو ذر فقد سبق أن ذكرت سيرته عند تسييره إلى الربذة .

(١) الدسم من اللحم والشحم وهو ما يتحلب منهما .

وفاة ابي ذر الغفاري (١)

سنة ٣٢ هـ

لما حضرت أبا ذر الوفاة في سنة ثمان في ذي الحجة من إمارة عثمان قال لابنته .

« إستشرفي يا بنية فانظري هل ترين أحداً ؟ قالت : لا . قال : فما جاءت ساعتي بعد . ثم أمرها فذبحت شاة ثم طبختها . ثم قال ، إذا جاءك الذين يدفنونني فقولي لهم إن أبا ذر يقسم عليكم أن لا تركبوا حتى تأكلوا . فلما نضجت قدرها ، قال لها : انظري هل ترين أحداً ؟ قالت : نعم هؤلاء ركب مقبلون . قال : استقبلي بي الكعبة . ففعلت وقال : (بسم الله وبالله وعلى ملة رسول الله صلى الله عليه وسلم) . ثم خرجت ابنته فتلقتهم وقالت : رحمكم الله اشهدوا أبا ذر فادفنوه قالوا : وأين هو ؟ فأشارت إليه وقد مات . قالوا : ونعمة عين ، لقد أكرمنا الله بذلك . وإذا ركب من أهل الكوفة فيهم ابن مسعود فمالوا إليه وابن مسعود يبكي ويقول : صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم (يموت وحده ويبعث وحده) .

فغسلوه وكفنوه وصلوا عليه ودفنوه . فلما أرادوا أن يرتحلوا قالت إن أبا ذر يقرأ عليكم السلام وأقسم عليكم أن لا تركبوا حتى تأكلوا ففعلوا وحملوهم حتى أقدموهم مكة ونعوه إلى عثمان فضم إبنته إلى عياله وقال : يرحم الله أبا ذر ويغفر لرافع بن خديج سكوته وفي رواية أخرى أنه قال : يرحم الله أبا ذر ويغفر له نزوله الربذة .

---

(١) راجع ابن الأثير ، الجزء الثالث ص ٦٥ .

وفاة عبد الرحمن بن عوف (١)
سنة ٣٢ هـ

وفي هذه السنة توفي عبد الرحمن بن عوف ، وأمه الشفاء بنت عوف . ولد بعد الفيل بعشر سنين ، وأسلم قبل أن يدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم دار الأرقم(٢) . وكان أحد الثمانية الذين سبقوا إلى الإسلام وأحد الخمسة الذين أسلموا على يد أبي بكر . وكان من المهاجرين الأولين . هاجر إلى الحبشة وإلى المدينة وآخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينه وبين سعد بن الربيع كما ذكر في كتاب (محمد رسول الله) وشهد بدراً والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . وبعثه رسول الله إلى دومة الجندل : وعممه بيده وسدلها بين كتفيه وقال : إن فتح الله عليك فتزوج ابنة ملكهم ؛ أو قال شريفهم ، وكان الأصبغ بن ثعلبة بن ضمضم الكلبي شريفهم فتزوج ابنته تماضر بنت الأصبغ فولدت له أبا سلمة بن عبد الرحمن ، وكان أحد العشرة المشهود لهم بالجنة وأحد الستة أصحاب الشورى الذين جعل عمر بن الخطاب الخلافة فيهم (٣) .

وصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم خلفه في سفره . وجرح يوم أحد إحدى وعشرين جراحة في رجله فكان يعرج منها . وسقطت ثنيتاه فكان أهتم . وكان كثير الإنفاق في سبيل الله عز وجل . أعتق في يوم ثلاثين عبداً .

---

(١) راجع البداية والنهاية لابن كثير ، الجزء السابع ص ١٦٣ .

(٢) كان اسم عبد الرحمن بن عوف في الجاهلية عبد الكعبة فسماه رسول الله عبد الرحمن .

(٣) راجع كتاب الفاروق عمر بن الخطاب ، للمؤلف .

ولما آخى رسول الله بينه وبين سعد بن الربيع قال له سعد إن لي مالاً فهو بيني وبينك شطران . ولي امرأتان فانظر أيتهما أحببت حتى أخالعها فإذا حلت فتزوجها . فقال لا حاجة لي في أهلك ومالك بارك الله لك في أهلك ومالك دلوني على السوق (لأنه كان من كبار التجار) فاشترى وباع وربح .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : عبد الرحمن بن عوف أمين في السماء أمين في الأرض .

ولما توفي عمر رضي الله عنه قال عبد الرحمن بن عوف لأصحاب الشورى الذين جعلوا عمر الخلافة فيهم : من يخرج نفسه منها ويختار للمسلمين ؟ فلم يجيبوه إلى ذلك . فقال أنا أخرج نفسي من الخلافة وأختار للمسلمين فأجابوه إلى ذلك وأخذ مواثيقهم عليه فاختار عثمان فبايعه — كما ذكرنا في كتابنا الفاروق — .

وكان عظيم التجارة مجدوداً فيها . كثير المال . قيل إنه دخل على أم سلمة فقال : يا أمة قد خفت أن تهلكني كثرة مالي . قالت يا بني أنفق .

ولما كثر ماله قدم له ذات يوم راحلة تحمل البر ، وتحمل الدقيق والطعام ، فلما دخلت المدينة سمع لأهل المدينة رجّة . فقالت عائشة ما هذه الرجة ؟ فقيل لها عير قدمت لعبد الرحمن بن عوف ، سبعمائة بعير تحمل البر والدقيق . فقالت عائشة سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول يدخل عبد الرحمن بن عوف الجنة حبواً . فلما بلغ ذلك عبد الرحمن قال يا أمة إني أشهدك أنها بأحمالها وأحلاسها وأقتابها في سبيل الله عز وجل .

وتصدق عبد الرحمن بن عوف على عهد رسول الله صلى الله عليه

وسلم بشطر ماله . أربعة آلاف ؛ ثم تصدق بأربعين ألفاً ؛ ثم تصدق بأربعين ألف دينار . ثم حمل على خمسمائة فرس في سبيل الله ، ثم حمل على خمسمائة راحلة في سبيل الله . وكان عامة ماله من التجارة .

فهل يقتدى به في زماننا هذا كبار الأغنياء الذين يكنزون الذهب والفضة والأوراق المالية ويمتلكون الضياع الواسعة والعمارات الشاهقة فيبذلون جزءاً منها في سبيل الله وإعانة الفقراء والمساكين الذين ضاقت مذاهبهم وساءت حالهم ولا يجدون لهم معيناً ؟ اللهم لقد فسد الزمان . وفسدت القلوب وزاد الجشع والطمع . وانمحت عاطفة الخير وصار كل إنسان لا يفكر إلا في نفسه ولذّاته وشهواته . لذلك اتسعت مسافة الخلف بين الأغنياء والفقراء وحقد كلٌ على أخيه في الإنسانية وكثرت حوادث التعدي وشعر الفقير بالحيف ونقم على النظم الحالية وتفككت روابط الأسر والصداقة وفشا الربا . وهذه حالة محزنة ؛ لطف الله بعباده .

كان بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف كلام ؛ فقال خالد لعبد الرحمن : تستطيلون علينا بأيام سبقتمونا بها ! فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم . فقال : دعوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما أدرك مُدّ أحدهم ولا نصيفه . وهذا إنما كان بينهما لما سيَّر رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد إلى بني جذيمة بعد فتح مكة فقتّل فيهم خالدٌ خطأً . فودى رسول الله صلى الله عليه وسلم وسلّم القتلى وأعطاهم ثمن ما أخذ منهم ، وكان بنو جذيمة قد قتلوا في الجاهلية عوف بن عوف والد عبد الرحمن بن عوف وقتلوا الفاكه بن المغيرة عم خالد . فقال له عبد الرحمن : إنما قتلتهم لأنهم قتلوا عمك . وقال له خالد : إنما قتلوا أباك وأغلظ في القول . فقال النبي صلى الله عليه وسلم ما قال .

توفي عبد الرحمن سنة ٣٢ هـ وهو ابن ٧٥ سنة وأوصى بخمسين ألف دينار في سبيل الله . وأوصى لمن بقي ممن شهد بدراً لكل ٤٠٠ دينار ، وكانوا مائة فأخذوها ، وأخذها عثمان فيمن أخذ وأوصى بألف فرس في سبيل الله .

ولما مات قال عليّ بن أبي طالب : إذهب يا ابن عوف فقد أدركت صفوَها وسبقت رَنْقها (كدرها) .

وكان سعد بن أبي وقاص فيمن حمل جنازته وهو يقول : واجبلاه وخلف مالاً عظيماً من ذهب قطع بالفؤوس حتى مجلت أيدي الرجال منه . وترك ألف بعير ومائة فرس وثلاثة آلاف شاة ترعى بالبقيع .

وترك أربع نسوة . أخرجت امرأة من إرثها بثمانين ألفاً يعني صولحت وكان طويلاً أبيض مشرباً بحمرة . حسن الوجه . رقيق البشرة . أهدب الأشفار أقنى . له جمة . ضخم الكفين . غليظ الأصابع (علامة الغنى) . لا يغير لحيته ولا رأسه .

وفاة العباس بن عبد المطلب (١)

سنة ٣٢ هـ

توفي في هذه السنة أيضاً العباس بن عبد المطلب ، كما ذكره الطبري وهو عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وصنو أبيه . يكنى أبا الفضل بابنه الفضل ، وأمه نتيلة بنت خباب ، وهي أول عربية كست البيت الحرير والديباج وأصناف الكسوة . وسببه أن العباس ضاع وهو

(١) ذكرها الطبري في تاريخه انه مات وهو ابن ثمان وثمانين سنة وكان اسن من رسول الله صلى الله عليه وسلم بثلاث سنين . الجزء الخامس ص ٨٠ .

صغير فنذرت إن وجدته أن تكسو البيت فوجدته ففعلت . وكان أسن من رسول الله صلى الله عليه وسلم بسنتين وقيل بثلاث سنين .

وكان العباس في الجاهلية رئيساً في قريش . وإليه كانت عمارة المسجد الحرام والسقاية في الجاهلية . أما السقاية فمعروفة . وأما عمارة المسجد الحرام فإنه كان لا يدع أحداً يسب في المسجد الحرام ولا يقول فيه هجراً لا يستطيعون لذلك امتناعاً . لأن ملأ قريش كانوا قد اجتمعوا وتعاقدوا على ذلك . فكانوا له أعواناً عليه .

وشهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بيعة العقبة لما بايعه الأنصار ليشدد له العقد ، وكان حينئذ مشركاً . وكان ممن خرج مع المشركين يوم بدر مكرَهاً . وأسر يومئذ فيمن أسر . وكان قد شد وثاقه فسهر النبي صلى الله عليه وسلم تلك الليلة ولم ينم فقال له بعض أصحابه : ما يسهرك يا نبي الله ؟ فقال : أسهر لأنين العباس . فقام رجل من القوم فأرخى وثاقه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مالي لا أسمع أنين العباس ؟ فقال الرجل أنا أرخيت من وثاقه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فافعل ذلك بالأسرى كلهم (وهذا هو العدل) وفدى يوم بدر نفسه وابني أخويه عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث .

ثم هاجر إلى النبي صلى الله عليه وسلم وشهد معه فتح مكة وانقطعت الهجرة وشهد حنيناً ، وثبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لما انهزم الناس بحنين .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعظمه ويكرمه بعد إسلامه وكان وصولاً لأرحام قريش . محسناً إليهم . ذا رأي سديد وعقل غزير .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . « أيهـــا الناس من آذى عمي فقد آذاني فإنما عم الرجل صنو أبيه » .

وعن العباس قال أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت علمني يا رسول الله شيئاً ادعو به . فقال : سل الله العافيـــة ثم أتيته مرة أخرى . فقلت يا رسول الله علمني شيئاً أدعو به فقال : يا عباس يا عم رسول الله سل الله العافية في الدنيا والآخرة .

واستسقى عمر بن الخطاب بالعباس رضي الله عنهما عام الرمادة لما اشتد القحط ، فسقاهم الله تعالى به وأخصبت الأرض . فقـــال عمر هذا والله الوسيلة إلى الله والمكان منه . لكن دائرة المعـــارف الإسلامية قالت (في المجلد الأول ص ١٠ في النسخة الإنجليزية) إن هذه القصة خرافة وضعها العباسيون . وهذا تعنت وتشكيـــك . لأن حسان بن ثابت ذكر استسقاء عمر بالعباس في شعره . فلو كان ذلك خرافة لما ذكره حسان بالمرة . ولا يخفى أن حسان قال ذلك الشعر زمن عمر بن الخطاب وإليك قوله :

سأل الإمام وقد تتابع جدبنـــا	فسقى الغمام بغرة العبـــاس
عم النبي وصنو والده الـــذي	ورث النبي بذاك دون الناس
أحيا الإله به البلاد فأصبحـــت	مخضرة الأجناب بعد اليـــاس

وعن أنس بن مالك . أنهم كانوا إذا قحطوا على عهد عمر خرج بالعباس فاستسقى به وقال « اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا عليه السلام إذا قحطنا فتسقينا ، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا عليه السلام فاسقنا » .

وعن موسى بن عمر قال : أصاب الناس قحط فخرج عمر ابن الخطاب فأخذ يستسقي بيد العباس فاستقبل به القبلة . فقـــال

« هذا عم نبيك عليه السلام جئنا نتوسل به إليك فاسقنا » فما رجعوا حتى سقوا .

وعن عبد الرحمن بن حاطب ، عن أبيه قال : رأيت عمر آخذاً بيد العباس فقام به فقال : اللهم إنا نستشفع بعم رسولك صلى الله عليه وسلم إليك [1] .

فليست قصة الإستسقاء خرافة كما زعمت دائرة المعارف الإسلامية فقد رواها جمع من الصحابة .

ولما سقى الناس طفقوا يتمسحون بالعباس ويقولون هنيئاً لك ساقي الحرمين . وكان الصحابة يعرفون للعباس فضله ويقدمونه ويشاورونه ويأخذون برأيه وكان له من الولد عشرة ذكور سوى الإناث .

توفي العباس بالمدينة وصلى عليه عثمان ودفن بالبقيع وهو ابن ثمان وثمانين سنة . وكان طويلاً جميلاً أبيض .

وفاة عبدالله بن مسعود (٢)

وممن توفي في هذه السنة عبد الله بن مسعود بن غافل وأمه أم عبد بنت عبدوُدّ بن سوداء . أسلمت أيضاً وهاجرت . فهو صحابي ابن صحابية . أسلم قديماً قبل عمر بن الخطاب حين أسلم سعيد بن زيد وزوجته فاطمة بنت الخطاب .

---

(١) راجع طبقات ابن سعد الجزء الرابع صفحة ١٩ طبعة ليدن سنة ١٣٢٢ هـ (١٩٠٨ م) .

(٢) راجع البداية والنهاية لابن كثير ، الجزء السابع صفحة ١٦٢ .

قال ابن مسعود يذكر سبب إسلامه :

« كنت غلاماً يافعاً في غنم لعقبة بن أبي معيط أرعاها ، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكر . فقال يا غلام هل معك من لبن ؟ فقلت نعم ولكني مؤتمن . فقال أئتني بشاة لم ينز عليها الفحل فأتيته بعناق أو جذعة فاعتقلها رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل يمسح الضرع ويدعو حتى أنزلت ؛ فأتاه أبو بكر بصحفة فاحتلب فيها . ثم قال لأبي بكر إشرب فشرب أبو بكر ، ثم شرب النبي صلى الله عليه وسلم بعده . ثم قال للضرع أقلص فقلص فعاد كما كان . ثم أتيته فقلت يا رسول الله علمني من هذا الكلام أو من هذا القرآن . فمسح رأسي وقال : إنك غلام معلم . قال فلقد أخذت منه سبعين سورة ما نازعني فيها بشر » .

وهو أول من جهر بالقرآن بمكة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

اجتمع يوماً أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا والله ما سمعت قريش هذا القرآن يجهر لها به قط . فمن رجل يسمعهم ؟ فقال عبد الله بن مسعود أنا . فقالوا : إنا نخشاهم عليك . إنما نريد رجلاً له عشيرة تمنعه من القوم إن أرادوه . فقال دعوني فإن الله سيمنعني . فغدا عبد الله حتى أتى المقام في الضحى وقريش في أنديتها ، فقال رافعاً صوته : (بسم الله الرحمن الرحيم . الرحمن علم القرآن) [1] فاستقبلها فقرأ بها فتأملوا . فجعلوا يقولون ما يقول ابن أم عبد ؟ ثم قالوا إنه

---

(1) سورة الرحمن آية 1 .

ليتلو بعض ما جاء به محمد فقاموا فجعلوا يضربون في وجهه. وجعل يقرأ حتى بلغ منها ما شاء الله أن يبلغ. ثم انصرف إلى أصحابه وقد أثروا بوجهه. فقالوا هذا الذي خشينا عليك. فقال ما كان أعداء الله قط أهون عليّ منهم الآن. ولئن شئتم غاديتهم بمثلها غداً. قالوا حسبك قد أسمعتهم ما يكرهون.

ولما أسلم عبد الله أخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه وكان يخدمه فكان يدخل عليه ويلبسه نعله، ويمشي معه وأمامه ويستره إذا اغتسل، ويوقظه إذا نام.

وهاجر الهجرتين جميعاً إلى الحبشة، وإلى المدينة. وصلى إلى القبلتين، وشهد بدراً وأحداً والخندق وبيعة الرضوان وسائر المشاهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وشهد اليرموك بعد النبي صلى الله عليه وسلم.

وهو الذي أجهز على أبي جهل. وشهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة. وسيره عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى الكوفة وكتب إلى أهلها: «إني قد بعثت عمار بن ياسر أميراً وعبد الله بن مسعود معلماً ووزيراً وهما من النجباء من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل بدر فاقتدوا بهما وأطيعوا واسمعوا قولهما. وقد آثرتكم بعبد الله على نفسي» وليس بعد ذلك ثناء وتقدير.

ولما مرض عبد الله عاده عثمان بن عفان فقال: ما تشتكي؟ قال: ذنوبي. قال: فما تشتهي؟ قال: رحمة ربي. قال: ألا آمر لك بطبيب؟ قال: الطبيب أمرضني. قال: ألا آمر لك بعطاء؟ قال: لا حاجة لي فيه. قال: يكون لبناتك. قال

أتخشى على بناتي الفقر ؟ إني أمرت بناتي أن يقرأن كل ليلة سورة الواقعة . إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبداً » .

وفي أسد الغابة وتهذيب اللغات والأسماء أنه توفي سنة ٣٢ هـ ، وكان عمره يوم توفي بضعاً وستين سنة .

وكان يعرف بصاحب سواد رسول الله (سره) وسواكه ونعله وكان عبد الله يلبس رسول الله صلى الله عليه وسلم نعليه ، ثم يمشي أمامه بالعصا ، حتى إذا أتى مجلسه نزع نعليه فأدخلهما في ذراعيه وأعطاه العصا فإذا أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقوم ألبسه نعليه ، ثم مشى بالعصا أمامه حتى يدخل الحجرة قبل رسول الله . وكان يصوم الإثنين والخميس . وكان رجلاً نحيفاً قصيراً ، دقيق الساقين . وكان من كبار الصحابة وساداتهم وفقهائهم ومقدميهم في القرآن والفقه والفتوى وأصحاب الخلق والأتباع في العلم . مات بالمدينة ، ودفن بالبقيع عند قبر عثمان ابن مظعون كما أوصى وهو ابن بضع وستين سنة . وقيل إنه ترك تسعين ألف درهم .

وفاة عبدالله بن زيد بن عبد ربه (١)
الذي أرى الأذان ـ سنة ٣٢ هـ

شهد عبد الله العقبة وبدراً والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهو الذي أرى الأذان في النوم فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بلالاً أن يؤذن على ما رآه عبد الله . وكانت رؤياه في السنة الأولى بعد ما بنى رسول الله مسجده .

---

(١) راجع الطبري الجزء الخامس ص ٨٠ .

قال عبد الله لما أصبحنا أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته بالرؤيا فقال هذه رؤيا حق . فقم مع بلال فإنه أندى صوتاً منك فألق عليه ما قيل لك ولينادِ بذلك ، فلما سمع عمر بن الخطاب نداء بلال بالصلاة خرج إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يجر رداءه وهو يقول يا رسول الله والذي بعثك بالحق لقد رأيت مثل الذي قال ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فلله الحمد فذاك أثبت » .

وفاة ابي الدرداء الأنصاري (١)

سنة ٣٢ هـ

اسمه عويمر بن مالك، وقيل اسمه عامر بن مالك وعويمر لقب . تأخر إسلامه قليلاً . كان آخر أهل داره إسلاماً ، وحسن إسلامه وكان فقيهاً ، عاقلاً ، حكيماً آخى رسول الله بينه وبين سلمان الفارسي . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (عويمر حكيم أمتي) . شهد ما بعد أحد من المشاهد .

مر أبو الدرداء يوماً على رجل أصاب ذنباً وكانوا يسبونه . فقال أرأيتم لو وجدتموه في قَليب (بئر قديمة) ألم تكونوا مستخرجيه ؟ قالوا بلى . قال فلا تسبوا أخاكم واحمدوا الله الذي عافاكم . قالوا : أفلا تبغضه ؟ قال : إنما أبغض عمله فإذا تركه فهو أخي .

ولما نزل به الموت بكى فقالت له أم الدرداء وأنت تبكي يا

---

(١) أورد ابن الأثير ان الصحابي ابو الدرداء قد توفي في العام ٣١هـ الجزء الثالث ص ٦٣ .

صاحب رسول الله ؟ قال نعم . ومالي لا أبكي ولا أدري علام أهجم من ذنوبي . ودعا ابنه بلالاً فقال : ويحك يا بلال . اعمل للساعة . إعمل لمثل مصرع أبيك واذكر به مصرعك وساعتك فكأن قد . ثم قبض .

وكان أبو الدرداء مقرىء أهل دمشق وقاضيهم . يهابه معاوية ويتأدب معه .

وفاة المقداد بن الأسود الكندي
سنة ٣٢ هـ

هو قديم الإسلام من السابقين وهاجر إلى أرض الحبشة ثم عاد إلى مكة فلم يقدر على الهجرة إلى المدينة لما هاجر إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم .

عن ابن إسحاق قال : أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم لما سار إلى بدر الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا غيرهم فاستشار رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس فقال أبو بكر فأحسن . وقال عمر فأحسن . ثم قام المقداد فقال يا رسول الله امض لما أمرت به فنحن معك . والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى « إذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون » ولكن نقول إذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، فوالذي بعثك بالحق نبيّاً لو سرت بنا إلى بَرْكِ الغماد [1] لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم خيراً

(١) بكسر الغين وقال ابن دريد بالضم والكسر : اشهر موضع وراء مكة بخمس ليال مما يلي البحر وقيل بلد باليمن .

ودعا له . قيل لم يكن ببدر صاحب فرس غير المقداد ، وشهد المشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . وشهد فتح مصر .

وكانت وفاته بالمدينة ومات بأرض له بالجرف وحمل إلى المدينة ودفن بالبقيع وأوصى إلى الزبير بن العوام وصلى عليه عثمان رضي الله عنه وكان عمره سبعين سنة وكان رجلاً ضخماً ، طويلاً ، آدم ، ذا بطن ، كثير شعر الرأس يصفر لحيته وهي حسنة وليست بالعظيمة ولا بالخفيفة . أعين ، مقرون الحاجبين . أقنى .

وبعد أن توفي المقداد جعل عثمان يثني عليه فقال الزبير :

لاَ أُلْفِيَنَّكَ بعد الموت تندبني
وفي حياتي ما زودتني زادي

وفاة ابي طلحة الأنصاري (١)
سنة ٣٤ هـ

اسمه زيد بن سهل الأنصاري النجّاري ، شهد بدراً . وآخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينه وبين أبي عبيدة بن الجراح . شهد المشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان من الرماة المذكورين من الصحابة وهو من الشجعان وله يوم أحد مقام مشهود . كان بقي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه يرمي بين يديه ويتطاول بصدره ليقي رسول الله صلى الله

(١) ذكر ابن الأثير في تاريخه ان وفاة أبي طلحة الأنصاري كانت في العام ٣٢ هـ وقيل سنة ٥١ هـ الجزء الثالث ص ٦٣ .

عليه وسلم . ويقول « نحري دون نحرك ونفسي دون نفسك » . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلـــم يقول : (صوت أبي طلحة في الجيش خير من مائة رجل) . وقتل يوم حنين عشرين رجلاً وأخذ أسلابهم . وكان أكثر الأنصار مالا .

توفي بالمدينة وهو ابن سبعين سنة ، وصلى عليه عثمان بن عفان .

وكان لا يخضب وكان آدم مربوعاً .

وفاة عبادة بن الصامت الأنصاري (١)
سنـــة ٣٤ هـ

اسمه غنم بن عوف . شهد العقبة الأولى والثانية . وآخى رسول الله بينه وبين أبي مرثد الغنوي . وشهد بدراً وأحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . واستعمله رسول الله عـــلى بعض الصدقات وقال له (اتق الله . لا تأتي يوم القيامة ببعير تحملـــه له رغاء أو شاة لها ثؤاج) قال : « فوالذي بعثك بالحق لا أعمل على إثنين » . وهو من الذين جمعوا القرآن زمن رسول الله . وكان عبادة يعلم أهل الصفة القرآن . ولما فتح المسلمون الشام أرسله عمـــر بن الخطاب وأرسل معه معاذ بن جبل وأبا الدرداء ليعلموا الناس القرآن بالشام ويفقهوهم في الدين . وأقام عبادة بحمص وأقـــام أبو الدرداء بدمشق ومضى معاذ إلى فلسطين ، ثم صار عبادة بعد إلى فلسطين . وكان معاوية خالفه في شيء أنكره عبادة فأغلظ له معاوية في القول فقـــال عبادة : لا أساكنك بأرض واحدة أبداً ورحل إلى المدينة . فقال عمر : ما أقدمك ؟ فأخبره فقال : إرجع إلى مكانك يفتح الله أرضاً لست فيها أنت ولا أمثالك . وكتب إلى معاوية : لا إمرة لك عليه .

---

(١) راجع ابن الأثير الجزء الثالث ص ٧٥ .

وبايع عبادة رسول الله على أن لا يخاف في الله لومة لائم . فقام في الشام خطيباً فقال :

« يا أيها الناس . إنكم قد أحدثتم بيوعاً لا أدري ما هي . ألا أن الفضة بالفضة وزناً بوزن ، تبرها وعينها . والذهب بالذهب وزناً بوزن تبره وعينه . ألا ولا بأس ببيع الذهب بالفضة يداً بيد والفضة أكثر ولا يصلح نسيئة . ألا وإن الحنطة بالحنطة مدياً بمدى . والشعير بالشعير مدياً بمدى [1] . ألا ولا بأس ببيع الحنطة بالشعير والشعير أكثرهما يداً بيد ولا يصلح نسيئة والتمر بالتمر مدياً بمدى والملح بالملح مدياً بمدى ومن نقص أو ازداد فقد أربى » .

وعبادة أحد النقباء . بدرى كبير وكان طويلاً جسيماً جميلاً من كبار زاد العلماء .

توفي بالرملة . وقيل توفي ببيت المقدس وهو ابن اثنتين وسبعين سنة .

---

(١) المدى بالضم مكيال تسعة عشر صاعا وهو غير المد يسع والجمع امداء .

تسيير أهل الفتنة

في العراق الى معاوية في الشام

اختار سعيد بن العاص والي الكوفة بعد الوليد بن عقبة وجوه الناس وأهل القادسية وقراء أهل البصرة دخلته إذا خلا ، فأما إذا جلس للناس فإنه يدخل عليه كل أحد . فجلس للناس يوماً فدخلوا عليه فبينا هم جلوس يتحدثون قال خنيس بن فلان الأسدي . ما أجود طلحة ابن عبيدالله! فقال سعيد بن العاص « إن من له مثل النشاستج[1] لحقيق أن يكون جواداً . والله لو أن لي مثله لأعاشكم الله عيشاً رغداً » .

فقال عبد الرحمن بن خنيس وهو حدث : والله لوددت أن هذا الملطاط [2] لك – يعني ما كان لكسرى على جانب الفرات الذي يلي الكوفة .

---

(١) نشاستج : ضيعة بالكوفة كانت لطلحة بن عبيدالله التميمي . احد العشرة المبشرين بالجنة وكانت عظيمة الدخل اشتراها من اهل الكوفة المقيمين بالحجاز بمال كان له بخيبر وعمرها فعظم دخلها . قال الواقدي اول من أقطع بالعراق عثمان بن عفان رضي الله عنه قطائع مما كان من صوافي آل كسرى ومما جلا عنه أهله فقطع لطلحة بن عبيد الله النشاستج . وقيل بل اعطاه اياها عوضا عن مال كان له بحضرموت .

(٢) قال ابن النجار في كتاب الكوفة : وكان يقال لظهر الكوفة اللسان وما ولي الفرات منه الملطاط .

قالوا : فض الله فاك . والله لقد هممنا بك . فقال خنيس : غلام فلا تجاوزوه فقالوا يتمنى له من سوادنا ؟ قال ويتمنى لكم أضعافه . قالوا : لا يتمنى لنا ولا له قال : ما هذا بكم ؟ قالوا : أنت والله أمرته بها .

فثار إليه الأشتر وابن ذي الحبكة وجندب وصعصعة وابن الكواء وكميل وعمير بن ضابىء فأخذوه . فذهب أبوه ليمنع عنه فضربوهما حتى غشي عليهما وجعل سعد يناشدهم ويأبون حتى قضوا منهما وطراً

فسمعت بذلك بنو أسد فجاءوا وفيهم طليحة فأحاطوا بالقصر وركبت القبائل فعادوا بسعيد فخرج سعيد إلى الناس فقال: أيها الناس. قوم تنازعوا وتهاووا وقد رزق الله العافية . ثم قعدوا وعادوا في حديثهم وتراجعوا . وأفاق الرجلان فقال : أبكما حياة ؟ قالا قتلتنا غاشيتك (أي الذين يترددون عليك) قال لا يغشوني والله أبداً فاحفظا علي ألسنتكما ولا تجرئا علي الناس ففعلا . [1]

ولما انقطع أولئك النفر من ذلك ، قعدوا في بيوتهم وأقبلوا على الإذاعة حتى لامه أهل الكوفة في أمرهم . فقال هذا أميركم وقد نهاني أن أحرك شيئاً فمن أراد أن يحرك شيئاً فليحركه ، إن هؤلاء النفر لما قعدوا في بيوتهم تكلموا في حق الخليفة عثمان وشتموه .

وقيل بل كان السبب في ذلك أنه كان يسمر (يتحدث ليلاً) عند سعيد بن العاص وجوه أهل الكوفة منهم مالك بن كعب والأسود بن يزيد وعلقمة بن قيس ومالك الأشتر وغيرهم . فقال سعيد إنما هذا السواد بستان قريش فقال الأشتر : أتزعم أن السواد الذي أفاءه الله علينا بأسيافنا بستان لك ولقومك وتكلم القوم معه . فقال عبد الرحمن

---

(١) راجع ابن الأثير ، الجزء الثالث ص ٧٣ .

الأسدي — وكان على شرطة سعيد — : أتردون على الأمير مقالتــه ؟ وأغلظ عليهم . فقال الأشتر من ههنا ؟ لا يفوتنكم الرجل فوثبــوا عليه فوطأوه وطأً شديداً حتى غشي عليه . ثم جروه برجله فنضح بماء فأفاق . فقال قتلني من انتخبت . فقال والله لا يسمر عندي أحد أبداً فجعلوا يجلسون في مجالسهم يشتمون عثمان وسعيداً ، واجتمع إليهــم الناس حتى كثروا فكتب سعيد وأشراف أهل الكوفة إلى عثمـــان في إخراجهم .

ومن هنا يتضح أن الفتنة قد بلغت عندئذ حدّاً عظيماً في الكوفــة فضعف مركز الوالي ، ولم يقدر أن يؤدبهــم ، حتى اجترأوا أن يضربوا من رد عليهم ضرباً مبرحاً من غير أن يستطيع أن يبدي حراكاً ولما منع الإجتماع أخذوا يشتمونه ويشتمون الخليفة .

كتب أشراف أهل الكوفة إلى عثمان في إخراجهم فكتب : إذا اجتمع ملؤكم على ذلك فألحقوهم بمعاوية . وكتب عثمان إلى معاوية : « إن أهل الكوفة قد أخرجوا إليك نفراً خلقوا للفتنة فرعهم وقم عليهم فإن آنست منهم رشداً فاقبل منهم ، وإن أعيوك فاردد عليهم » .

فلما قدموا على معاوية رحّب بهم وأنزلهم كنيســة تسمى « مريم » وأجرى عليهم بأمر عثمان ما كان يجري عليهــم بالعراق وجعل يتغدى ويتعشى معهم فقال لهم يوماً :

« إنكم قوم مــن العرب لكم أسنان وألسنة وقد أدركــتم بالإسلام شرفاً وغلبتم الأمم وحويتم مراتبهم ومواريثهم . وقــد بلغني أنكم نقمتم قريشاً وإن قريشاً لو لم تكن عدتم أذلة كما كنتم إن أئمتكم لكم إلى اليوم جنة فلا تسدوا عن جنتكم . وإن أئمتكم اليوم يصبرون لكم عــلى الجور ويحتملون منكم المئونة . والله لتنتهن أو ليبتلينكم الله بمن يسومكم ثم لا يحمدكم على الصبر ،

ثم تكونون شركاءهم فيما جررتم على الرعيّة في حياتكم وبعد موتكم » .

فقال رجل من القوم وهو صعصعة :

« أما ما ذكرت من قريش ، فإنها لم تكن أكثر العرب ولا أمنعها في الجاهلية فتخوفنا . وأما ما ذكرت من الجنة فإن الجنة إذا اختُرقت خلُص إلينا » .

فقال معاوية : « عرفتكم الآن . علمت أن الذي أغراكم على هذا قلة العقول ، وأنت خطيب القوم ولا أرى لك عقلاً ، أعظم عليك أمر الإسلام ، وأذكرك به وتذكرني الجاهلية ، وقد وعظتك ، وتزعم لما يجنك أنه يخترق إليك ولا ينسب ما يخترق إلى الجنة . اخزى الله أقواماً أعظموا أمركم ورفعوا إلى خليفتكم إفقهوا ولا أظنكم تفقهون . إن قريشاً لم تعز في جاهلية ولا إسلام إلا بالله عز وجل ، لم تكن بأكثر العرب ولا أشدهم ، ولكنهم كانوا أكرمهم أحساباً ، ومحضهم أنساباً وأعظمهم أخطاراً وأكملهم مروءة ، ولم يمتنعوا في الجاهلية والناس يأكل بعضهم بعضاً إلا بالله الذي لا يُستذل من أعز ولا يوضع من رفع ، فبوأهم حرَماً آمناً يُتخطف الناس من حولهم . هل تعرفون عرباً أو عجماً أو سوداً أو حمراً إلا قد أصابهم الدهر في بلدهم وحُرمتهم بدولة إلا ما كان من قريش فإنه لم يُردِهم أحد من الناس بكيد إلا جعل الله خده الأسفل حتى أراد الله أن يتنقذ من أكرم واتبع دينه من هوان الدنيا وسوء مرد الآخرة ، فارتضى لذلك خير خلقه ، ثم ارتضى له أصحاباً فكان خيارهم قريشاً ، ثم بُني هذا الملك عليهم وجعل هذه الخلافة فيهم . ولا يصلح ذلك إلا عليهم ، فكان الله يحوطهم في الجاهلية وهم على كفرهم بالله . أفتراه لا

يحوطهم وهم على دينه ، وقد حاطهم في الجاهلية من الملوك الذين كانوا يدينونكم . أف لك ولأصحابك . ولو أن متكلماً غيرك تكلم ، ولكنك ابتدأت فأما أنت يا صعصعة فإن قريتك شر قرى عربية وأنتنها نبتاً وأعمقها وادياً وأعرفها بالشر وألأمها جيراناً . لم يسكنها شريف قط ولا وضيع إلا سُبّ بها وكانت عليه هُجْنَة [1] ثم كانوا أقبح العرب ألقاباً وألأمهم أصهاراً نُزَّاع الأمم وأنتم جيران الخط وفَعَلَة فارس حتى أصابتكم دعوة النبي صلى الله عليه وسلم ونكبتك دعوته وأنت نزيع شطير في عمان لم تسكن البحرين فتشركهم في دعوة النبي صلى الله عليه وسلم . فأنت شر قومك حتى إذا أبرزك الإسلام وخلطك بالناس وحملك على الأمم التي كانت عليك ، أقبلت تبغي دين الله عِوَجاً وتنزع إلى اللامة والذلة ولا يضع ذلك قريشاً ، ولن يضرهم ولن يمنعهم من تأدية ما عليهم . إن الشيطان عنكم غير غافل . قد عرفكم بالشر من بين أمتكم فأغرى بكم الناس وهو صارعكم ، لقد علم أنه لا يستطيع أن يرد بكم قضاء قضاه الله ولا أمراً أراده الله ولا تدركون بالشر أمراً إلا فتح الله عليكم شراً منه وأخزى » .

أرسل هؤلاء النفر الذين أحدثوا الشغب واللغط في الكوفة وعابوا على سعيد بن العاص وعثمان إلى معاوية بالشام . وفي نظرنا أن سبب هذه الفتنة كما أورده الطبري وابن الأثير تافه لا يدعو إلى كل ما حدث .. فقد ذكر أن عبد الرحمن بن خنيس وهو شاب قال (والله لوددتُ أن هذا الملطاط لك) يعني لسعيد أي ما كان

(١) الهجنة من الكلام ما يلزمك منه العيب ، تقول : « لا تفعل كذا فيكون عليك هجنة » .

لكسرى على جانب الفرات . فهذا الذي أثار ثائرتهم . شاب يتمنى أن تكون لسعيد بن العاص هذه الناحية من الفرات حتى يجود بمثل ما كان يجود به طلحة بن عبيدالله . وقد كان سعيد كما ذكرنا في ترجمته كريماً يقيم الولائم ، ويتصدق على المصلين . غاظ هؤلاء القوم الذين كانوا يحضرون مجلس سعيد ، وكان يخصهم بسمره أن يتمنى هذا الشاب ذلك . ولو أنه مجرد تمنٍ ومع هذا تعدوا عليه وضربوه وضربوا أباه . وقد توسل إليهم الوالي بجلالة قدره أن يتركوهما فلم يفد فأشبعوهما ضرباً . وكل ما قدر عليه سعيد أنه منع أن يتسامروا عنده بعد ذلك .

وذُكر سبب غير ذلك وهو قول سعيد : (إنما هذا السواد بستان قريش) فأغلظوا عليه القول فغضب صاحب شرطته [1] ولامهم على ما كان منهم فأوسعوه ضرباً حتى غشي عليه . فلابد أن هؤلاء الذين قربهم سعيد كانوا يحقدون عليه ويتحينون الفرص للإنتقام منه لكنه حسب حسابهم ، ولم يعاقبهم بنفسه على تهورهم واعتدائهم ومخالفتهم أمره خشية اتساع الخرق واشتداد الفتنة ، فكتب إلى الخليفة في شأنهم وفوّض إليه الأمر . فلما ذهبوا إلى معاوية وهو كما نعلم قوي حكومته ماهر في سياسته وجدوا أنفسهم بمعزل عن أعوانهم فأراد أن يكبح جماحهم ويوقفهم عند حدهم ويظهر لهم حقيقة أمرهم وماضيهم وحاضرهم بخطبته البليغة التي نشرناها . فوصفهم بقلة العقول وحقر من اتبعهم وعظمهم لأنهم لا يستحقون التعظيم ، وذلك فضل قريش في الجاهلية والإسلام على سائر القبائل العربية وفضل الإسلام عليهم ، ثم وجه الخطاب إلى صعصعة فقال إن قريته شر القرى إلى آخر ما قال حتى

(١) هو عبد الرحمن الأسدي .

أفرغ مـــا في جعبته وأروى غـُلته من غير خوف ولا وجل ، ثم بالغ في الإحتقار بهم فإنه قام بعد أن ألقى خطبته وتركهم فتقاصرت إليهم أنفسهم . فلما كان بعد ذلك أتاهم فقال : « إني أذنت لكم فاذهبوا حيث شئتم لا ينفع الله بكم أحداً أبداً ولا يضره . ولا أنتم برجال منفعة ولا مضرة ، فإن أردتم النجاة فالزموا جماعتكـــم ولا يبطرنكم الإنعام ، فإن البطر لا يعتري الخيار إذهبوا حيث شئتم فسأكتب إلى أمير المؤمنين فيكم » .

فلما خرجوا دعاهم وقال لهم :

« إني معيد عليكم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كـــان معصوماً فولاني وأدخلني في أمره ، ثم استخلف أبو بكر فولاني . ثم استخلف عمر فولاني . ثم استخلف عثمان فولاني . فلم يولني أحد إلا وهو عني راض » .

. وإنما طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم للأعمال أهل الجزاء من المسلمين والغنى ، وأن الله ذو سطوات ونقمات يمكر بمن مكر به فلا تتعرضوا للأمر وأنتم تعلمون من أنفسكم غير ما تظهرون فإن الله غير تارككم حتى يختبركم ويبدي للناس سرائركم وقد قال عز وجل : (الٓمٓ أَحَسِبَ النَّاسُ أن يُتْرَكُوا أن يَقُولُـــوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)[1].

وكتب معاوية إلى عثمان :

«إنه قدم عليّ أقوام ليست لهم عقول ولا أديان ، أضجرهم العدل ، لا يريدون الله بشيء ولا يتكلمون بحجة . إنما همهـــم

---

(١) سورة العنكبوت آية ١ ــ ٢ .

الفتنة وأموال أهل الذمة والله مبتليهم ومختبرهم ، ثم فاضحهم وليسوا بالذين ينكون أحداً إلا مع غيرهم فإنه سعيد ومن قبله عنهم فإنهم ليسوا الأكثر من شغب أو نكير » .

وخرج القوم من دمشق فقالوا : لا ترجعوا إلى الكوفة فإنهم يشمتون بكم وميلوا بنا إلى الجزيرة ودعوا العراق والشام فأووا إلى الجزيرة وسمع بهم عبد الرحمن بن خالد بن الوليد وكان معاوية قد ولاه حمص وولى عامل الجزيرة حرّان والرّقة فدعا بهم فقال : « يا آلة الشيطان لا مرحباً بكم ولا أهلاً قد رجع الشيطان محسوراً وأنتم بعدُ نِشاط ، خسر الله عبد الرحمن إن لم يؤدبكم حتى يحسركم يا معشر من لا أدري أعرب أم عجم لكي لا تقولوا لي ما يبلغني أنكم تقولون لمعاوية : أنا ابن خالد بن الوليد . أنا ابن من عجمته العاجمات . أنا ابن فاقىء الردة . والله لئن بلغني يا صعصعة بن ذُل أن أحداً ممن معي دق أنفك ، ثم أمصّك لأطيرن بك طَيْرة بعيدة المهوى » .

فأقامهم أشهراً كلما ركب أمشاهم ، فإذا مر به صعصعة قال « يا ابن الحطيئة : أعلمت أن من لم يُصلحه الخير أصلحه الشر . مالك لا تقول كما كان يبلغني أنك تقول لسعيد ومعاوية ! »

فيقولون نتوب إلى الله أقلنا أقالك الله . فما زالوا به حتى قال : تاب الله عليكم وسرح الأشتر إلى عثمان وقال لهم : ما شئتم إن شئتم فاخرجوا ، وإن شئتم فأقيموا .

وخرج الأشتر فأتى عثمان بالتوبة والندم والنزوع عنه ، وعن أصحابه فقال : سلمكم الله . وقدم سعيد بن العاص فقال عثمان للأشتر : أحلل حيث شئت فقال مع عبد الرحمن بن خالد وذكر من فضله فقال : ذلك إليكم فرجع إلى عبد الرحمن .

قد كان عبد الرحمن بن خالد أشد عليهم من معاوية ، وقد تابوا على يديه .

وفي الطبري رواية أخرى ، وهي أن معاوية بعد أن ألقى عليهم الخطبة السابقة عاد وقال لهم :

« إني والله ما آمركم بشيء إلا قد بدأت فيه بنفسي وأهل بيتي وخاصتي وقد عرفت قريش أن أبا سفيان كان أكرمها وابن أكرمها ، إلا ما جعل الله لنبيه نبي الرحمة صلى الله عليه وسلم . فإن الله انتخبه وأكرمه فلم يخلق في أحد من الأخلاق الصالحة شيئاً إلا أصفاه الله بأكرمها وأحسنها . ولم يخلق من الأخلاق السيئة شيئاً في أحد إلا أكرمه الله عنها ونزهه . وإني لا أظن أن أبا سفيان لو ولد الناس لم يلد إلا حازماً » .

وهنا ترى أن معاوية أطرى نفسه فقال صعصعة :

« كذبت وقد ولدهم خير من أبي سفيان ، من خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه ، وأمر الملائكة فسجدوا له فكان فيهم البرّ والفاجر والأحمق والكيّس » .

فخرج معاوية تلك الليلة من عندهم ، ثم أتاهم القابلة فتحدث عندهم طويلاً ثم قال :

« أيها القوم ردوا عليّ خيراً ، أو اسكتوا ، وتفكروا وانظروا فيما ينفعكم وينفع أهليكم ، وينفع عشائركم ، وينفع جماعة المسلمين فاطلبوه تعيشوا ونعش بكم »

فقال صعصعة : « لست بأهل ذلك ولا كرامة لك أن تطاع في معصية الله » .

فقال معاوية : « أو ليس ما ابتدأتكم به أن أمرتكم بتقوى الله وطاعته وطاعة نبيه صلى الله عليه وسلم أن تعتصموا بحبله جميعاً ولا تفرقوا .

قالوا : « بل أمرت بالفرقة وخلاف ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم » .

قال : « فإني آمركم الآن إن كنتُ فعلتُ فأتوب إلى الله وآمركم بتقواه وطاعته وطاعة نبيه صلى الله عليه وسلم ولزوم الجماعة وكراهة الفرقة ، وأن توقروا أئمتكم وتدلوهم على كل حسن ما قدرتم وتعظوهم في لين ولطف في شيء إن كان منهم » .

فقال صعصعة : « فإنا نأمرك أن تعتزل عملك ، فإن في المسلمين مَن هو أحق به منك » .

فقال : « مَن هو ؟ » .

قال : « مَن كان أبوه أحسن قَدماً من أبيك وهو بنفسه أحسن قدماً منك في الإسلام » .

فقال معاوية : « والله إن لي في الإسلام قدماً ولغَيري كان أحسن قدماً مني ولكنه ليس في زماني أحد أقوى على ما أنا فيه مني . ولقد رأى ذلك عمر بن الخطاب . فلو كان غيري أقوى مني لم يكن لي عند عمر هوادة ولا لغيري . ولم أحدث من الحدث ما ينبغي لي أن أعتزل عملي . ولو رأى ذلك أمير المؤمنين وجماعة المسلمين لكتب إليّ بخط يده فاعتزلت عمله ، ولو قضى الله أن يفعل ذلك لرجوتُ أن لا يعزم له على ذلك إلا وهو خير . فمهلاً فإن في ذلك وأشباهه ما يتمنى الشيطان ويأمر . ولعمري لو كانت الأمور تقضي على رأيكم وأمانيكم

ما استقامت الأمور لأهل الإسلام يوماً ولا ليلة . ولكن الله يقضيها ويدبرها وهو بالغ أمره . فعاودوا الخير وقولوه » .

فقالوا : « لست لذلك أهلاً »....

فقال : « أما والله إن لله لسطوات ونقمات ، وإني لخائف عليكم أن تتابعوا في مطاوعة الشيطان حتى تحلكم مطاوعة الشيطان ومعصية الرحمن دار الهوان من نقم الله في عاجل الأمر والخزي الدائم في الآجل » .

فوثبوا عليه فأخذوا برأسه ولحيته فقال :

« مه إن هذه ليست بأرض الكوفة . والله لو رأى أهل الشام ما صنعتم بي وأنا إمامهم ما ملكت أن أنهاهم عنكم حتى يقتلوكم . فلعمري إن صنيعكم ليشبه بعضه بعضاً » ثم قام من عندهم فقال : « والله لا أدخل عليكم ما بقيت » .

ثم كتب إلى عثمان :

« بسم الله الرحمن الرحيم . لعبدالله عثمان أمير المؤمنين من معاوية بن أبي سفيان . أما بعد يا أمير المؤمنين فإنك بعثت إلي أقواماً يتكلمون بألسنة الشياطين وما يملون عليهم ويأتون الناس زعموا من قبل القرآن فيشبهون على الناس وليس كل الناس يعلم ما يريدون وإنما يريدون فرقة ويقربون فتنة قد أثقلهم الإسلام وأضجرهم وتمكنت رقي الشيطان من قلوبهم . فقد أفسدوا كثيراً من الناس ممن كانوا بين ظهرانيهم من أهل الكوفة ولست آمن إن أقاموا وسط أهل الشام أن يغروهم بسحرهم وفجورهم فارددهم إلى مصرهم فلتكن دارهم في مصرهم الذي جم فيه نفاقهم والسلام » .

فكتب إليه عثمان يأمره أن يردهم إلى سعيد بن العاص بالكوفة فردهم إليه . فلم يكونوا إلا أطلق ألسنة منهم حين رجعوا . وكتب سعيد إلى عثمان يضج منهم . فكتب عثمان إلى سعيد أن سيرهم إلى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، وكان أميراً على حمص . وكتب إلى الأشتر وأصحابه :

« أما بعد فإني قد سيرتكم إلى حمص ، فإذا أتاكم كتابي هذا فاخرجوا إليها فإنكم لستم تألون الإسلام وأهله شرّاً والسلام » .

فلما قرأ الأشتر الكتاب قال : « اللهم أسوأنا نظراً للرعية وأعملنا فيهم بالمعصية فعجل له النقمة » فكتب بذلك سعيد إلى عثمان . وسار الأشتر وأصحابه إلى حمص فأنزلهم عبد الرحمن بن خالد الساحل وأجرى عليهم رزقاً .

لقد تطاول هؤلاء على معاوية وأمروه أن يتخلى عن مركزه لأن من المسلمين من هو أصلح منه ، كما تطاولوا على سعيد من قبل وطعنوا على عثمان . وهم وإن كانوا من أشراف أهل العراق إلا أنهم أهل فتنة . وقد تسامح معهم معاوية كما تسامح معهم سعيد . ومن هذا يتبين مقدار الحرية التي كانت ممنوحة للرعية في ذلك الوقت فلم يؤخذوا ويحاكموا على أقوالهم ومطاعنهم إنما اكتفى بتسييرهم من بلد إلى آخر وأجرى عليهم عبد الرحمن بن خالد رزقاً .

خلو الكوفة من الرؤساء (١)

أذن معاوية لأهل الفتنة الذين أمر عثمان بتسييرهم إلى الشام أن يذهبوا أنى شاءوا فتحدثوا فيما بينهم فقالوا إن العراق والشام ليسا لنا

(١) راجع الطبري ، الجزء الخامس ص ٨٩ — ٩٠ .

بدار فعليكم بالجزيرة فأتوها اختياراً فغدا عليهم عبد الرحمن بن خالد فسامهم الشدة كما ذكرنا وتابعوه وتابوا وسرح الأشتر إلى عثمان فدعا به وقال : اذهب حيث شئت فقال : أرجع إلى عبد الرحمن فرجع .

ووفد سعيد بن العاص إلى عثمان سنة إحدى عشرة من خلافة عثمان . وكان سعيد قد ولي قبل مخرجه إلى عثمان بسنة وبعض أخرى :

١ ــ الأشعث بن قيس : أذربيجان

٢ ــ سعيد بن قيس : الري .

٣ ــ النُسَير العجلي : همذان .

٤ ــ السائب بن الأقرع : أصبهان .

٥ ــ مالك بن حبيب : ماه .

٦ ــ حكيم بن سلام الحزامي : الموصل .

٧ ــ جرير بن عبدالله : قرقيسيا .

٨ ــ سلمان بن ربيعة : الباب .

٩ ــ عتيبة بن النهاس : حُلوان .

١٠ ــ القعقاع بن عمرو : جعله على الحرب .

هؤلاء عشرة من الكبار أرسلوا إلى جهات متعددة . ولو أنهم بقوا بالكوفة لكان لهم تأثير في منع ما عساه أن يحدث من الشغب والفتنة ، ولكن سعيد بن العاص لم يكن يتوقع انتشار الفتنة فأرسلهم إلى هذه المراكز لأغراض حربية . وبذلك خلت الكوفة من الرؤساء.

عزل سعيد بن العاص (١)
وتولية ابي موسى الأشعري

خرج يزيد بن قيس وهو يريد خلع عثمان ، ومعه الذين كان يكاتبهم ابن السوداء [٢] فقال القعقاع بن عمرو [٣] إنما نستعفي من سعيد فقال يزيد أما هذا فنعم وكاتب المسيرين [٤] ليقدموا عليه . فسار الأشتر والذين عند عبد الرحمن بن خالد فسبقهم الأشتر فلم يفجأ الناس إلا والأشتر على باب المسجد مسجد الكوفة – يقول جئتكم من عند أمير المؤمنين عثمان وتركت سعيداً يريد على نقصان نسائكم على مائة درهم ورد أولي البلاء منكم إلى ألفين ويزعم أن فيئكم بستان قريش فاستخف الناس . وجعل أهل الرأي ينهونهم فلا يسمع منهم .

فخرج يزيد وأمر منادياً ينادي : من شاء أن يلحق بيزيد لرد سعيد فليفعل فبقي أشرافهم وحلماؤهم في المسجد وعمرو بن حريث يومئذ خليفة سعيد [٥] فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وأمرهم بالإستماع والطاعة . فقال له القعقاع « أترد السيل عن أدراجه ؟

---

(١) راجع مروج الذهب للمسعودي ، الجزء الثاني ص ٣٤٦ .

(٢) هو عبدالله بن سبأ وكان يهوديا من جنوب بلاد العرب فأسلم واستفسد الناس على عثمان وبث دعايته في الآفاق وتنقل في الحجاز والبصرة والكوفة والشام ومصر يدعو الناس للثورة .

(٣) للقعقاع اثر عظيم في قتال الفرس في القادسية وغيرها وكان من اشجع الناس واعظمهم بلاء . قال فيه ابو بكر الصديق « صوت القعقاع في الجيش خير من الف رجل » .

(٤) الذين ذكرنا ان عثمان سيرهم الى معاوية ومنهم صعصعة والاشتر .

(٥) عمرو بن حريث بن عمرو بن عثمان بن عبدالله بن عمرو بن مخزوم القرشي ، يكنى أبا سعيد ورأى النبي صلى الله عليه وسلم . وقيل أنه أول قرشي اتخذ بالكوفة دارا وكان من اغنى أهل الكوفة وولي لبني أمية بالكوفة .

هيهات لا والله لا يسكن الغوغاء إلا المشرفية ويوشك أن تنتضي ويعجون عجيج العيدان ويتمنون ما هم فيه اليوم فلا يرده الله عليهم أبداً فاصبر » قال أصبر وتحول إلى منزله .

وخرج يزيد بن قيس فنزل الجرّعة وهي قريب من القادسية ومعه الأشتر فوصل إليهم سعيد بن العاص . فقالوا لا حاجة لنا بك . قال إنما يكفيكم أن تبعثوا إلى أمير المؤمنين رجلاً وإليّ رجلاً . وهل يخرج الألف لهم عقول إلى رجل واحد .

وجاء في الطبري نص الخطبة التي ألقاها عليهم عمرو بن حريث نائب سعيد وهي كما يلي :

« اذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً ، بعد أن كنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها . فلا تعودوا في شر قد استنقذكم منه الله عز وجل . أبعد الإسلام وهديه وسنته لا تعرفون حقاً وتصيبون بابه ! » .

ولما انصرف عنهم سعيد أحسوا بمولى له على بعير قد حسر . فقال والله ما كان ينبغي لسعيد أن يرجع فقتله الأشتر ، ومضى سعيد حتى قدم على عثمان فأخبره بما فعلوا وأنهم يريدون البدل . وأنهم يختارون أبا موسى . قال : « أثبتنا أبا موسى عليهم ووالله لا نجعل لأحد عذراً ولا نترك لهم حجة ولنصبرن كما أمرنا حتى نبلغ ما يريدون » .

وقد أراد عثمان بخلع سعيد وتنصيب أبي موسى أن تهدأ الفتنة ولا يكون لأحد بعد ذلك عذر أو شكوى . وكتب إليهم :

« أما بعد فقد أمّرت عليكم من اخترتم وأعفيتكم من سعيد ووالله لأقرضنكم عرضي ولأبذلن لكم صبري ولأستصلحنكم بجهدي

فلا تدعوا شيئاً أحببتموه لا يُعصى الله فيه إلا سألتموه ، ولا شيئاً كرهتموه لا يعصى الله فيه إلا استعفيتم منه . أنزل فيه عندما أحببتم حتى لا يكون لكم على الله حجة كما أمرنا حتى تبلغوا ما تريدون » .

ورجع من الأمراء من قرب عمله من الكوفة فرجع جرير من قرقيسياء . وعتيبة من حُلوان .

وقامَ أبو موسى الأشعري فتكلم بالكوفة فقال :

« أيها الناس لا تنفروا في مثل هذا ولا تعودوا لمثله . ألزموا جماعتكم الطاعة وإياكم والعجلة » .

فأجابوا إلى ذلك . وقالوا فصلّ بنا ، قال لا . إلا على السمع والطاعة لعثمان بن عفان . قالوا السمع والطاعة لعثمان .

رسول اهل الكوفة الى عثمان

اجتمع ناس من المسلمين فتذاكروا أعمال عثمان وما صنع فاجتمع رأيهم على أن يبعثوا إليه رجلاً يكلمه ويخبره بأحداثه فأرسلوا إليه عامر بن عبدالله [1] التميمي وهو الذي يدعى عامر بن عبد قيس

---

(١) عامر بن عبدالله التميمي والبصري يعد من الزهاد اليمانية وهو تابعي . قيل ادرك الجاهلية وكان أعبد اهل زمانه واشدهم اجتهادا وسعي به إلى عثمان بن عفان رضى الله عنه أنه لا يأكل اللحم ولا ينكح النساء وأنه يطعن على الأئمة ولا يشهد الجمعة فامره ان يسير الى الشام فسار فقدم على معاوية فوافقه وعنده ثريد فأكل معه اكلا غريبا فعلم ان الرجل مكذوب عليه . فقال يا هذا اتدري فيم اخرجت) قال : لا . قال بلغ الخليفة انك لا تاكل اللحم وقد رايتك تاكله ، وانك لا ترى التزويج ولا تشهد الجمعة . قال: اما الجمعة فإني اشهدها في مؤخرة المسجد ثم ارجع في اوائل الناس.

فدخل عليه فقال : إن ناساً من المسلمين اجتمعوا فنظروا في أعمـالك فوجدوك قد ركبت أموراً عظاماً فاتق الله عز وجل وتب إليه وانزع عنها .

فقال عثمان : انظروا إلى هذا فإن الناس يزعمون أنه قارىء ثم هو يجيء فيكلمني في المحقرات فوالله ما يدري أين الله . قال عامر : أنا لا أدري أين الله ؟ قال : نعم ، والله ما تدري أين الله . قال عامر : بلى والله إني لأدري أن الله بالمرصاد لك .

وأما اللحم فقد رايت قصابا يجر الشاة ليذبحها وهو يقـول النفاق حتى ذبحها ولم يذكر اسم الله . فاذا اشتهيت اللحم ذبحت الشاة واكلتها . وأما التزويج فقد خرجت وانا يخطب علي . قال فترجع الى بلدك ؟ قال: لا أرجع الى بلد استحل اهله مني ما استحلوا فكان يقيم في السواحل فكان يكثر معاوية ان يقول له حاجتك ؟ فقال يوما حاجتي أن ترد علي حر البصرة فإن ببلادكم لا يشتد علي الصوم . وكان عامر اذا خرج الى الجهاد وقف يتوسم الناس فاذا راى رفقة قـال اريد ان اصحبكـم على ثلاث خـلال وقف يتوسم الناس فاذا راى رفقه قال اريد أن اصحبكم على ثلاث خلال فاذا قالوا ما هي ؟ قال : اكون لكـم خادما لا ينازعني احد الخدمة واكون مؤذنا وانفق عليكم بقدر طاقتي . فاذا قالوا نعم صحبهم فاذا نازعه احد من ذلك شيئا فارقهم . وكان ورده كل يوم الف ركعة ويصلي الليل اجمع . وقيل لعامر اتحدث نفسك بشيء في الصلاة ؟ قال نعم احـدث نفسـي بالوقوف بين يدي الله عز وجل ومنصرفي من بين يديه . وقال عامـر : أحببت الله تعالى حبا سهل على كل مصيبة ورضاني بكل قضية فما أبالي مع حبي اياه ما اصبحت وما امسيـت . وكان اذا راى الناس في حوائجهم يقول : « يا رب غدا الغادون في حوائجهم وغدوت إليك ، اسالك المغفرة» ولما نزل به الموت بكى وقال : « لمثل هذا المصرع فليعمل العاملون اللهم إني استغفرك من تقصيري وتفريطي اتوب اليك من جميع ذنوبي لا إله إلا أنت » وما زال يرددها حتى مات . وقيل أن قبره بالبيت المقدس .

عثمان يجمع أهل الرأي ليشاورهم في الأمر (١)

أرسل عثمان إلى معاوية بن أبي سفيان ، وإلى عبدالله بن سعد بن أبي سرح ، وإلى سعيد بن العاص ، وإلى عمرو بن العاص ، وإلى عبدالله بن عامر فجمعهم ليشاورهم في أمره وما طلب إليه وما بلغه عنهم فلما اجتمعوا عنده قال لهم :

« إن لكل امرىء وزراء ونصحاء ، وإنكم وزرائي ونصحائي ، وأهل ثقتي ، وقد صنع الناس ما قد رأيتم وطلبوا إليّ أن أعزل عمالي وأن أرجع عن جميع ما يكرهون إلى ما يحبون فاجتهدوا رأيكم وأشيروا عليّ » .

فقال له عبدالله بن عامر : « رأيي لك يا أمير المؤمنين أن تأمرهم بجهاد يشغلهم عنك وأن تجمهرهم في المغازي حتى يذلوا لك فلا يكون همة أحدهم إلا نفسه ، وما هو فيه من دَبَرة دابته وقمل فروه » .

فقال عثمان : (إن هذا الرأي لولا ما فيه) خشي عثمان أن ينفذ رأي ابن عامر الذي يقضي بقطع دابر قادة الفتنة للخلاص من شرهم ودسائسهم .

ثم أقبل عثمان على معاوية فقال : ما رأيك ؟

قال : « أرى لك يا أمير المؤمنين أن ترد عُمالك على الكفاية لما قِبَلهم وأنا ضامن لك قِبَلي » .

ثم أقبل على عبدالله بن سعد فقال : ما رأيك ؟

---

(١) راجع ابن الأثير ، الجزء الثالث ص ٧٣ .

قال : « أرى يا أمير المؤمنين أن الناس أهل طمع . فأعطهم من هذا المال تعطف عليك قلوبهم » .

ثم أقبل على عمرو بن العاص فقال له : ما رأيك ؟

قال : « أرى أنك قد ركبت الناس بما يكرهون فاعتزم أن تعدل ، فإن أبيت فاعتزم أن تعتزل ، فإن أبيت فاعتزم عزماً وامض قُدماً » .

فرأى عمرو أن عثمان لا يعدل فطلب إليه أن يعتزل أو يعدل ولا يتردد فقال عثمان :

« مالك قَمِلَ فروك . أهذا الجد منك ؟ » .

فسكت عمرو حتى إذا تفرقوا قال : « لا والله يا أمير المؤمنين لأنت أعز عليّ من ذلك . ولكني قد علمت أن سيبلغ الناس قول كل رجل منا فأردت أن يبلغهم قولي فيثقوا بي فأقود إليك خيراً أو أدفع عنك شراً » .

لكن كلام عمرو هذا من شأنه أن يزيد نار الفتنة والنقمة على عثمان اشتعالاً لأنه قال بصريح العبارة ـ فاعتزم أن تعدل . ومعنى هذا أن لا يعدل فكيف يستطيع عمرو بعد ذلك أن يقود إلى عثمان خيراً أو يدفع عنه شراً ؟ . ومعلوم أن عمراً كان ساخطاً على الخليفة ، لأنه عزله عن ولاية مصر بعد أن فتحها . ولما أحس عمرو بأنه كدّر عثمان بقوله أمام هؤلاء النفر أراد أن يسترضيه على حدة فقال ما قال .

رد عثمان بعد ذلك عماله على أعمالهم وأمرهم بالتضييق على من قبلهم وأمرهما بتجمير الناس في البعوث ، وعزم على تحريم أعطياتهم ليطيعوه ويحتاجوا إليه .

علي بن ابي طالب
يحادث عثمان في امر الفتنة

لما كانت سنة ٣٤ هـ كتب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بعضهم إلى بعض أن أقدموا فإن كنتم تريدون الجهاد فعندنا الجهاد وكثر الناس على عثمان ، ونالوا منه أقبح ما نيل من أحد ، وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يرون ويسمعون ليس فيهم أحد ينهي ، ولا يذب إلا زيد بن ثابت وأبو أسيد الساعدي ، وكعب بن مالك ، وحسان بن ثابت ، فاجتمع الناس وكلموا عليّ بن أبي طالب ، فدخل على عثمان فقال :

« الناس ورائي وقد كلموني فيك . والله ما أدري ما أقول لك . وما أعرف شيئاً تجهله ولا أدلك على أمر لا تعرفه . إنك لتعلم ما نعلم . ما سبقناك إلى شيء فنخبرك عنه ولا خلونا بشيء فنبلغكه وما خُصصنا بأمر دونك وقد رأيت وسمعت وصحبت رسول الله صلى الله عليه وسلم ونلت صِهره وما ابن أبي قحافة بأولى بعمل الحق منك ولا ابن الخطاب بأولى بشيء من الخير منك . وأنك أقرب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رَحِماً . ولقد نلت من صهر رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لم ينالا . ولا سبقناك إلى شيء . فالله الله في نفسك فإنك والله ما تُبصَّر من عمىً ولا تُعَلَّم من جهل وإن الطريق لواضح بيّن وإن أعلام الدين لقائمة . تَعلَّم يا عثمان أن أفضل عباد الله عند الله إمام عادل هُدِي وهَدِى فأقام سنة معلومة وأمات بدعة متروكة . فوالله إن كلاً لبيّن وإن السنن لقائمة لها أعلام وإن البدع لقائمة لها أعلام ، وإن شر الناس عند الله إمام جائر ضَلّ وضُلّ به فأمات سُنة معلومة وأحيا بدعة متروكة . وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يؤتى

يوم القيامة بالإمام الجائر وليس معه نصير ولا عاذر فيلقى في جهنم فيدور فيها كما تدور الرحى ، ثم يرتطم في غمرة جهنم ، وإني أحذرك الله وأحذرك سطوته ونقماته فإن عذابه شديد أليم ، وأحذرك أن تكون إمام هذه الأمة المقتولَ ، فإنه يقال يقتل في هذه الأمة إمام فيفتح عليها القتل والقتال إلى يوم القيامة وتُلْبَس أمورها عليها ويتركهم شِيَعاً فلا يبصرون الحق لعلو الباطل يموجون فيها موجاً ويمرحون مَرَحاً » .

فقال عثمان : « قد والله علمت ليقولُنّ الذي قلتَ . أما والله لو كنت مكاني ما عنفتك ولا أسلمتك ولا عبتُ عليك ، ولا جئتُ منكراً أن وصلتُ رَحماً وسددتُ خلّة وآويت ضائعاً ووليتُ شبيهاً بمن كان عمر يولي [1] . أنشدك الله يا عليُّ هل تعلم أن المغيرة بن شُعبة ليس هناك ؟ قال نعم . قال فتعلم أن عمر ولاه ؟ قال نعم . قال فلم تلومني أن وليت ابن عامر في رَحمه وقرابته . قال عليُّ : سأخبرك ، إن عمر بن الخطاب كان كل من ولى فإنما يطأ على صماخه إن بلغه عنه حرف جلبه ثم بلغ به أقصى الغاية وأنت لا تفعل . ضعفت ورفقت على أقربائك قال عثمان هم أقرباؤك أيضاً . فقال علي لعمري إن رحمهم مني لقريبة ولكن الفضل في غيرها . قال عثمان هل تعلم أن عمر ولى معاوية خلافته كلها ؟ فقد وليته . فقال عليُّ : أنشدك الله هل تعلم أن معاوية كان أخوف من عمر من يَرْفأ غلام عمر منه . قال نعم . قال عليّ : فإن معاوية يقطع الأمور دونك وأنت تعلمها . فيقول للناس هذا أمر عثمان فيبلغك ولا تُغير على معاوية .

---

(١) راجع الطبري صفحة ٩٦ من الجزء الخامس .

ثم خرج علي من عند عثمان ، وخرج عثمان على أثره ، فجلس على المنبر فقال :

خطبة عثمان في المسجد

« أما بعد فإن لكل شيء آفة ، ولكل أمر عاهة ، وإن آفة هذه الأمة وعاهة هذه النعمة : عيابون طعانون يرونكم ما تحبون ويُسرون ما تكرهون يقولون لكم ويقولون ، أمثال النعام يتبعون أول ناعق . أحب مواردها إليها البعيد لا يشربون إلا نَغصاً ولا يَردون إلا عكراً ، لا يقوم لهم رائد وقد أعيتهم الأمور وتعذرت عليهم المكاسب . ألا فقد والله عبتم علي بما أقررتم لابن الخطاب بمثله ولكنه وطئكم برجله؟ وضربكم بيده وقمعكم بلسانه فدِنتم له على ما أحببتم أو كرهتم ، ولِنتُ لكم وأوطأت لكم كنفي وكففت يدي ولساني عنكم فاجترأتم عليّ . أما والله لأنا أعز نفراً وأقرب ناصراً وأكثر عدداً وأقمن إن قلتُ هلُمّ أُتيَ إليّ ، ولقد أعددت لكم أقرانكم وأفضلت عليكم فضولاً وكشرت لكم عن نابي . وأخرجتم مني خُلُقاً لم أكن أحسنه ومنطقاً لم أنطق به ، فكفوا عليكم ألسنتكم وطعنكم وعيبكم على ولاتكم ، فإني قد كففت عنكم مَن لو كان هو الذي يكلمكم لرضيتم منه بدون منطقي هذا ، ألا فما تفقدون من حقكم . والله ما قصرت في بلوغ ما كان يبلغ مَن كان قبلي . ومَن لم تكونوا تختلفون عليه فضلَ فضلٍ من مال . فمالي لا أصنع في الفضل ما أريد ، فلِمَ كنت إماماً » . [1]

فقام مروان بن الحكم فقال : إن شئتم حكمنا والله بيننا وبينكم السيف . نحن والله وأنتم كما قال الشاعر :

---

(١) راجع ابن الأثير في تاريخه الجزء الثالث ص ٧٤ .

فرشنا لكم أعراضنا فنبت بكم معارسكم تبنون في دمن الثرى

فقال عثمان : أسكت لا سُكّتّ . دعني وأصحابي . ما منطقاك في هذا ؟ ألم أتقدم إليك ألا تَنطق ؟ فسكت مروان ونزل عثمان .

قال عثمان لعليّ إنه عيّن من عيّنهم عمر بن الخطاب ، ومع ذلك لم يؤاخذه أحد فعيّن المغيرة ومعاوية ، فكان ردّ عليّ أن عمر كان لا يتسامح مع من ولّاه إذا ارتكب شيئاً ، وأن عثمان يعامل أقاربه بالرفق ولا يعاقبهم . هذا ملخص ما دار بينهما . أما الخطبة التي ألقاها عثمان فلم يكن لها تأثير في تهدئة الفتنة ، بل اشتد قوله على الناس وعظم وزاد تألبهم عليه . ويلاحظ أن مروان يتدلخل ويهدد الناس بالحرب بالرغم من أن عثمان كان قد أمره بلزوم الصمت .

كيف بدأ السخط على عثمان (١)
وكيف تدرجت الفتنة ؟

ذكرنا في كتابنا « عمر بن الخطاب » أن عمرو بن العاص هو الذي أشار عليه بفتح مصر فتردد ، ثم جهزه بجيش ، ثم صار يمده من آن لآخر حسب الضرورة إلى أن تمكن عمرو من غزو مصر وضمها إلى الخلافة العربية . فإليه يرجع الفضل في فتحها . وكان عمر رضي الله عنه يستبطىء عمراً في جباية الخراج ؟ ويستقل ما يجبيه منها ، وقد كاتبه في ذلك إلا أن عمراً لم يشأ إرهاق المصريين فوضع عنهم كثيراً من الضرائب التي أثقلت كواهلهم ، وكانت موضع شكواهم من الحكم الروماني : ومات عمر وعلى مصر عمرو بن العاص وعلى قضائها خارجة بن حذافة . فلما ولي عثمان

(١) كتاب عمر بن الخطاب للمؤلف .

أقرهما سنتين وقيل أكثر ، ثم عزل عمراً واستعمل عبدالله بن سعد بن أبي سرح أخا عثمان من الرضاعة ، فكان ذلك سبباً في سخط عمرو على عثمان فأخذ يطعن عليه سراً وعلانية . وهذا أمــر طبيعي . أولاً لأن عمراً كان يرى أنه صاحب الفضل في فتح مصر ، وأنه لم يرتكب وزراً يستحق عليه العزل [1] .

ثانياً لأن الذي خلفه هو عبدالله بن سعد وسيرته معلومة للصحابة فهو الذي ارتد مشركاً زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم أذاع أنه كان يصرّف رسول الله حيث أراد عند ما كان يملي عليه القــرآن فكان يملي عليه « عزيز حكيم » فيقول أو « عليم حكيم » فيقول نعم . كل صواب : فلما كان يوم فتح مكة أمر رسول الله صلى الله عليــه وسلم بقتله فتشفع له عثمان . تحدث الناس في سيرة الوالي الجديد على مصر واستاء كثير من هذا التعيين ووجد عمرو سلاحــاً للطعن على عثمان . وروى الواقدي أنه لما نزع عثمان عمرو بن العاص عن مصر غضب عمرو غضباً شديداً وحقد على عثمان . وقد أراد عثمان أن يظهر لعمرو أن عبدالله بن سعد جد واجتهد وحصّل من مصر أكثر مما كان يحصله عمرو . فلما بعث عبدالله بن سعد إلى عثمان بمال من مصر قال يا عمرو هل تعلم أن تلك اللقــاح درّت بعــدك ؟ فقال عمرو وإن فصالها هلكت .

لم ينقطع عمرو عن الطعن على عثمان ومع ذلك نرى عثمــان يستشيره في جملة من استشارهم في أمر الفتنة فأظهر له أنه لا يــزال

---

(1) قال الأستاذ واشنطون ايرفنج في كتابه « محمد وخلفاؤه » إن من اعظم الأخطاء التي ارتكبها عثمان عــزل عمرو بن العاص عن ولايــة مصر وتولية عبدالله بن سعد اخيه من الرضاعة مكانه .

ساخطاً عليه ودعاه إلى الاعتزال ورماه بالجور ، وهو الوحيد الذي دعاه إلى الإعتزال من بين من استشارهم إذ قال له « أرى أنك قد ركبت الناس بما يكرهون فاعتزم أن تعتزل ، فإن أبيت فاعتزم عزماً وامض قدماً » ولا عبرة بما قاله له بعد انصراف القوم « لا والله يا أمير المؤمنين لأنت أعزّ عليّ من ذلك الخ » .

وقد عاب على عثمان محمد بن أبي حذيفة بعد غزوة الصواري وقال : لقد تركنا خلفنا الجهاد : فيقول الرجل وأي جهاد ! فيقول عثمان بن عفان فعل كذا وكذا حتى أفسد على الناس فقدموا بلدهم . وقد أفسدهم وأظهروا من القول ما لم يكونوا ينطقون به واشترك مع محمد بن حذيفة في الطعن على عثمان محمد بن أبي بكر واستحلاّ دمه وقالا : استعمل عبدالله بن سعد ، رجلاً كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أباح دمه ونزل القرآن بكفره ، واستعمل سعيد بن العاص وعبدالله بن عامر وهو ابن خال عثمان فانتشرت هذه المطاعن في مصر وغيرها .

أما في الكوفة فإن عثمان عزل سعد بن أبي وقاص لما حدث بينه وبين ابن مسعود من المشادة التي تقدم ذكرها ، وكان ابن مسعود على بيت المال لكنه لم يعزله بل أقره وسعد بن أبي وقاص كما نعلم من سيرته أحد المبشرين بالجنة وأحد الستة الذين رشحهم عمر بن الخطاب للخلافة وأول من أراق دماً في سبيل الله وكان يقال له « فارس الإسلام » واستعمله عمر على الجيوش التي بعثها إلى بلاد الفرس وكان أمير الجيش الذى هزم الفرس بالقادسية وبجلولاء وفتح المدائن وولاه عمر العراق . هذا هو سعد بن أبي وقاص الذي عزله عثمان عن الكوفة فمن هو الذي ولاه خلفاً له ؟ لقد ولى الوليد بن عقبة أخا عثمان لأمه

وهو الذي نزل في حقه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾[1] .

نعم إن الوليد كان شاعراً شجاعاً ، وكان أحب إلى الناس وأرفقهم بهم لكنهم مع ذلك طعنوا عليه لقرابته من عثمان واتهموه بشرب الخمر فأقام عليه الخليفة الحد ، وعزله وولى سعيد بن العاص مكانه وهو أمويّ من أشراف قريش قتل أبوه العاص يوم بدر كافراً قتله علي ابن أبي طالب. لكن الفتنة لم تخمد بل اشتدت فتطاول عليه نفر من أشراف الكوفة وضربوا أحد أتباعه ضرباً مبرحاً فسيرهم إلى الشام بأمر عثمان وكان بينهم وبين معاوية ما كان مما ذكرناه في موضعه ، ولما عادوا أخيراً بثوا الفتنة وطلبوا عزل سعيد فأجاب عثمان لطلبهم لئلا يكون لهم حجة عليه وولى أبا موسى الأشعري كما أرادوا .

غير أن الفتنة كان قد استفحل خطبها واندلع لهيبها ، فكاتب أصحاب رسول الله بعضهم بعضاً وكلموا علياً رضي الله عنه وكان غير راضٍ عن تصرفات عثمان ومحاباته لأقاربه وبالطبع كان لعليّ أتباع يرون رأيه فدخل عليه وذكر له أنه يجل قدره لصحبته لرسول الله وما نال من صهره وذكره بحديث النبي صلى الله عليه وسلم في شأن الإمام الجائر ، لكن عثمان كان يرى أنه ولى من ولاهم عمر ومع ذلك لم يجرؤ أحد أن يعتب عليه فرد عليه عليّ أن عمر كان شديداً لا يتسامح مع أحد إذا هفا ، أو أخطأ ومعاوية يفعل ما يشاء باسم عثمان الذي ضعف ورقّ على أقاربه ، ثم صعد عثمان المنبر وخطب خطبته التي نشرناها فاشتد سخط الناس عليه لعدم تحوله عن خطته وانتحال المعاذير لنفسه وتهديدهم باستعمال الشدة معهم .

---

(١) سورة الحجرات آية ٦ .

وقد حدث في سنة ٣٠ هـ أن سقط خاتم رسول الله صلى الله عليه وسلم من إصبع عثمان في بئر أريس ، ثم ضاع فتشاءم المسلمون لضياع هذا الخاتم وقالوا إن عثمان لما مال عن سيرة من كان قبله كان أول ما عوقب به ذهاب خاتم رسول الله من يده . وهذا الحادث من سوء حظ عثمان وفي السنة نفسها قام أبو ذر الغفاري الصحابي المعروف بزهده ونسكه في وجه معاوية وعاب عليه جمع المال وقال « يا معشر الأغنياء واسوا الفقراء بشر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله بمكاوٍ من نار تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم » .

فلما ثار الفقراء على الأغنياء شكا الأغنياء إلى معاوية ما يلقون من الناس فخشي معاوية الفتنة وكتب إلى عثمان بما فعله أبو ذر فاستدعاه إلى المدينة فاختار أبو ذر الخروج إلى الربذة وأقام بها إلى أن مات . وادعى بعضهم أن عثمان نفاه وكان الذي حرض أبا ذر على القيام في وجه معاوية ابن السوداء الذي يدعى عبدالله بن سبأ .

عبدالله بن سبأ (١)
ودعايته ضد عثمان

كان عبدالله بن سبأ يهودياً من أهل صنعاء أمه سوداء . أسلم زمن عثمان ثم تنقل في بلدان المسلمين يحاول ضلالتهم ، فبدأ بالحجاز ، ثم البصرة ، ثم الكوفة ، ثم الشام فلم يقدر على ما يريد عند أحد من أهل الشام فأخرجوه حتى أتى مصر فقال لهم العجب ممن يصدق أن عيسى يرجع ويكذب أن محمداً يرجع فوضع لهم الرجعة – رجعة محمد رسول الله آخر الزمان – فقبلت منه (٢) ، ثم قال لهم بعد ذلك : إنه

(١) راجع الطبري ، الجزء الخامس ص ٩٨ .

(٢) واستشهد بقوله تعالى (إن الذي فرض عليك القرآن لرادك الى

لهم بعد ذلك : إنه كان لكل نبي وصي وعلي وصي محمد فمن أظلم ممن لم يُجز وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم قال لهم بعد ذلك إن عثمان أخذها بغير حق . وهذا وصي رسول الله صلى الله عليه وسلم . فانهضوا في هذا الأمر فحركوه وابدأوا بالطعن على أمرائكم واظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تستميلوا الناس وادعوهم إلى هذا الأمر . وبث دعاته وكاتب من استفسد في الأمصار وكاتبوه ودعوا في السر إلى ما عليه رأيهم وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وجعلوا يكتبون إلى الأمصار بكتب يضعونها في عيوب ولاتهم ويكاتبهم إخوانهم بمثل ذلك ويكتب أهل كل مصر منهم إلى مصر آخر بما يصنعون فيقرؤه أولئك في أمصارهم وهؤلاء في أمصارهم ، حتى تناولوا بذلك المدينة وأوسعوا الأرض إذاعة ، وهم يريدون غير ما يظهرون ويسرون غير ما يبدون فيقول أهل كل مصر إنا لفي عافية مما ابتلى به هؤلاء إلا أهل المدينة فإنهم جاءهم ذلك عن جميع الأمصار فقالوا : إنا لفي عافية مما فيه الناس .

وإنا لا ندري السبب الذي حمل ابن السوداء على نشر هذه الدعاية ضد عثمان وتحزبه لعلي بن أبي طالب وإن الإنسان ليعجب من ارتحال هذا الرجل من مصر إلى مصر واحتماله المشقات واختلاقه المذاهب وحض الناس على بث الدعوة إلا إذا كان قد أراد بذلك هدم الإسلام وحدوث الفتن والثورات ، ولو أن عثمان استعمل الشدة مع أمثال عبدالله بن سبأ وأدبهم لما اجترأوا على بث بذور الفتن لكنه لان لهم فلم يخشوا بأسه .

معاد) وهذا تضليل لأن المعاد هنا مكة فكان الله تعالى وعده وهو بمكة في اذى وغلبة من أهلها أن يهاجر منها ويعيده إليها ظاهرا ظافرا فتأمل !

إرسال مندوبين إلى الأمصار
لاستطلاع الأخبار

أتى الناس عثمان فقالوا يا أمير المؤمنين أيأتيك عن الناس الـذي يأتينا ؟ فقال ما جاءني إلا السلامـة وأنتم شركائي وشهود المؤمنـين فأشيروا علي . [1] قالوا نشير عليك أن تبعث رجالاً ممن تثق بهـم إلى الأمصار حتى يرجعوا إليك بأخبارهم فدعا محمد بن مسلمة فأرسله إلى الكوفة وأرسل أسامة بن زيد إلى البصرة ، وأرسل عمارة بن ياسـر إلى مصر ، وأرسل عبدالله بن عمر إلى الشام وفرق رجالاً سواهـم فرجعوا جميعاً قبل عمار فقالوا : ما أنكرنا شيئاً أيهـا الناس . ولا أنكره أعلام المسلمين ولا عوامهم .

تأخر عمار حتى ظنوا أنه قد اغتيل فوصل كتاب من عبدالله بن أبي سرح يذكر أن عماراً قد استماله قومه وانقطعوا إليه منهم عبدالله ابن السوداء وخالد بن مُلجم وسوادان بن حُمران وكنانة بن بشـر فثبطوا عماراً عن المسير إلى المدينة .

فكتب عثمان إلى أهل الأمصار :

« إني آخذ العمال بموافاتي كل موسم وقد سلطت الأمة منذ وليت على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فلا يرفع علي شيء ولا على أحد من عمالي إلا أعطيته وليس لي ولعيالي حق قبل الرعية إلا وهو متروك لهم وقد رفع إلي أهل المدينة أن أقواماً يُشتمون ويضربون فمن ادعى شيئاً من ذلك فليواف الموسم يأخذ حقه حيث كان مني أو عمالي . أو تصدقوا فإن الله يجزي المتصدقين » .

---

(١) ابن الأثير الجزء الثالث : ص ٧٥ — ٧٦ .

فلما قرىء هذا الكتاب في الأمصار بكى الناس ودعوا لعثمان وقالوا : إن الأمة لتتمخض بشر .

عثمان يستشير عمال الأمصار

لم يطمئن عثمان إلى الأخبار التي تلقاها ممن بعثهم فأرسل إلى عمال الأمصار فقدموا في الموسم وهم :

(١) عبدالله بن عامر (٢) وعبدالله بن سعد (٣) ومعاوية وأدخل معهم في المشورة سعيد بن العاص وعمرو بن العاص . فلما اجتمعوا عنده قال :

« ويحكم ما هذه الشكاية وما هذه الإذاعة ؟ إني والله لخائف أن تكونوا مصدوقاً عليكم وما يُعصب هذا إلا بي » .

فقالوا له : ألم تبعث ؟ ألم يرجع إليك الخبر عن القوم ؟ ألم يرجع رسلك ولم يشافههم أحد بشيء ؟ لا والله ما صدقوا ولا بروا . ولا نعم لهذا الأمر أصلاً وما كنت لتأخذ به أحداً فيقيمك على شيء . وما هي إلا إذاعة لا يحل الأخذ بها ولا الإنتهاء إليها .

قال فأشيروا عليّ . فقال سعيد بن العاص : « هذا أمر مصنوع يصنع في السر فيلقى به غير ذي المعرفة فيخبر به فيتحدث به في مجالسهم » .

قال فما دواء ذلك ؟ .

قال : طلب هؤلاء القوم ثم قتل هؤلاء الذين يخرج هذا من عندهم وقال عبدالله بن سعد : خذ من الناس الذي عليهم إذا أعطيتهم الذي لهم فإنه خير من أن تدعهم .

وقال معاوية : قد وليتني فوليت قوماً لا يأتيك عنهم إلا الخبر والرجلان أعلم بناحيتهما .

قال : فما الرأي .

قال : حسن الأدب .

قال : فما ترى يا عمرو ؟

قال : أرى أنك قد لنت لهم وتراخيت عنهم وزدتهم على ما كان يصنع عمر فأرى أن تلزم طريقة صاحبيك فتشتد في موضع الشدة وتلين في موضع اللين ، إن الشدة تنبغي لمن لا يألو الناس شراً واللين لمن يخلف الناس بالنصح وقد فرشتهما جميعاً . فقام عثمان فحمد الله وأثنى عليه وقال :

« كل ما أشرتم به عليّ قد سمعت . ولكل أمر باب يؤتى منه ، إن هذا الأمر الذي يخاف على هذه الأمة كائن ، وإن بابه الذي يغلق عليه فيكفكف به اللين والمؤاتاة والمتابعة إلا في حدود الله تعالى ذكره التي لا يستطيع أحد أن يبادي بعيب أحدها فإن سده شيء فرفق، فذاك ليفتحن، وليست لأحد عليّ حجة حق ، وقد علم الله أني لم آل الناس خيراً ولا نفسي ، ووالله إن رحى الفتنة لدائرة فطوبى لعثمان إن مات ولم يحركها ، كفكفوا الناس وهبوا لهم حقوقهم واغتفروا لهم وإذا تعوطيتْ حقوق الله ، فلا تدهنوا فيها » .

وهذا ولم يبلغنا ماذا فعل عثمان في أمر عمار الذي أرسل إلى مصر ولم يعد ، وكتب بشأنه عبدالله بن أبي سرح أن قوماً استمالوه وانقطعوا إليه وذكرهم بالإسم . إن في عدم عودة عمار وانقطاعه إلى من استمالوه دليلاً على اشتداد الفتنة في مصر . وكان

الواجب يقضي استدعاء عمار بأي وسيلة وسؤاله عن الحالة في مصر وماذا قالوا له ؟ ولماذا لم يعد كغيره ؟ إلى غير ذلك ، فإذا ثبت أن هناك مؤامرة ودسيسة وعرف من هم رؤساء الفتنة حقق معهم وعندئذ يجازى كل بما يستحق . أما تركهم ينقلون أحاديث السوء ويذيعون الفتنة ويحرضون على الجهاد ويبيحون دم الخليفة فذلك مما يزيد الفتنة .

ثم إن عثمان رضي الله عنه كان أعطى عبدالله بن خالد بن أسيد خمسين ألفاً ، وأعطى مروان خمسة عشر ألفاً فرد ذلك منهما منعاً للقيل والقال .

معاوية يدعو عثمان إلى الشام

كان معاوية قد قال لعثمان غداة ودّعه وخرج : [1]

« يا أمير المؤمنين انطلق معي إلى الشام قبل أن يهجم عليك من لا قِبَل لك به ، فإن أهل الشام على الأمر لم يزالوا » .

فقال : « لا أبيع جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيء ، وإن كان فيه قطع خيط عنقي » .

فقال معاوية : « فأبعث إليك جنداً منهم يقيم بين ظهراني أهل المدينة لنائبة إن نابت المدينة ، أو إياك » .

قال : « لا أضيق على جيران رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

فقال : « والله لَتُغْتَالَنَّ ، أو لَتُغْزَيَنَّ » .

قال : « حسبي الله ونعم الوكيل » .

---

(١) الطبري .. الجزء الخامس ، ص ١٠١ .

عثمان يرد على منتقديه

أرسل عثمان إلى الكوفيين والبصريين الذين وفدوا المدينة بدعوى أنهم يريدون أن يسألوا عثمان عن أشياء ، ثم يرجعون ويزعمون أنهم قرروه بها . فلم يخرج منها ولم يتب ثم يخرجون كأنهم حجاج وعندئذ يحيطون به ويخلعونه فإن أبى قتلوه ، فلما بلغ عثمان عزمهم هذا ضحك وقال : اللهم سلم هؤلاء فإنك إن لم تسلمهم شقوا ونادى : الصلاة جامعة وهم عنده في أصل المنبر فأقبل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أحاطوا به فحمدالله وأثنى عليه فقالوا جميعاً : اقتلهم فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من دعا إلى نفسه ، أو إلى أحد وعلى الناس إمام ، فعليه لعنة الله فاقتلوه » وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : لا أحل لكم إلا ما قتلتموه وأنا شريككم ، فقال عثمان : بل نعفو ونقبل ونبصرهم بجهدنا ، ولا نحاد أحداً حتى يركب حداً أو يُبدي كفراً . إن هؤلاء ذكروا أموراً قد علموا منها مثل الذي علمتم إلا أنهم زعموا أنهم يذاكرونيها ليوجبوها علي عند من لا يعلم ؛ وقالوا أتم الصلاة في السفر وكانت لا تُتم . ألا وإني قدمت بلداً فيه أهلي فأتممت لهذين الأمرين . أو كذلك ؟ قالوا اللهم نعم . وقالوا وحميتَ حِمىً . وإني والله ما حميتُ حِمى حُمى ، قبلي ، والله ما حموا شيئاً لأحد، ما حموا إلا ما غلب عليه أهل المدينة، ثم لم يمنعوا من رعيه أحداً ، واقتصروا لصدقات المسلمين يحمونها لئلا يكون بين من يليها وبين أحد تنازع ، ثم ما منعوا ولا نحوا منها أحداً إلا من ساق درهماً . ومالي من بعير غير راحلتي ، ومالي ثاغية ولا راغية [1] وإني قد وُليت وإني أكثر العرب بعيراً

(١) ما لي شاة ولا بعير .

وشاة فمالي اليوم شاة ولا بعير غير بعيرين لحجي . أكـذلك ؟ قالوا اللهم نعم .

وقالوا كان القرآن كتباً فتركتها إلا واحداً . ألا وإن القرآن واحد جاء من عند واحد . وإنما أنا في ذلك تابع لهؤلاء أكذلك ؟ قالوا نعم . وسألوه أن يقتلهم . وقالوا إني رددت الحكم وقد سيره رسول الله صلى الله عليه وسلم . والحكم مكي سيره رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى الطائف . ثم رده رسول الله صلى الله عليه وسلم . فرسول الله صلى الله عليه وسلم سيّره ورسول الله صلى الله عليه وسلم رده : أكذلك ؟ قالوا : نعم [1] .

وقالوا استعملت الأحداث ولم أستعمل إلا مجتمعاً محتمـلاً مرضيّاً . وهؤلاء أهل عَمَلهم فسلوهم عنه وهؤلاء أهل بلده . ولقد ولّى من قبلي أحدثَ منهم وقيل في ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلـم أشد مما قيل لي في استعماله أسامة أكـذلك ؟ قالوا اللهم نعم يعيبون للناس ما لا يفسرون .

وقالوا إني أعطيت ابن أبي سرح ما أفاء الله عليه ، وإني إنما نفلته الخُمس ما أفاء الله عليه من الخُمس ، فكان مائة ألف وقد أنفذ مثل ذلك أبو بكر وعمر رضي الله عنهما ، فزعـم

---

(١) الحكم المذكور هنا هو الحكم بن أبي العاص بن أمية عم عثمان ، اسلم يوم الفتح وهو طريد رسول الله ، نفاه من المدينة الى الطائف وخرج معه ابنه مروان . قيل نفاه رسول الله لأنه كان يتسمع سر رسول الله ويطلع عليه في بابه ، وكان يحكي رسول الله في مشيته وبعض حركاته . ومر الحكم يوما فقال رسول الله (ويل لأمتي مما في صلب هذا) .

الجند أنهم يكرهون ذاك فرددته عليهم وليس ذاك لهم أكذلك ؟ قالوا نعم .

وقالوا إني أحب أهل بيتي وأعطيهم . فأما حبي فإنه لم يمِل معهم على جَوْر . بل أحمل الحقوق عليهم . وأما إعطاؤهم فإني ما أعطيهم من مالي ولا أستحل أموال المسلمين لنفسي ، ولا لأحد من الناس ، ولقد كنت أعطي العطية الكبيرة الرغيبة من صلب مالي أزمان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، وأنا يومئذ شحيح حريص : أفحين أتيتُ على أسنان أهل بيتي وفنِي عمري وودعتُ الذي لي في أهلي قال الملحدون ما قالوا . وإني والله ما حملت على مصر من الأمصار فضلاً فيجوز ذلك لمن قاله . ولقد رددته عليهم وما قدم عليّ إلا الأخماس ولا يحل لي منها شيء فولى المسلمون وضعها في أهلها دوني ولا يُتلفّت من مال الله بفلْس فما فوقه ، وما أتبلغُ منه ما آكل إلا من مالي .

« قالوا أعطيتَ الأرض رجالاً . وإن هذه الأرضين شاركهم فيها المهاجرون والأنصار أيام افتُتحت ، فمن أقام بمكان من هذه الفتوح فهو إسوةُ أهله ، ومَن رجع إلى أهله لم يُذهِب ذلك ما حوى الله له . فنظرتُ في الذي يُصيبهم مما أفاء الله عليهم فبعتُه لهم بأمرهم من رجال أهل عَقار ببلاد العرب ، فنقلتُ إليهم نصيبهم فهو في أيديهم دوني » .

ثم تركهم عثمان ، فذهبوا ورجعوا إلى بلادهم .

حصر عثمان (١)
شوال سنة ٣٥ هـ

كان بمصر محمد بن أبي بكر ، ومحمد بن أبي حذيفة يحرضان على عثمان فلما خرج المصريون خرج فيهم عبد الرحمن بن عُدَيْس البَلَوِيّ في خمسمائة [٢] فكان أمير الجيش القادم من مصر لحصر عثمان ، وفيهم كنانة بن بشر الليثي ، وسودان بن حمران السكوني وقُتَيرة بن فلان السكوني ، وعليهم جميعاً الغافقي بن حرس العَكّي وخرج أهل الكوفة وفيهم زيد بن صوحان العبد والأشتر النخعي وزياد بن النضر الحارثي ، وعبد الله بن الأصم العامري وهم في عدد أهل مصر . وخرج أهل البصرة فيهم حُكَيم بن جَبَلة العبدي [٣] وذُرَيح بن عباد وبِشر بن شُريح القيسي وابن المحرّش وهم بعدد أهل مصر وأميرهم حرقوص بن زُهَيْر السعدي [٤] .

خرج هؤلاء كالحجاج ، وذكر الطبري أن ابن السوداء خرج من خرج من أهل مصر .

أما أهل مصر فإنهم كانوا يشتهون « علياً » . وأما أهل البصرة فإنهم كانوا يشتهون « طلحة » . وأما أهل الكوفة كانوا يشتهون « الزبير » ، فلما كانوا من المدينة على ثلاث ، تقدم ناس من أهل

---

(١) راجع الطبري في تاريخه الجزء الخامس ص ١٠٣ .

(٢) وقيل في ألف .

(٣) هو الذي بعثه عثمان الى السند فنزلها ، ثم قدم على عثمان فسأله عنها فقال : « ماؤها وشل ولصها بطل وسهلها جبل ، وان كثر الجند بها جاعوا وان قلوا بها ضاعوا » فلم يوجه عثمان احدا حتى قتل . وكان حكيم رجلا صالحا له دين مطاعا في قومه .

(٤) فتح حرقوص سوق الأهواز وله اثر كبير في قتل الهرمزان .

البصرة فنزلوا ذا خُشُب ، وناس من أهل الكوفة فنزلوا الأعْوَص ، وجاءهم ناس من أهل مصر وتركوا عامتهم بذي المَرْوة ومشى فيما بين أهل مصر وأهل البصرة زيادة بن النضر وعبدالله بن الأصم وقالا : لا تعجلوا ولا تعجلونا حتى ندخل لكم المدينة ونرتاد ، فإنه بلغنا أنهم عسكروا لنا . فوالله إن كان أهل المدينة قد خافونا واستحلوا قتالنا ، ولم يعلموا علمنا ، فهم إذا علموا علمنا أشد وإن أمرنا هذا لباطل . وإن لم يستحلوا قتالنا ووجدنا الذي بلغنا باطلاً لنرجعن إليكم بالخبر . قالوا اذهبا ، فدخل الرجلان فلقيا أزواج النبي صلى الله عليه وسلم وعلياً ، وطلحة ، والزبير . وقالا : إنما نأتم هذا البيت ونستعفي هذا الوالي من بعض عمالنا ما جئنا إلا لذلك ، واستأذناهم للناس بالدخول ، فكلهم أبى ونهى وقال بيض ما يفرخن ، فرجعا إليهم فاجتمع نفر من أهل مصر فأتوا علياً ، ومن أهل البصرة نفر فأتوا طلحة ، ومن أهل الكوفة نفر فأتوا الزبير . وقال كل فريق منهم : بايعوا صاحبنا وإلا كدناهم وفرقنا جماعتهم ، ثم كررنا عليهم نبغتهم فأتى المصريون علياً وهو في عسكر عند أحجار الزيت متقلداً سيفه ، وقد أرسل ابنه الحسن إلى عثمان فيمن اجتمعوا إليه فسلموا عليه وعرضوا عليه فصاح بهم وطردهم وقال :

« لقد علم الصالحون أن جيش ذي المروة ، وذي خشب والأعوص ملعونون على لسان محمد صلى الله عليه وسلم » فانصرفوا عنه .

وجيش ذي المروة هم المصريون . أما جيش ذي خشب فهم أهل البصرة . وأما جيش الأعوص فهم أهل الكوفة . وهذه أماكن بالقرب من المدينة .

وأتى البصريون طلحة ، وهو في جماعة أخرى إلى جنب عليّ وقد

أرسل ابنيه إلى عثمان فسلم البصريون عليه وعرضوا عليه فصاح بهم وطردهم وقال لهم مثل ذلك .

وأتى الكوفيون الزبير وهو في جماعة أخرى وقد سرح ابنه عبدالله إلى عثمان فسلموا عليه وعرضوا عليه فصاح وطردهم وقال لهم مثل ذلك .

فرجعوا وتفرقوا عن ذي المروة وذي خشب والأعوص إلى عسكرهم ليتفرق أهل المدينة ، ثم يرجعوا إليهم ، فلما بلغوا عسكرهم تفـرق أهل المدينة فرجعوا بهم فلم يشعر أهل المدينة إلا والتكبير في نواحيها ونزلوها وأحاطوا بعثمان . وقالوا من كف يده فهو آمن .

وصلى عثمان بالناس أياماً ولزم الناس بيوتهم ، ولم يمنعوا أحداً من كلام فأتاهم الناس فكلموهم وفيهم علي . فقال ما ردكم بعـد ذهابكم ورجوعكم عن رأيكم ؟ فقالوا أخذنا مع بريد كتاباً بقتلنا . وأتاهم طلحة فقال : البصريون مثـل ذلك . وأتاهم الزبير فقـال الكوفيون : مثل ذلك ، وقال الكوفيون والبصريون : نحن ننصر إخواننا ونمنعهم . جميعاً كأنما كانوا على ميعاد .

فقال لهم علي : كيف علمتم يا أهل الكوفة ، ويا أهل البصـرة بملقى أهل مصر ؟ وقد سرتم مراحل ، ثم طويتم نحونا هذا الأمر . والله إنه أمر أبرم بالمدينة . قالوا : فضعوه على ما شئتم ، ولا حاجة لنا في هذا الرجل ليعتزلنا وهو في ذلك يصلي بهم ، وهم يصلون خلفـه ، ويغشى من شاء عثمان وهم في عينه أدق مـن التراب ، وكانوا لا يمنعون أحداً من الكلام ، وكانوا يمنعون الناس من الإجتماع .

يلاحظ أن الذين خرجوا لحصر عثمان من الأمصار الثلاثة : مصر والكوفة والبصرة يتراوح عددهم بين ١٥٠٠ و ٣٠٠٠ على أكـثر

تقدير . فهو ليس جيشاً يصعب على أهل المدينة صده . نقــول ذلك وليس لدينا إحصاء عن سكان المدينة في ذلك الوقت نستطيع بــه أن نعرف منه قدرتها على الدفاع عن الخليفة . كما أننا لم نقف على أمر من عثمان إلى أهل المدينة بالإستعداد للدفاع عنه ورد هؤلاء المهاجمين . غير أننا وجدنا نص كتابه الذي أرسله إلى الأمصار يستنجدهم فيــه ، وهو الذي سننشره ، ويلاحظ كذلك أن الشاميين لم يرسلوا جيشــاً كغيرهم من الأمصار لحصر عثمان وذلك راجع إلى ما كان من تأثير معاوية في تلك البلاد .

كتاب عثمان إلى أهل الأمصار يستمدهم

كتاب عثمان إلى أهل الأمصار يستمدهم [1]

« بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد : فإن الله عز وجل بعث محمداً بالحق بشيراً ونذيراً فبلغ عن الله ما أمر به ، ثم مضى وقد قضى الذي عليه وخلف فينا كتابه فيه حلاله وحرامه وبين الأمور التي قدّر ، فأمضاها على ما أحب العباد ، وكرهوا فكان الخليفة أبو بكر رضــي الله عنه ، وعمر رضي الله عنه ، ثم أدخلتُ في الشورى على غير علم ولا مسألة عن ملأ من الأمة ، ثم أجمع أهل الشورى على ملأ منهــم ومن الناس على غير طلب مني ولا محبة . فعملت فيهم ما يعرفون ، ولا ينكرون تابعاً غير مستتبع ، متبعاً غير مبتدع ، مقدياً غير متكلف . فلما انتهت الأمور وانتكث الشر بأهله بدت ضغائن وأهواء على غير إجرام ولا ترة فيما مضى إلا إمضاء الكتاب . فطلبوا أمراً وأعلنــوا غيره بغير حجة ولا عذر فعابوا علي أشياء مما كانوا يرضون ، وأشياء

---

(١) الطبري الجزء الخامس ص ١٠٥ .

عن ملأ من أهل المدينة لا يصلح غيرها فصبرتُ لهم نفسي وكففتُها عنهم منذ سنين وأنا أرى وأسمع فازدادوا على الله عز وجل جرأة حتّى أغاروا علينا في جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم وحَرَمه وأرض الهجرة وثابت إليهم الأعراب ، فهم كالأحزاب أيام الأحزاب ، أو من غزانا بأحُد إلا ما يُظهرون ، فمن قدر على اللحاق بنا فليلحق » .

يستنجد عثمان بهذا الكتاب أهل الأمصار ، ويحثهم للمنع عنه ويعرفهم ما الناس فيه .

قدوم عبدالله بن أُبي سرح إلى عثمان

لما تكلم الناس بخلع عثمان وفد عبدالله على عثمان سنة ٣٥ هـ واستخلف على مصر عقبة بن عامر الجهني ، وقيل بل استخلف السائب ابن هشام العامري فظهر عليه محمد بن أبي حذيفة بن عتبة الأموي فأزال عنها السائب وتأمر على مصر ، فرجع عبدالله بن أبي سرح فمنعه محمد ابن أبي حذيفة من دخول الفسطاط فمضى إلى عسقلان فأقام بها حتّى قتل عثمان ، وقيل بل أقام بالرملة حتّى مات فارّاً من الفتنة فتوفي ولم يبايع لعلي ولا لمعاوية وكانت وفاته سنة ٣٧ هـ .

خطبة معاوية (١)

ذكروا أن ابن عباس قال : خرجت إلى المسجد فإني لجالس فيه مع علي حين صليت العصر ، إذ جاء رسول عثمان يدعو علياً . فقال علي : نعم . فلما أن ولى الرسول أقبل علي فقال : لم تراه دعاني ؟ فقلت له دعاك ليكلمك . فقال : انطلق معي . فأقبلت فإذا طلحة والزبير وسعد وأناس من المهاجرين فجلسنا ، فإذا عثمان عليه ثوبان

---

(١) الطبري ، الجزء الخامس ص ١٠١ .

أبيضان . فسكت القوم ونظر بعضهم إلى بعض فحمد الله عثمان ثم قال :

« أما بعد فإن ابن عمي معاوية هذا قد كان غائباً عنكم وعما نلتم مني وما عاتبتكم عليه وعاتبتموني . وقد سألني أن يكلمكم وأن يكلمه من أراد » فقال سعد بن أبي وقاص : وما عسى أن يقال لمعاوية أو يقول إلا ما قلت أو قيل لك فقال على ذلكم ، تكلم يا معاوية فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« أما بعد يا معشر المهاجرين وبقية الشورى فإياكم أعني ، وإياكم أريد فمن أجابني بشيء فمنكم واحد ، فإني لم أرد غيركم . توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم فبايع الناس أحد المهاجرين التسعة ، ثم دفنوا نبيهم فأصبحوا سالماً أمرهم كأن نبيهم بين أظهرهم . فلما أيس الرجل من نفسه بايع رجلاً من بعده أحد المهاجرين ، فلما احتضر ذلك الرجل شك في واحد أن يختاره : فجعلها في ستة نفر بقية المهاجرين فأخذوا رجلاً منهم لا يألون عن الخير فيه فبايعوه وهم ينظرون إلى الذي هو كائن من بعده لا يشكون ولا يمترون . مهلاً مهلاً أيها المهاجرون . فإن وراءكم من أن دفعتموه اليوم اندفع عنكم ، ومن ان فعلتم الذي أنتم فاعلوه دفعكم بأشد من ركنكم وأعد من جمعكم ، ثم استن عليكم بسنتكم ورأى أن دم الباقي ليس بممتنع بعد دم الماضي . فسددوا وارفقوا لا يغلبكم على أمركم من حدثكم » .

فقال علي بن أبي طالب « كأنك تريد نفسك يا ابن اللخناء لست هنالك » .

فقال معاوية : مهلاً عن بنت عمك . فإنها ليست بشر نسائك . يا معشر المهاجرين وولاة هذا الأمر . ولاكم الله إياه فأنتم أهله . وهذان

البلدان مكة والمدينة مأوى الحق ومنتهاه . وإنما ينظر التابعون إلى السابقين والبلدان إلى البلدين ، فإن استقاموا استقاموا وأيم الله الذي لا إله إلا هو لئن صفقت إحدى اليدين على الأخرى لا يقوم السابقون للتابعين ولا البلدان للبلدين وليسلبن أمركم ولينقلن المُلك من بين أظهركم . وما أنتم في الناس إلا كالشامة السوداء في الثور الأبيض . فإني رأيتكم نشبتم في الطعن على خليفتكم وبطرتم معيشتكم وسفهتم أحلامكم . وما كل نصيحة مقبولة . والصبر على بعض المكروه خير من تحمله كله » .

ثم خرج القوم وأمسك عثمان ابن عباس ، فقال له : « يا ابن عمي ويا ابن خالتي . فإنه لم يبلغني عنك في أمر شيء أحبه ولا أكرهه عَلَيّ ولا لِيَ . وقد علمت أنك رأيت بعض ما رأى الناس فمنعك عقلك وحلمك من أن تظهر ما أظهروا ، وقد أحببت أن تعلمني رأيك فيما بيني وبينك فأعتذر » .

رأي ابن عباس

قال ابن عباس فقلت :

« يا أمير المؤمنين إنك قد ابتليتني بعد العافية ، وأدخلتني في الضيق بعد السعة . ووالله إن رأيي لك أن يجل سناك ويعرف قدرك وسابقتك . ووالله لوددت أنك لم تفعل ما فعلت مما ترك الخليفتان قبلك . فإن كان شيئاً تركاه لما رأيا أنه ليس لهما ، علمت أنه ليس لك كما لم يكن لهما وإن كان ذلك لهما فتركاه خيفة أن ينال منهما مثل الذي نيل منك تركته لما تركاه له ولم يكونا أحق بإكرام أنفسهما منك بإكرام نفسك » .

قال : فما منعك أن تشير عليّ بهما قبل أن أفعل ما فعلت؟

قال : وعلمي أنك تفعل ذلك قبل أن تفعل . قال : فهب لي صمتاً حتى ترى رأيي .

حملة معاوية على المهاجرين

لما خرج ابن عباس قال عثمان لمعاوية :

ما ترى فإن المهاجرين قد استعجلوا القدر ولا يد لهم مما في أنفسهم ؟ فقال معاوية :

الرأي أن تأذن لي فأضرب أعناق هؤلاء القوم .

قال : من ؟ قال : عليّ وطلحة والزبير :

قال عثمان : سبحان الله أقتل أصحاب رسول الله بلا حدث أحدثوه ولا ذنب ركبوه .

قال معاوية : فإن لم تقتلهم فإنهم سيقتلونك .

قال عثمان : لا أكون أول مَن خلف رسول الله في أمته بإهراق الدماء .

قال معاوية : فاختر مني إحدى ثلاث خصال . قال عثمان وما هي ؟

قال معاوية : أرتب لك ههنا أربعة آلاف فارس من خيل أهل الشام يكونون لك رداء وبين يديك يداً .

قال عثمان : أرزقهم من أين ؟

من بيت المال .

أرزق أربعة آلاف من الجند من بيت مال المسلمين لحرز دمي لا فعلت هذا .

قال : فثانية . قال : وما هي ؟ قال : فرقهم عنك فلا يجتمع منهم إثنان في مصر واحد واضرب عليهم البعوث والندب حتى يكون دبر بعير أحدهم أهم عليه من صلاته .

قال عثمان : سبحان الله . شيوخ المهاجرين ، وكبار أصحاب رسول الله وبقية الشورى أخرجهم من ديارهم وأفرق بينهم وبين أهلهم وأبنائهم ؟ لا أفعل هذا .

قال معاوية : فثالثة . قال : وما هي ؟ اجعل لي الطلب بدمك إن قتلت . قال عثمان : نعم . هذه لك إن قتلت فلا يطل دمي [1] .

هذا ما جرى من المناقشة بين معاوية وعثمان ولم يوافقه عثمان على التنكيل بالمهاجرين بالقتل أو النفي ، إنما وافقه على المطالبة بدمه ، فلما قتل عثمان طالب معاوية علياً بدم عثمان رضي الله عنه وحاربه .

إن هذه الآراء التي أبداها معاوية لعثمان رضي الله عنه بشأن التنكيل بالمهاجرين قد وجدناها مسطورة في كتاب « الإمامة والسياسة » لابن قتيبة لكننا لا نصدق أن معاوية أشار بقتل عليّ وطلحة والزبير أو نفيهم وقد بحثنا عن هذا الخبر في الطبري فلم نجد له أثراً .

أما كتاب الإمامة والسياسة المشار إليه فمشكوك في صحة نسبته إلى ابن قتيبة . ويرجح الأستاذ ده غوى De Goeie أن هذا المصنف كتبه رجل مصري أو مغربي في حياة ابن قتيبة .

---

(١) راجع الإمامة والسياسة لابن قتيبة .

خروج أهل الأمصار لنجدة عثمان

بعث معاوية حبيب بن مسلمة الفهري . وبعث عبدالله بن سعد معاوية ابن حُدَيج وخرج من الكوفة القعقاع بن عمرو وقام بالكوفة نفر يحضون على إعانة أهل المدينة منهم عقبة بن عامر ، وعبدالله بن أبي أوفى ، وحنظلة الكاتب وغيرهم من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم . ومن التابعين مسروق والأسود وشريح وعبدالله بن حكيم وغيرهم . وقام بالبصرة عمران بن حصين وأنس ابن مالك وهشام بن عامر وغيرهم من الصحابة ، ومن التابعين كعب بن سوار وهرم بن حيان وغيرهما . وقام بالشام جماعة من الصحابة والتابعين وكذلك بمصر . أما جيش الشام فقد تأخر فلما بلغهم خبر مقتل الخليفة عند منتصف الطريق بين الشام والمدينة قفلوا راجعين ، وقيل إن معاوية تعمد تأخير المدد .

خطبة عثمان ورجمه بالحصباء

ولما جاءت الجمعة التي على أثر نزول المصريين المدينة خرج عثمان فصلى بالناس ، ثم قام على المنبر فقال :

« يا هؤلاء العدى : الله الله ، فوالله إن أهل المدينة ليعلمون أنكم ملعونون على لسان محمد صلى الله عليه وسلم فامحوا الخطايا بالصواب فإن الله عز وجل لا يمحو السيء إلا بالحسن » .

فقام محمد بن مسلمة فقال : أشهد بذلك فأخذه حكيم بن جبلة (من جيش البصرة) فأقعده . فقام زيد بن ثابت فأقعده محمد ابن أبي قتيرة وثار القوم بأجمعهم فحصبوا الناس حتى أخرجوهم من المسجد وحصبوا عثمان حتى صرع على المنبر مغشياً عليه فاحتمل فأدخل داره واستقل نفر من أهل المدينة مع عثمان منهم سعد بن

مالك والحسن بن علي ، وزيد بن ثابت وأبو هريرة فأرسل إليهم عثمان يعزم عليهم بالإنصرف فانصرفوا .

وأقبل عليّ وطلحة والزبير فدخلوا على عثمان بعودته من صرعته ويشكون بثهم ، ثم رجعوا إلى منازلهم .

وصلى عثمان بالناس بعدما نزل به في المسجد ثلاثين يوماً ، ثم منعوه الصلاة ، وصلى بالناس أميرهم الغافقي ، وتفرق أهل المدينة في حيطانهم ولزموا بيوتهم لا يجلس أحد ، ولا يخرج إلا بسيفه يمتنع به وكان الحصار أربعين يوماً ومن تعرض لهم وضعوا فيه السلاح .

وقيل إن عثمان رضي الله عنه خطب الناس وقال لهم :

« إنهم قد أسرعوا الفتنة ، واستطالوا عمري ، والله لئن فارقتهم ليتمنون أن عمري كان عليهم مكان كل يوم سنة ، . يرون من الدماء المسفوكة والإحن والأثرة الظاهرة والأحكام المغيرة » .

زيارة عثمان لعلي في بيته ورجوع المصريين

جاء عثمان إلى عليّ فدخل عليه بيته فقال له يا ابن عم إن قرابتي قريبة ولي عليك حق عظيم ، وقد جاء ما ترى من هؤلاء القوم وهم مصبحي ولك عند الناس قدر ، وهم يسمعون منك وأحب أن تركب إليهم فتردهم عني ، فإن في دخولهم علي توهيناً لأمري وجراءة عليّ .

فقال علي : على أيّ شيء أردهم عنك ؟ قال علي أن أصير إلى ما أشرت إليه ورأيته لي . فقال عليّ إني قد كلمتك مرة بعد

أخرى فكل ذلك تخرج وتقول ، ثم ترجع عنه ، وهذا من فعل مروان وابن عامر ومعاوية وعبدالله بن سعد . فإنك أطعتهم وعصيتني . قال عثمان فأنا أعصيهم وأطيعك .

فأمر عليّ الناس ، فركب معه من المهاجرين والأنصار ثلاثون رجلاً فيهم سعيد بن زيد ، وأبو جهم العدوي وجُبير بن مطعم ، وحكيم بن حزام ومروان وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن عتاب بن أسيد . ومن الأنصار أبو أسيد الساعدي وأبو حميد ، وزيد ابن ثابت ، وحسان بن ثابت وكعب بن مالك ، ومن العرب نيار ابن مكرز ، فأتوا المصريين بذي خشب فكلموهم ، وكان الذي يكلمهم علياً ومحمد بن مسلمة . فسمعوا كلامهما ورجعوا إلى مصر .

فقال ابن عديس لمحمد بن سلمة أتوصينا بحاجة ؟ قال نعم . تتقي الله وترد من قِبلك عن إمامهم ، فإنه قد وعدنا أن يرجع وينزع .

قال ابن عديس أفعل إن شاء . ورجع عليّ ومن معه إلى المدينة فدخل على عثمان فأخبره برجوعهم وكلمه بما في نفسه وخرج من عنده . فمكث عثمان ذلك اليوم وجاءه مروان ، بكر الغد . فقال له : تكلم وأعلم الناس أن أهل مصر قد رجعوا ، وأن ما بلغهم عن إمامهم كان باطلاً قبل أن يجيء الناس إليك من أمصارهم ، ويأتيك مالا تستطيع دفعه . ففعل عثمان . فلما خطب الناس قال له عمرو ابن العاص : اتق الله يا عثمان فإنك قد ركبت أموراً وركبناها معك فتب إلى الله نتب . فناداه عثمان وإنك هنا يا ابن النابغة قملت والله جبتك منذ عزلتك عن العمل . فنودي من ناحية أخرى تب إلى الله. فرفع يديه واستقبل القبلة وقال : (اللهم إني أول تائب) .

وخرج عمرو بن العاص إلى فلسطين . وكان يقول : والله إني كنت لألقى الراعي فأحرضه على عثمان .

توبة عثمان (١)

تاب عثمان بناء على طلب عمرو بن العاص ، وقيل إن علياً جاء عثمان بعد انصراف المصريين فقال له : تكلم كلاماً يسمعه الناس منك ويشهدون عليه ويشهد الله على ما في قلبك من النزوع والإنابة . فإن البلاد قد تمخضت عليك فلا آمن ركباً آخرين يقدمون من الكوفة فتقول يا عليّ اركب إليهم . ولا أقدر أن أركب إليهم ولا أسمع عذراً ، ويقدم ركب آخرون من البصرة فتقول : يا عليّ اركب إليهم فإن لم أفعل رأيتني قد قطعت رحمك واستخففت بحقك . فخرج عثمان فخطب الخطبة التي نزع فيها وأعطى الناس من نفسه التوبة ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال :

« أما بعد أيها الناس فوالله ما عاب من عاب منكم شيئاً أجهله ، وما جئت شيئاً إلا وأنا أعرفه ، ولكني منتني نفسي وكذبتني وضل عني رشدي . ولقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : مَن زلّ فليتب ومَن أخطأ فليتب ولا يتمادى في الهلكة. إن من تمادى في الجور كان أبعد من الطريق فأنا أول من اتعظ . أستغفر الله مما فعلت وأتوب إليه . فمثلي نزع وتاب . فإذا نزلت فليأتني أشرافكم فليروني رأيهم لئن ردني الحق عبداً لأستنن بسنة العبد، ولأذلنّ ذل العبد ولأكوننّ كالمرقوق (الرقيق) إن مُلك صبر ، وإن عُتِق شكر ، وما عن الله مذهب إلا إليه فلا يعجزن منكم خياركم أن يدنوا إلىّ لئن أبت يميني لتتابعني شمالي » .

(١) الطبري الجزء الخامس ص ١١١ .

فرقّ الناس له يومئذ ، وبكى من بكى منهم ، وقام إليه سعيد بن زيد فقال : يا أمير المؤمنين ليس بواصل لك من ليس معك . الله الله في نفسك فأتمم على ما قلت .

أورد الطبري هذه الخطبة بنصها وأتى على ملخصها ابن الأثير وقد تاب فيها أمام الناس واستغفر الله .

مروان يفسد توبة عثمان (١)

كان عثمان رضي الله عنه مستسلماً لمروان ولأقاربه وهذا ما لاحظه. عليّ رضي الله عنه ، فكان لهم تأثير شديد فيه . فلما تاب هذه التوبة وخطب تلك الخطبة التي رقت لها قلوب الناس ودخل بيته ، دخل عليه مروان وقيل إنه وجد مروان وسعيداً ونفراً من بني أمية ولم يكونوا شهدوا الخطبة (لكن لا بد أنهم سمعوا بها إن لم يكونوا شهدوها) فلما جلس قال مروان : يا أمير المؤمنين أتكلم أم أصمت ؟ فقالت نائلة ابنة الفرافصة امرأة عثمان لا بل اصمت . فإنهم والله قاتلوه ومؤثموه . إنه قد قال مقالة لا ينبغي له أن ينزع عنها . فأقبل عليها مروان فقال ما أنت وذاك ، فوالله لقد مات أبوك وما يحسن يتوضأ . فقالت له مهلاً يا مروان عن ذكر الآباء تخبر عن أبي وهو غائب تكذب عليه وإن أباك لا يستطيع أن يدفع عنه . أما والله لولا أنه عمه ، وأنه يناله غمه أخبرتك عنه ما لن أكذب عليه فأعرض عنها مروان .

ثم قال يا أمير المؤمنين أتكلم أم أصمت ؟ قال بل تكلم فقال مروان بأبي أنت وأمي والله لوددت أن مقاتلتك هذه كانت وأنت ممتنع

---

(١) الطبري الجزء الخامس ص ١١١ .

منيع فكنت أول من رضي بها وأعلن عليها . ولكنك قلت ما قلت حين بلغ الحزام الطُبْيَيْن وخلف السيل الزُبَى ، وحين أعطى الخطة الذليلة الذليل . والله لإقامة على خطيئة تستغفر الله منها أجمل من توبة تخوَّف عليها وأنك إن شئت تقربت بالتوبة ، ولم تقرر بالخطيئة . وقد اجتمع إليك على الباب مثل الجبال من الناس .

فقال عثمان فاخرج إليهم فكلمهم فإني أستحي أن أكلمهم . فخرج مروان الى الباب والناس يركب بعضهم بعضاً . فقال : « ما شأنكم قد اجتمعتم كأنكم قد جئتم لنهب . شاهت الوجوه : كل إنسان آخذ باذن صاحبه إلا من أريد . جئتم تريدون أن تنزعوا ملكنا من أيدينا . اخرجوا عنا لئن رمتمونا ليمرن عليكم منا أمر لا يسركم ولا تحمدوا غِبَّ رأيكم . ارجعوا إلى منازلكم ، فإنا والله ما نحن مغلوبين على ما في أيدينا » .

فرجع الناس وخرج بعضهم حتى أتى علياً فأخبره الخبر . فجاء علي رضي الله عنه مغضباً حتى دخل على عثمان . فقال أما رضيت من مروان ولا رضي منك إلا بتحرفك عن دينك وعن عقلك مثل جمل الظعينة يقاد حيث يسار به والله ما مروان بذي رأي في دينه ولا نفسه . وأيم الله إني لأراه سيوردك ، ثم لا يصدرك . وما أنا بعائد بعد مقامي هذا لمعاتبتك . أذهبت شرفك وغُلبت على أمرك .

نائلة زوجة عثمان تنصحه وتحذره مروان (١)

لما خرج عليٌّ دخلت عليه نائلة زوجته ، وقالت أتكلم أو أسكت ؟ فقال تكلمي . فقالت سمعت قول عليٍّ لك ، وأنه ليس يعاودك وقد

(١) أورد ابن الأثير الخبر ، وحوار نائلة مع مروان وتهجمه عليها وعلى والدها . الجزء الثالث ص ٨١ .

أطعت مروان يقودك حيث شاء . قال فما أصنع ؟ . قالت تتقي الله وحده لا شريك له وتتبع سنة صاحبيك من قبلك ، فإنك متى أطعت مروان قتلك . ومروان ليس له عند الناس قدر ولا هيبة ولا محبة وإنما تركك الناس لمكان مروان . فأرسل إلى عليّ فاستصلحه فإن له قرابة منك فهو لا يعصيك . فأرسل إلى عليّ فأبى أن يأتيه وقال: قد أعلمته أني لست بعائد .

فبلغ مروان مقالة نائلة فيه ، فجاء إلى عثمان فجلس بين يديه . فقال أتكلم أو أسكت ؟ فقال تكلم . فقال إن بنت الفرافصة . فقال عثمان لا تذكرنها بحرف فأسوّد وجهك ، فهي والله أنصح لي منك . فكف مروان .

ما خشيه مروان من توبة عثمان

لقد تاب عثمان عما فعله باستشارة مروان وأمثاله من بني أمية لأن علياً أراد منه أن يذيع التوبة حتى ينصرف الأعداء عنه ولا يعودوا إلى التألب عليه . فلما تاب رضي الناس عنه . ونعتقد أن عثمان لو ترك وشأنه من غير تدخل هؤلاء المستشارين من أقاربه، لما فعل شيئاً مما استوجب سخط الناس عليه . لكنهم ما كانوا يتركونه يتصرف في الأمور كانوا يملون عليه إرادتهم ويصرفونه حيث شاءوا ، وكان لا يخالفهم لما ركب في طبعه من اللين ورقة الجانب للأقارب ولكبر سنه . فلما استاء الناس منه وضايقوه وكلمه علي الذي استنجد به لردهم عنه ، تاب وأذاع توبته على الملأ حتى بكى من سمعه إلا أن هذه التوبة أسخطت مروان وأقارب عثمان لأن فيها رجوعاً عن الخطة التي اتبعها فيما مضى إذ التوبة تقضي عليه أن ينظر في شكاوى الناس فيولي من يصلح بغض الطرف عن القرابة كما كان يفعل أبو بكر وعمر . وهذا ما خشيه مروان ويدل على ذلك قوله للناس بعد خطبة عثمان

(تريدون أن تنزعوا ملكنا من أيدينا) . هذا ما كان يخشاه مروان . أما حياة عثمان الذي أغدق عليهم النعم ، تلك الحياة التي كانت مهددة ، فلم تكن تهمه ، لأن مشورته هي التي بغضت الناس في عثمان . انصرف الناس راضين وقالوا : قد تاب الرجل . وما كاد علي يطمئن ويظن أنه قد أطاعه ، حتى خرج عليهم مروان وهدم هذه السياسة الحميدة فغضب علي غضباً شديداً وغضب الناس .

وكان الأجدر بعثمان والحالة هذه أن يدع التردد بعد أن تبين له الحق والصواب ويمنع مروان من الكلام بما يخالف توبته ، ويعلن تمسكه بما قال حتى لا يقال إن مروان يصرفه ويتحكم فيه ، وأن ما يبرمه ويقرره الخليفة ينقضه مروان .

غضب علي رضي الله عنه

أتى عثمان إلى عليّ بمنزله ليلاً فقال له : إني غير عائد وإني فاعل فقال له عليّ : بعدما تكلمت على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعطيت من نفسك ، ثم دخلت بيتك فخرج مروان إلى الناس يشتمهم على بابك ويؤذيهم . فخرج عثمان من عنده وهو يقول : خذلتني وجرأت الناس عليّ . فقال علي والله إني لأكثر الناس ذباً عنك ولكني كلما جئت بشيء أظنه لك رضا جاء مروان بأخرى فسمعت قوله وتركت قولي ولم يعد علي يعمل كما كان يعمل . [1]

الجرأة على عثمان

قيل إن إبلاً من إبل الصدقة قدم بها على عثمان فوهبها لبعض بني الحكم ، فبلغ ذلك عبد الرحمن بن عوف فأرسل إلى المسور بن

(١) ابن الأثير الجزء الثالث ص ٨١ — ٨٢ . .

مخرمة وإلى عبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث ، فأخذها فقسمها عبد الرحمن في الناس وعثمان في الدار ولا بد أن هذه الحادثة التي رواها الطبري وابن الأثير كانت قبل سنة ٣٥ هـ ، لأن عبد الرحمن بن عوف توفي في سنة ٣٢ هـ .

وقيل كان أول من اجترأ على عثمان بالقول جبلة بن عمرو الساعدي مر به عثمان وهو في نادي قومه وبيده جامعة [1] فسلم فرد القوم . فقال جبلة لم تردون على رجل فعل كذا وكذا . ثم قال لعثمان والله لأطرحن هذه الجامعة في عنقك ، أو لتتركن بطانتك هذه الخبيثة : مروان وابن عامر وابن سعد . منهم من نزل القرآن بذمه وأباح رسول الله صلى الله عليه وسلم دمه . فاجترأ الناس عليه .

وقد تقدم قول عمرو بن العاص له فى خطبته . قيل وخطب يوماً وبيده عصا كان النبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر يخطبون عليها فأخذها جهجاه الغفاري من يده وكسرها على ركبته اليمنى فدخلت شظية منها فيها فبقي الجرح حتى أصابته الأكلة في ركبته .

طلب المهلة ثلاثة ايام

عاد المصريون إلى عثمان وكتبوا له :

« بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد فاعلم أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم فالله الله ، ثم الله الله فإنك على دنيا فاستتم إليها معها آخرة ولا تنس نصيبك من الآخرة فلا تسوغ لك الدنيا . واعلم إنا والله لله نغضب وفي الله نرضى وإنا لن نضع سيوفنا عن عواتقنا حتى

---

(١) الجامعة : الغل ، لأنها تجمع اليدين إلى العنق .

تأتينا منك توبة مصرحة أو ضلالة مجلحة مبلجة . فهـــذه مقالتنا لك وقضيتنا إليك والله عذيرنا منك والسلام » .

وكتب أهل المدينة إلى عثمان يدعونه إلى التوبة ويحتجـــون ويقسمون له بالله لا يمسكون عنه أبداً حتّى يقتلوه أو يعطيهم مـــا يلزمه من حق الله . فلما خاف القتل شاور نصحاءه وأهل بيتـــه . فقال لهم قد صنع القوم ما قد رأيتم فما المخرج ؟ فأشاروا عليه أن يرسل إلى عليّ بن أبي طالب فيطلب إليه أن يردهم عنه ويعطيهم ما يرضيهم ليطاولهم حتّى يأتيه أمداده ، لأنه كان كتب إلى معاوية كتاباً قال له فيه : « فابعث إليّ من قبلك من مقاتلة أهل الشام » .

فقال عثمان : إن القوم لن يقبلوا التعليل ، وقد كان مني في قدمتهم الأولى ما كان فمتّى أعطهم ذلك يسألوني الوفاء به .

فقال مروان بن الحكم : يا أمير المؤمنين مقاربتهم حتّى تقوى طاولوك . فإنما بغوا عليك فأرسل إلى عليّ فلما جاء قال : يا أبـــا الحسن إنه قد كان من الناس ما قد رأيت وكان مني ما قد علمت ولست آمنهم على قتلي فارددهم عني فإن لهـــم الله عز وجل أن أعتبهم من كل ما يكرهون وأن أعطيهم الحق من نفسي ومن غيري وإن كان في ذلك سفك دمي .

فقال له عليّ : الناس إلى عدلك أحوج منهم إلى قتلك . وإني لأرى قوماً لا يرضون إلا بالرضى وقد أعطيتهم في قدمتهم عهداً من الله لترجعن عن جميع ما نقموا فرددتهم عنك ، ثم لم تف لهم بشيء من ذلك . فلا تغرني هذه المرة من شيء ، فإني معطيهم عليك الحق . قال نعم فأعطهم فوالله لأوفين لهم . فخرج علي إلى الناس فقال :

« أيها الناس إنكم إنما طلبتم الحق فقد أعطيتموه . إن عثمان قد زعم أنه منصفكم من نفسه ومن غيره وراجع عن جميع ما تكرهون . فاقبلوا منه ووكدوا عليه » .

قال الناس قد قبلنا فاستوثق منه ، فإنا والله لا نرضى بقول دون فعل فقال لهم عليّ ذلك لكم . ثم دخل عليه فأخبره الخبر . فقال عثمان : اضرب بيني وبينهم أجلاً يكون لي فيه مهلة فإني لا أقدر على رد ما كرهوا في يوم واحد . قال له عليّ : ما حضر بالمدينة فلا أجل فيه . وما غاب فأجله وصول أمرك . قال : نعم ولكن أجلني فيما بالمدينة ثلاثة أيام . قال عليّ : نعم . فخرج إلى الناس فأخبرهم بذلك وكتب بينهم وبين عثمان كتاباً أجله فيه ثلاثاً على أن يرد كل مظلمة ، ويعزل كل عامل كرهوه . ثم أخذ عليه في الكتاب أعظم ما أخذ الله على أحد من خلقه من عهد وميثاق وأشهد عليه أناساً من وجوه المهاجرين والأنصار . فكف المسلمون عنه ورجعوا إلى أن يفي لهم بما أعطاهم من نفسه .

هذه الرواية تدل على أن عثمان إنما طلب المهلة حتى يأتيه المدد ، وفي الطبري عدا ذلك أنه كان يستعد للقتال بالسلاح وقد كان اتخذ جنداً عظيماً من رقيق الخُمس .

كتاب إلى عامله بمصر (١)
بقتل محمد بن ابي بكر

جاء المصريون يشكون من ابن أبي سرح فكتب إليه عثمان كتاباً يتهدده فيه فأبى ابن سرح أن يقبل ما نهاه عنه عثمان وضرب بعض من أتاه من قبل عثمان من أهل مصر فقتله ، فخرج من أهل

---

(١) أوردها الطبري ، الجزء الخامس ص ١١٥ .

مصر جماعة فنزلوا المسجد وشكوا إلى الصحابة في مواقيت الصلاة ما صنع ابن أبي سرح بهم فقال طلحة بن عبيدالله ، فكلم عثمان بكلام شديد وأرسلت عائشة رضي الله عنها إليه فقالت : تقدم إليك أصحاب رسول الله وسألوك عزل هذا الرجل فأبيت فهذا قد قتل منهم رجلاً فأنصفهم من عاملك ، ودخل عليه عليّ بن أبي طالب فقال : إنما يسألونك رجلاً مكان رجل وقد ادعوا قبله دماً ، فاعزله عنهم واقضِ بينهم فإن وجب عليه حق فأنصفهم منه . فقال لهم : اختاروا رجلاً أوليه عليكم مكانه فأشار الناس عليه بمحمد بن أبي بكر . فقالوا استعمل علينا محمد بن أبي بكر فكتب عهده وولاه .

ويقال إن بعض أهل المدينة من مبغضي عثمان حرّض مروان ابن الحكم أن يكتب عن لسانه كتاباً إلى والي مصر بقتل محمد ورفاقه وأرسلوا الكتاب مع غلام لعثمان . فسار الغلام على بعير يسرع في مشيه . فلما خرج من المدينة وبلغهم سألوه عن وجهته فقال أنا غلام أمير المؤمنين . قالوا أمعك كتاب ؟ قال لا . ففتشوه فوجدوا الكتاب في أنبوبة من الرصاص ففتحوه فإذا فيه « إذا أتاك محمد بن أبي بكر وفلان ، وفلان فاحتل في قتلهم ، وأبطل كتابه وقرّ على عملك حتى يأتيك رأيي في ذلك إن شاء الله تعالى » .

فلما قرأ محمد الكتاب رجع إلى المدينة مع من معه والغلام ودخل على عثمان ومعه عليّ بن أبي طالب . فقال عليّ هذا الغلام غلامك ؟ قال نعم . والبعير بعيرك ؟ قال نعم . قال فأنت كتبت هذا الكتاب ؟ قال لا والله ما كتبت هذا الكتاب ولا أمرت به ولا علم لي به . قال عليّ : والخاتم خاتمك ؟ قال نعم قال فكيف

يخرج غلامك ببعيرك بكتاب عليه خاتمك ولا تعلم ؟ فحلف أنه لا يعلم شيئاً من ذلك . فقال عليّ لا يحلف عثمان إلا صادقاً فهو بريء من هذا الأمر . ولكنهم عرفوا أن الخط خط كاتبه مروان بن الحكم ، وكان عنده في الدار فسألوه أن يدفعه إليهم فأبى خوفاً عليه أن يقتل . فطلب إليه المصريون أن يخلع نفسه فأبى فارتفعت الأصوات . فقام عليّ وأخرج المصريين وخرج معهم ، ثم رجع المصريون وانضم إليهم أشياعهم فحاصروه في داره ومنعوه الماء .

وجاء في الطبري أنهم وجدوا في الكتاب « بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد فإذا قدم عليك عبد الرحمن بن عديس فاجلده مائة جلدة واحلق رأسه ولحيته ، وأطل حبسه حتى يأتيك أمري وعمرو بن الحمق فافعل به مثل وسودان بن عمران مثل ذلك وعروه بن النباع الليثي مثل ذلك » .

فلما كلمه المصريون في ذلك قال :

« والله ما كتبت ، ولا أمرت ، ولا شوورت ، ولا علمت » فقال المصريون فمن كتبه ؟ قال لا أدري . قال أفيُجترأ عليك فيبعث غلامك وجمل من صدقات المسلمين ويُنقش على خاتمك ويكتب إلى عاملك بهذه الأمور العظام وأنت لا تعلم ؟ قال نعم . قالوا فليس مثلك يلي . اخلع نفسك من هذا الأمر كما خلعك الله منه ، قال : لا أنزع قميصاً ألبسنيه الله عز وجل .

وعلى كل حال أنكر عثمان علمه بالكتاب ، وتبرأ منه وحلف أنه لا يعلم شيئاً عنه ، ولا بد أنه صادق وأن الكتاب مفتعل .

اتهام علي بتزوير الكتاب
رواية غريبة !!

جاء في دائرة المعارف الإسلامية ، النسخة الإنجليزية ، المجلد الثالث صفحة ١٠١٠ : « إن البلاذري روى دون غيره من المؤرخين أن عثمان اتهم علياً بتزوير الكتاب وهذا ما ظنه كيتاني في حولياته جزء ٨ ص ١٥٩ من غير أن يطلع على رواية البلاذري » .

لم يتمكن كيتاني من الإطلاع على رواية البلاذري لأنها مذكورة في كتاب « أنساب الأشراف » الذي لا يزال تحت الطبع ببيت المقدس وقد عثرت على الجزء الحادي عشر منه بمكتبة الجامعة المصرية وهو مطبوع على الحجر بمدينة غريفز ولد سنة ١٨٨٣ وليس فيه ذكر لهذه الرواية لأن هذا الجزء يبدأ بذكر مصعب بن الزبير في أيام عبد الملك .

إن دائرة المعارف الإسلامية لم تبد رأيها في توجيه هذه التهمة إلى عليّ بل أوردتْ ذلك كي يعلم أن هناك رواية أخرى غير ما أجمع عليه المؤرخون من اتهام مروان . وأن كيتاني تبادر إلى ظنه أن عثمان اتهم علياً فطابق ظنه هذا رواية البلاذري التي نأسف لعدم تمكننا من الإطلاع عليها مثل كيتاني . وكان الأجدر بدائرة المعارف أن لا تترك المسألة معلقة هكذا من غير أن نناقشها ونشير إلى عدم صحة هذه الرواية وبعدها عن الصواب .

وإنا نقول إنه لم يدر بخلد عثمان أن يتهم علياً ، ولا يمكن أن يدور بخلده ذلك لأن الغلام الذي خرج يحمل الكتاب لتوصيله إلى والي مصر هو غلام عثمان ، والبعير بعيره ، والخاتم خاتمه وهذا الخاتم لا يتوصل إليه علي بل يتوصل إليه مروان كاتب عثمان

ومستشاره وملازمه في داره . أضف إلى ذلك أنهم عرفوا أن الخط خط مروان هذا من جهة . ومن جهة أخرى فإنه لا حظّ لعلي في تزوير الكتاب ، فإنه إذا لم يضبط ووصل إلى يد الوالي نفذ أمر عثمان القاضي بإعدام محمد بن أبي بكر ، أو إعدام غيره ممن قدموا المدينة وعادوا إلى مصر ، أو تعذيبهم وهم ليسوا أعداء لعليّ بل من محبيه ، وعلى عكس ذلك كان مروان ، فإن من مصلحته القضاء على محمد بن أبي بكر ، أو غيره من المتآمرين على الخليفة المعارضين لحكم ابن أبي سرح .

اشتداد الحصار

لما اشتد الحصار على عثمان رضي الله عنه أرسل إلى عليّ وطلحة والزبير فحضروا فأشرف عليهم فقال :

« يا أيها الناس . اجلسوا (فجلسوا) يا أهل المدينة أستودعكم الله وأسأله أن يحسن عليكم الخلافة من بعدي . أنشدكم الله هل تعلمون أنكم دعوتم الله عند مصاب عمر أن يختار لكم ويجمعكم على خيركم . أتقولون إن الله لم يستجب لكم وهنتم عليه ، وأنتم أهل حقه أم تقولون هان على الله دينه فلم يبال من ولي والدين لم يتفرق أهله يومئذ ، أم تقولون لم يكن أخذ عن مشورة إنما كان مكابرة فوكل الله الأمة إذا عصته ولم يشاوروا في الإمامة ، أم تقولون إن الله لم يعلم عاقبة أمري[1] ؟ وأنشدكم بالله أتعلمون لي من سابقة خير وقدم خير قدمه الله لي يحق على كل من جاء بعدي أن يعرفوا لي فضلها فمهلاً لا تقتلوني فإنه لا يحل إلا قتل ثلاثة : رجل زنى بعد إحصانه . أو كفر بعد إيمانه ، أو قتل

(١) تاريخ ابن الأثير الجزء الثالث ص ٨٤ ذكر الخطبة بنصها .

نفساً بغير حق . فإنكم إذا قتلتموني وضعتم السيف على رقابكم ، ثم لم يرفع الله عنكم الإختلاف أبداً » .

قالوا أما ما ذكرت من استخارة الناس بعد عمر ، ثم ولوك فإن كل ما صنع الله خيرة ، ولكن الله جعلك بلية ابتلى بها عباده . وأما ما ذكرت من قدمك وسلفك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقد كنت كذلك وكنت أهلاً للولاية ولكن أحدثت ما علمته ، ولا نترك إقامة الحق عليك مخافة الفتنة عاماً قابلاً . وأما قولك إنه لا يحل إلا قتل ثلاثة ، فإنا نجد في كتاب الله قتل غير الثلاثة الذين سميت : قتل من سعى في الأرض فساداً ، وقتل من بغى ، ثم قاتل على بغيه ، وقتل من حال دون شيء من الحق ومنعه وقاتل دونه ، وقد بغيت ومنعت وحلت دونه وكابرت عليه ولم تقد من نفسك من ظلمت وقد تمسكت بالإمارة علينا . فإن زعمت أنك لم تكابرنا عليها فإن الذين قاموا دونك ومنعوك منا إنما يقاتلون لتمسكك بالإمارة فلو خلعت نفسك لانصرفوا عن القتال معك .

فسكت عثمان ولزم الدار وأمر أهل المدينة بالرجوع وأقسم عليهم فرجعوا إلا الحسن بن علي ، وابن عباس . ومحمد بن طلحة وعبدالله بن الزبير وأشباهاً لهم واجتمع إليهم أناس كثير .

لم يرد عليهم عثمان بل سكت . فهل اقتنع بأقوالهم وحججهم ؟ إنه لو اقتنع لتنازل عن الخلافة . فإذا لم يقتنع . فلماذا لم يقرع الحجة بالحجة . لكنه على كل حال أصر على عدم التنازل كما أصر على التمسك بسياسته ، فلم يعزل أحداً ممن كرهوه ولم يجب مطالبهم التي كان قد علم بها من قبل ؛ فلا بد أنه كان يرى أنهم مخطئون فيما يطلبون .

المحاصرون يمنعون عنه الماء (١)

كانت مدة الحصار أربعين يوماً أو ما يقرب من ذلك فلما مضت ثمان عشرة ليلة قدم ركبان من الأمصار فأخبروا بخبر من تهيأ إليهم من الجنود وشجعوا الناس ، فعندئذ حالوا بين الناس وبين عثمان ومنعوه كل شيء حتى الماء فأرسل عثمان إلى علي سراً وإلى طلحة ، والزبير ، وأزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنهم قد منعوني حتى الماء ، فإن قدرتم أن ترسلوا إلينا ماء فافعلوا »[٢]

فكان أولهم إجابة علي وأم حبيبة زوج النبي صلى الله عليه وسلم فجاء علي في الغلس (ظلمة آخر الليل) فقال :

« يا أيها الناس إن الذي تفعلون لا يشبه أمر المؤمنين ، ولا أمر الكافرين فلا تقطعوا عن هذا الرجل الماء ولا المادة ، فإن الروم وفارس لتأسر فتطعم وتسقي » .

فقالوا لا والله ولا نعمة عين . فرمى بعمامته في الدار بأني قد نهضت ورجعت ، وجاءت أم حبيبة على بغلة لها مشتملة على إداوة . فضربوا وجه بغلتها فقالت إن وصايا بني أمية عند هذا الرجل فأحببت أن أسأله عنها لئلا تهلك أموال الأيتام والأرامل . فقالوا كاذبة وقطعوا حبل البغلة بالسيف فنفرت وكادت تسقط عنها فتلقاها الناس فأخذوها وذهبوا بها إلى بيتها .

وتجهزت عائشة خارجة إلى الحج هاربة واستتبعت أخاها فأبى فقالت :

---

(١) انكر هشام بن عمرو القوطى حصار عثمان وقتاله بالغلبة والقهر وزعم أن شرذمة قليلة قتلوه غرة من غير حصار .

(٢) راجع ابن الأثير ، الجزء الثالث ص ٨٥ .

« أم والله لئن استطعت أن يحرمهم الله ما يحاولون لأفعلن »
وجاء حنظلة الكاتب [1] حتى قام على محمد بن أبي بكر فقال : يا محمد تستتبعك أم المؤمنين فلا تتبعها ، وتدعوك ذؤبان العرب إلى ما لا يحل فتتبعهم ؟ ! فقال : ما أنت وذاك يا ابن التميمية ؟ فقال يا ابن الخثعمية إن هذا الأمر إن صار إلى التغلب غلبتك عليه بنو عبد مناف وانصرف وهو يقول :

عجبت لما يخوض الناس فيه — يرومون الخلافة أن تزولا
ولو زالت لزال الخير عنهم — ولاقوا بعدها ذلاً ذليلا
وكانوا كاليهود أو النصارى — سواء كلهم ضلوا السبيلا

ولحق بالكوفة . وخرجت عائشة وهي ممتلئة غيظاً على أهل مصر وجاءها مروان بن الحكم فقال : يا أم المؤمنين لو أقمت كان أجدر أن يراقبوا هذا الرجل فقالت : أتريد أن يصنعوا بي كما صنع بأم حبيبة . ثم لا أجد من يمنعني لا والله ولا أعيّرُ ولا أدري إلى ما يسلم أمر هؤلاء .

وبلغ طلحة والزبير ما لقي عليّ ، وأم حبيبة ، فلزموا بيوتهم وبقي عثمان يسقيه آل حزم في الغفلات . عليهم الرقباء . فأشرف عثمان على الناس فاستدعى ابن عباس ، فأمره أن يحج بالناس وكان ممن لزم الباب . فقال جهاد هؤلاء أحب عليّ من الحج ، فأقسم عليه فانطلق .

---

(١) يقال له الكاتب لأنه كان يكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

حج ابن عباس بالناس
وكتاب عثمان إلى أهل مكة سنة ٣٥ هـ

قال عثمان رضي الله عنه وهو محصور : يا ابن عباس اذهب إلى خالد بن العاص [1] وهو بمكة فقل له يقرأ عليك أمير المؤمنين السلام ويقول لك إني محصور منذ كذا وكذا يوماً لا أشرب إلا من الإجاج (ماء شديد الملوحة) وقد مُنعت بئراً اشتريتها من صلب مالي رومه فإنما يشربها الناس ولا أشرب منها شيئاً ولا آكل إلا مما في بيتي مُنعت أن آكل مما في السوق شيئاً ، وأنا محصور كما ترى فأمره . وقل له فليحج بالناس وليس بفاعل . فإن أبى فاحجج أنت بالناس . قال ابن عباس : فقدمت الحج في العشر فجئت خالد بن العاص فقلت له ما قال لي عثمان . فقال لي : هل لي طاقة بعداوة من ترى وهذا الأمر لا يقضى إلا إليه « يعني علياً » وأنت أحق أن تحمل له ذلك فحججت بالناس . ثم قفلت في آخر الشهر فقدمت المدينة وإذا عثمان قد قتل وإذا الناس يتواثبون على رقبة عليّ بن أبي طالب ، فلما رآني عليّ ترك الناس وأقبل عليّ فانتجاني فقال : ما ترى فيما وقع فإنه قد وقع أمر عظيم كما ترى لا طاقة لأحد به . فقلت : أرى أنه لا بد للناس منك اليوم فأرى أنه لا يبايع اليوم أحد إلا اتهم بدم هذا الرجل . فأبى إلا أن يبايع فاتهم بدمه ..

لما خرج ابن عباس يريد الحج مرّ بعائشة رضي الله عنها في الصَّلصُل (بنواحي المدينة على سبعة أميال منها) فقالت : يا ابن

---

(١) هو ابن أخي الحارث وأبي جهل ابن هشام . قتل أبو العاص يوم بدر كافرا واستعمله عمر بن الخطاب رضي الله عنه على مكة لما عزل عنها نافع بن عبد الحارث واستعمله عليها عثمان بن عفان رضي الله عنه .

عباس . أنشدك الله فإنك قد أعطيت لساناً إزعيلاً (نشيطاً) أن تخذل عن هذا الرجل وأن تشكاك فيه الناس فقد بانت لهم بصائرهم وأنهجت ورُفعت لهم المنار وتحلبوا من البلذان لأمر قد جمّ . وقد رأيت طلحة ابن عبيدالله قد اتخذ على بيوت الأموال والخزائن مفاتيح فإن يَلِ يَسر بسيرة ابن عمه أبي بكر رضي الله عنه .

فأجابها ابن عباس : يا أمة لو حدثٍ بالرجل حدث ما فزع الناس إلا إلى صاحبنا (يعني علياً) فقالت : إيهاً عنك إني لست أريد مكابرتك ولا مجادلتك .

هذا يبين لنا موقف عائشة ورأيها ، فإنها أرادت من ابن عباس أن يقوم بالدعوة ضد عثمان في مكة ، وأن يشكاك الناس فيه وكانت تريد أن يتولى الخلافة بعد عثمان طلحة بن عبيدالله ، لا عليّ . وطلحة أسلم بدعوة أبي بكر الصديق وقد أبلى يوم أحد بلاءً عظيماً ، ووقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه واتقى عنه النبل حتى شلت أصبعه وضرب ضربة على رأسه وحمل رسول الله صلى الله عليه وسلم على ظهره حتى صعد معه الصخرة ، وكان شديداً على عثمان ، وقتل يوم الجمل ، وكان شهد ذلك اليوم محارباً لعليّ بن أبي طالب وقال طلحة يوم الجمل :

ندمت ندامة الكسعيّ لما شربت رضى بني جرم برغمي

اللهم خذ لعثمان حتى يرضى .

وقد كان أهل البصرة يريدون طلحة كما كان أهل مصر يريدون علياً . أما أهل الكوفة فكانوا يشتهون الزبير .

فعائشة كانت تريد طلحة ولا ترغب في عليّ رضي الله عنه ويرجع

السبب في نفورها منه إلى حديث الإفك [1] فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما استشار علياً في شأن عائشة قبل أن ينزل الوحي ببراءتها قال : « يا رسول الله لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير » .

كتاب عثمان إلى أهل مكة

كتب عثمان كتاباً إلى أهل مكة يسألهم أن يأخذوا له بالحق ممن حصروه وأعطاه لابن عباس . قال ابن عباس : فقرأت هذا الكتاب عليهم قبل التروية [2] بمكة بيوم ثم قدمت المدينة .

وهذا نص الكتاب كما نسخه عبد المجيد بن سُهَيْل من عكرمة [3] :

« بسم الله الرحمن الرحيم من عبدالله عثمان أمير المؤمنين إلى المؤمنين والمسلمين . سلام عليكم . فإني أحمد الله إليكم الذي لا إله إلا هو . أما بعد فإني أذكركم بالله عز وجل الذي أنعم عليكم وعلمكم الإسلام وهداكم من الضلالة وأنقذكم من الكفر وأراكم البينات وأوسع عليكم من الرزق ونصركم على العدو وأسبغ عليكم نعمته . فإن الله عز وجل يقول وقوله الحق : (وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ) [4] وقال عز وجل : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ. وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً) [5] إلى قوله لهم (عذاب عظيم) . وقال وقوله الحق :

---

(١) راجع كتاب « محمد رسول الله » للمؤلف ، صفحة ٢٧٢ .

(٢) التروية اليوم الثامن من ذي الحجة .

(٣) راجع الطبري .

(٤) سورة ابراهيم آية ٣٤ .

(٥) سورة آل عمران آية ١٠٣ .

(واذكُروا نعمة الله عليكم وميثاقَه الذى وَاثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا)[1]
وقال وقوله الحق (يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسقٌ بنبأٍ)[2] إلى قوله فضلاً من الله ونعمةً والله عليم حكيم . وقوله عز وجل : (إن الذين يشترون بعهدِ الله وأيمانهم ثمناً قليلاً)[3] إلى ولهم عذاب أليم . وقال وقوله الحق : « فاتقوا الله ما استطعتم)[4] إلى فأولئك هم المفلحون . وقال وقوله الحق : (ولا تنقُضوا الأيمان بعد توكيدها)[5] إلى قوله (ولنجزين الذين صبروا أجرَهُم بأحسن ما كانوا يعملون)[6] وقال وقوله الحق : (أطيعوا اللهَ وأطيعوا الرسولَ وأولي الأمرِ منكم)[7] إلى وأحسنُ تأويلا . وقال: وقوله الحق (وعد اللهُ الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحاتِ) إلى قوله : (ومن كفر بعد ذلك فأولئك هُمُ الفاسقون) وقال وقوله الحق : (إن الذين يُبايعونك إنما يبايعون الله)[8] إلى فسيُؤْتيه أجراً عظيماً) .

أما بعد فإن الله عز وجل رضي لكم السمع والطاعة والجماعة وحذركم المعصية والفرقة والإختلاف ونبأكم ما قد فعله الذين من قبلكم وتقدم إليكم فيه ليكون له الحجة عليكم إن عصيتموه فاقبلوا نصيحة الله عز وجل واحذروا عذابه فإنكم لن تجدوا أمة هلكت إلا من بعد أن تختلف إلا أن يكون لها رأس يجمعها ومتى ما تفعلوا ذلك لا تقيموا

---

(١) سورة المائدة آية ٧ .
(٢) سورة الحجرات آية ٦ .
(٣) سورة آل عمران آية ٧٧ .
(٤) سورة التغابن آية ١٦ .
(٥) سورة النحل آية ٩١ .
(٦) سورة النحل آية ٩٦ .
(٧) سورة النساء آية ٥٩ .
(٨) سورة الفتح آية ١٠ .

الصلاة جميعاً وسُلط عليكم عدوُّكم ويستحل بعضكم حُرم بعض ومتى يفعل ذلك لا يُقمْ لله سبحانه دين وتكونوا شيعاً وقد قال الله عز وجـل لرسوله صلى الله عليه وسلم: (إن الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيَعـاً لست منهم في شيء إنما أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلـون) [1] وإني أوصيكم بما أوصاكم الله وأحذركم عذابه فإن شعيباً صلى الله عليه وسلم قال لقومه : (ويا قوم لا يجرمنكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قومَ نوح) إلى قوله رحيم ودود .

أما بعد فإن أقواماً ممن كان يقول في هذا الحديث ، أظهروا للناس إنما يدعون إلى كتاب الله عز وجل والحق ولا يريدون الدنيا ولا المنازعة فيها . فلما عُرض عليهم الحق إذا الناس في ذلك شتى منهم آخذ للحق ونازعٌ عنه حين يُعطاه ، ومنهم تارك للحق ونازل عنه في الأمر يريد أن يبتزه بغير الحق . طـال عليهم عمري وراث عليهم أملهم إلا مرة فاستعجلوا القدر وقد كتبوا إليكم أنهم قد رجعوا بالذي أعطيتهُم ولا أعلم أني تركت من الذي عاهدتهم عليه شيئاً كانوا زعموا أنهم يطلبون الحدود فقلت أقيموها على مَن علمتم تعداها . أقيموها على مـن ظلمكم من قريب أو بعيد قالوا كتابُ الله يتلى . فقلت فليتله من تلاه غير غال فيه بغير ما أنزل الله في الكتاب ؛ وقالوا المحروم يرزق والمـال يوَفى ليُستن فيه السنة الحسنة ولا يُعتدى في الخُمس ولا في الصدقـة ويؤمر ذو القوة والأمانة وتُردّ مظالم الناس إلى أهلها فرضيتُ بـذلك واصطبرت له وجئت نسوة رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى كلمتهن فقلت ما تأمرنني . فقلن تؤمر عمرو بن العاص وعبدالله بن قيس وتدع معاوية فإنما أمره أمير قبلك فإنه مصلح لأرضه راض به جنده واردد

---

(١) سورة الأنعام آية ١٥٩ .

عمراً فإن جنده راضون به وأمره فليصلح أرضه فكل ذلك فعلت . وأنه اعتدى عَلي بعد ذلك وعدا على الحق . كتبت إليكم وأصحابي الـذين زعموا في الأمر استعجلوا القدر ومنعوا مني الصلاة وحالوا بيني وبـين المسجد وابتزوا ما قدروا عليه بالمدينة كتبت إليكم كتابي هـذا وهـم يخبرونني إحدى ثلاث : إما يقيدونني بكل رجل أصبته خطأ أو صواباً غير متروك منه شيء ، وإما أعتزل الأمر فيؤمرون آخر غيري ، وإما يرسلون إلى من أطاعهم من الأجناد وأهل المدينة فيتبرءون من الذي جعل الله سبحانه لي عليهم من السمع والطاعة ، أما إفادتي من نفسي فقد كان من قبلي خلفاء تخطىء وتصيب فلم يُستفد من أحد منهم وقد علمت إنما يريدون نفسي . وأما أن أتبرأ من الإمارة فإن يكلبوني أحبُّ إليَّ من أن أتبرأ من عمل الله عز وجل وخلافته . وأما قولكم يُرسلون إلى الأجناد وأهل المدينة فيتبرءون من طاعتي فلست عليكم بوكيل ، ولم أكـن استكرهتهم من قبل على السمع والطاعة . ولكن أتوها طائعين يبتغون مرضاة الله عز وجل ، وإصلاح ذات البين . ومن يكن منكم إنما يبتغي الدنيا فليس بنائل منها إلا ما كتب الله عز وجل ، ومن يكن إنما يريد وجه الله والدار الآخرة وصلاح الأمة وابتغاء مرضاة الله عز وجل والسنة الحسنة التي استن بها رسول الله صلى الله عليه وسلم والخليفتان من بعده رضي الله عنهما فإنما يجزى بذلكم الله ، وليس بيدي جزاؤكم ولـو أعطيتكم الدنيا كلها لم يكن في ذلك ثمن لدينكم ولم يغن عنكم شيئاً . فاتقوا الله واحتسبوا ما عنده فمن يرضى بالنكث منكم فإني لا أرضـاه له ولا يرضى الله سبحانه أن تنكثوا عهده . وأما الذي يخيرونني فإنما كله النزع والتأمير فملكت نفسي ومن معي ونظرت حكم الله وتغيير النعمة من الله سبحانه وتعالى وكرهتُ سُنة السوء وشقاق الأمة وسفك الدمـاء فإني أنشدكم بالله والإسلام ألا تأخذوا إلا الحق وتعطوه مني ، وتركَ

البغي على أهله وخذوا بيننا بالعدل كما أمركم الله عز وجل فإني أنشدكم الله سبحانه وتعالى الذي جعل عليكم العهد والمؤازرة في أمر الله فإن الله سبحانه قال وقوله الحق . (وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا) [1] فإن هذه معذرة إلى الله ولعلكم تذكرون .

أما بعد فإني لا أبرىء نفسي إن النفس لأمّارةٌ بالسوء إلا ما رَحم ربي إن ربي غفور رحيم . وإن عاقبتُ أقواماً فما أبتغي بذلك إلا الخير وإني أتوب إلى الله عز وجل من كل عمل عملته وأستغفره إنه لا يغفر الذنوب إلا هو إن رحمة ربي وسعت كل شيء إنه لا يقنط من رحمة الله إلا القوم الضالون وإنه يقبلُ التوبةَ عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تَفعلون . وأنا أسأل الله عز وجل أن يغفر لي ولكم وأن يؤلف قلوب هذه الأمة على الخير ويكرّه إليها الفسق .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته أيها المؤمنون والمسلمون .



هذا كتاب طويل كتبه عثمان رضي الله عنه وقرأه ابن عباس على أهل مكة في موسم الحج . وقد استشهد بكثير من آيات القرآن الكريم لأنه كان يحفظ القرآن ويكثر من تلاوته ويتعبد به . وهذه الآيات التي استشهد بها كان غرضه من إيرادها حض المؤمنين على طاعة الله والإعتصام بحبله والتخويف من عذاب الله وعاقبة نقض الإيمان بعد توكيدها ووجوب طاعة الله والرسول ، وأولي الأمر ولزوم الجماعة والتحذير من الإختلاف والتفريق .

ثم أمر بإقامة الحدود ورد المظالم وشكا إليهم ما يلقاه من الحصر

---

(١) سورة الإسراء آية ٣٤ .

ومنع الماء والزاد عنه وقال إنه لا يعتزل ولا يتخلى عن واجبه ولم يكره أحداً على اختياره خليفة بل اختاروه طائعين وذكر أنه تجنب سفك الدماء والشقاق . ثم تاب إلى الله واستغفره ولم يبرىء نفسه ، فإن النفس أمارة بالسوء وسأل الله أن يؤلف بين قلوب الأمة .

إلا أن هذا الكتاب لم يأت بالغرض الذي رمى إليه عثمان من تحريره وتلاوته لأن المحاصرين كانوا قد شددوا عليه الحصار فإن ابن عباس لما عاد إلى المدينة بعد تأدية فريضة الحج وجد عثمان قد قتل .

قتل عثمان

يوم الجمعة ٨ من ذي الحجة سنة ٣٥ هـ (١٧ من يونيه سنة ٦٥٦ م) .

قال ابن عديس لأصحابه لا تتركوا أحداً يدخل على عثمان ولا يخرج من عنده . وأصر المصريون على قتله ، وقصدوا الباب فمنعهم الحسن وابن الزبير ومحمد بن طلحة ومروان وسعيد بن العاص ومن معهم من أبناء الصحابة واجتلدوا فزجرهم عثمان وقال : أنتم في حل من نصرتي فأبوا ففتح الباب لمنعهم . فلما خرج ورآه المصريون رجعوا فركبهم هؤلاء وأقسم عثمان على أصحابه ليدخلن فدخلوا فأغلق الباب دون المصريين . .

فقام رجل من أسلم يقال له نيار بن عياض وكان من الصحابة فنادى عثمان فبينا هو يناشده أن يعتزلهم إذ رماه كثير بن الصلب الكندي [١] بسهم فقتله . فقالوا لعثمان عند ذلك ادفع إلينا قاتله لنقتله

(١) راجع تاريخ الأمم والملوك للطبري ، الجزء الخامس ص ١٣١-١٣٢

به . قال لم أكن لأقتل رجلاً نصرني وأنتم تريدون قتلي . فلما رأوا ذلك ثاروا إلى الباب فلم يمنعهم أحد منه والباب مغلق لا يقدرون على الدخول منه فجاءوا بنار فأحرقوه وثار أهل الدار وعثمان يصلي قد افتتح (طه) فما شغله ما سمع ما يخطىء وما يتتعتع حتى أتى عليها . فلما فرغ جلس إلى المصحف يقرأ فيه وقرأ : (الذينَ قالَ لَهُمُ النَّاسُ إنَ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُم إيماناً وَقَالُوا حَسْبُنَا الله ونِعْمَ الوَكِيلُ)[1] . فقال لمن عنده بالدار : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عهد إليّ عهداً فأنا صابر عليه . ولم يحرقوا الباب إلا وهم يطلبون ما هو أعظم منه .

اقتحم الناس الدار من الدورة التي حولها حتى ملأوها ولا يشعر الذين بالباب ممن وقفوا للدفاع . وأقبلت القبائل على أبنائهم فذهبوا بهم إذ غلبوا على أميرهم وندبوا رجلاً لقتله : فانتدب له رجل فدخل عليه البيت فقال .

« إخلعها وندعك » .

فقال : « ويحك والله ما كشفت امرأة في جاهلية ولا إسلام ولا تغنيتُ ولا تمنيت ولا وضعت يميني على عورتي منذ بايعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ولست خالعاً قميصاً كسانيه الله عز وجل : وأنا على مكاني حتى يُكرم الله أهل السعادة ويُهين أهل الشقاء » .

فخرج وقالوا ما صنعت ؟ فقال علقنا والله والله ما ينجينا من الناس إلا قتله ، وما يحل لنا قتله .

. فأدخلوا عليه رجلاً من بني ليث . فقال : ممن الرجل ؟ فقال : ليثي . فقال لست بصاحبي . قال : وكيف ؟ فقال : ألست الذي دعا

(١) آل عمران ١٧٣ .

لك النبي صلى الله عليه وسلم في نفر أن تحفظوا يوم كذا وكذا ؟ قال : بلى . قال : فلن تضيع ، فرجع وفارق القوم .

فأدخلوا عليه رجلاً من قريش . فقال : يا عثمان إني قاتلك؟. قال : كلا يا فلان لا تقتلني . قال : وكيف ؟ قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم استغفر لك يوم كذا وكذا ، فلن تقارف دماً حراماً . فاستغفر ورجع وفارق أصحابه .

فأقبل عبدالله بن سلام حتى قام على الباب ينهاهم عن قتله وقال :

« يا قوم لا تسلوا سيف الله عليكم . فوالله إن سللتموه لا تغمدوه ويلكم إن سلطانكم اليوم يقوم بالدرّة ، فإن قتلتموه لا يقوم إلا بالسيف ويلكم إن مدينتكم محفوفة بملائكة الله . والله لئن قتلتموه لتتركنها » .

فقالوا : يا ابن اليهودية وما أنت هذا فرجع عنهم [1] .

وروي عن عبد الملك بن عمير عن ابن أخي عبدالله بن سلام قال :

لما أريد قتل عثمان رضي الله عنه جاء عبدالله بن سلام فقال له عثمان : ما جاء بك ؟ قال : جئت في نصرك . قال : اخرج إلى الناس فاطردهم عني فإنك خارج خير إليّ منك داخل . فخرج عبدالله إلى الناس فقال :

« أيها الناس إنه كان اسمي في الجاهلية فلاناً فسماني رسول الله صلى الله عليه وسلم عبدالله . ونزلت فيّ آيات من كتاب الله عز وجل . ونزل فيّ (وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ

---

(١) عبدالله بن سلام الاسرائيلي وكان اسمه في الجاهلية «الحصين» فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم عبدالله وكان اسلامه لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة .

وَاسْتَكْبَرْتُمْ) [1] ونزل فيّ (قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الكِتَابِ) [2] إن لله سيفاً مغموداً وإن الملائكة قد جاورتكم في بلدكم هذا الذي نزل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم . فاللهَ اللهَ في هذا الرجل إن تقتلوه لتطردن جيرانكم الملائكة ، وليسلنّ سيف الله المغمود فيكم ، فلا يغمد إلى يوم القيامة » قالوا : اقتلوا اليهودي . فانظر الفرق الشاسع بين عبدالله بن سلام الذي تطوع للدفاع عن عثمان وبين عبدالله بن سبأ الذي كان يحرض الناس على قتله ، فإن كليهما كان يهودياً وأسلم .

وكان آخر من دخل عليه ممن رجع إلى القوم محمد بن أبي بكر . فقال له عثمان :

ويلك أعلى الله تغضب ؟ هل لي إليك جُرم إلا حق أخذته منك ؟ ورجع .

فلما خرج محمد بن أبي بكر وعرفوا انكساره ثار قتيرة وسودان بن حُمران والغافقي لعنهم الله فضربه الغافقي بحديدة معه وضرب المصحف برجله فاستدار المصحف فاستقر بين يديه ، وسالت عليه الدماء ، وجاء سودان بن حمران ليضربه فانكبت عليه زوجة عثمان نائلة واتقت السيف بيدها فتعمدها ونفح أصابعها ، فأطن أصابع يدها فغمز أوراكها وقال إنها لكبيرة العجيزة ، وضرب عثمان فقتله ودخل غلمة لعثمان مع القوم لينصروه وقد كان عثمان أعتق من كف منهم ، فلما رأوا سودان قد ضربه أهوى له بعضهم فضرب عنقه فقتله ووثب قتيرة

---

(١) سورة الأحقاف آية ١٠ .

(٢) سورة الرعد آية ٤٣ .

على الغلام فقتله وانتهبوا ما في البيت وأخرجوا من فيه ، ثم أغلقوه على ثلاثة قتلى [1] .

فلما خرجوا إلى الدار وثب غلام لعثمان آخر على قتيرة فقتله ودار القوم فأخذوا ما وجدوا حتى تناولوا ما على النساء وأخذ رجل مُـــلاءة نائلة والرجل يدعى كلثوم بن تجيب فتنحت نائلة . فقال وَيحَ أمك من عجيزة ما أتمك وبصر به غلام لعثمان فقتله وقُتل وتنادى القوم أبصـــر رجل من صاحبه وتنادوا في الدار : أدركوا بيت المال لا تسبقوا إليـــه وسمع أصحاب بيت المال أصواتهم وليس فيه إلا غرارتان . فقالوا النجاء فإن القوم إنما يحاولون الدنيا فهربوا وأتوا بيت المال فانتهبوه وماج الناس فيه فالتانئ يسترجع ويبكي والطارئ يفرح وندم القوم

وكان الزبير قد خرج من المدينة فأقام على طريق مكة لئلا يشهد مقتله . فلما أتاه الخبر بمقتل عثمان وهو بحيث هو قال :

« إنا لله وإنا إليه راجعون . رحم الله عثمان » وانتصر له وأتى الخبر طلحة فقال : « رحم الله عثمان » وانتصر له وللإسلام وقيل له إن القوم نادمون فقال تباً لهم وقرأ فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون .

وأتى علي فقيل قتل عثمان فقال : رحم الله عثمان وخلف علينا بخير . وقيل ندم القوم فقرأ : كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفُر .. الآية .

وطُلب سعد فإذا هو في حائطه وقد قال لا أشهد قتله . فلما جاء قتله قال : فررنا من المدينة فدنينا وقرأ : (الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً)[2] اللهم أندمهم ثم خذهم .

---

(١) راجع تاريخ الطبري ، الجزء الخامس ص ١٣٠ .

(٢) سورة الكهف آية ١٠٤ .

وفي رواية أخرى :

إن محمد بن أبي بكر تسوَّر على عثمان من دار عمرو بن حزم ومعه كنانة بن بشر بن عتّاب وسودان بن حُمران وعمرو بن الحمـــق . فوجدوا عثمان عند امرأته نائلة وهو يقرأ في المصحف سورة (البقرة) فتقدمهم محمد بن أبي بكر فأخذ بلحية عثمان فقال : قد أخزاك الله يـــا نَعْثَل [1] .

فقال عثمان : لستُ بنعثل ولكن عبدالله وأمير المؤمنين . فقـــال محمد : ما أغني عنك معاوية وفلان وفلان . فقال عثمان : يا ابن أخي دع عنك لحيتي فما كان أبوك ليقبض على ما قبضت عليه . فقال محمد : ما أريد بك أشد من قبضي على لحيتك . فقال عثمان : أستنصر الله عليك وأستعين به . ثم طعن جبينه بمِشْقَص[2] في يده . ورفع كنانة بن بشر ابن عتّاب مشاقص كانت في يده فوجأ بها (ضرب) في أصل أذن عثمان فمضت حتى دخلت في حلقه ثم علاه بالسيف حتى قتله وقيل : ضرب كنانة بن بشر جبينه ومُقدَّم رأسه بعمود فخر لجنبـــه وضربه سودان بن حُمران المرادي بعدما خر لجنبه فقتله . وأما عمرو ابن الحَمِق[3] فوثب على عثمان فجلس على صدره وبه رمق فطعنـــه

---

(١) نعثل رجل مصرف طويل اللحية كان يشبه به عثمان اذا نيل منه وعيب ولم يكونوا يجدون فيه عيبا غير هذا .

(٢) المشقص سهم فيه نصل عريض .

(٣) اسلم بعد الحديبية ؛ صحب النبي صلى الله عليه وسلم وحفظ عنه أحاديث ثم جاء مصر وانتقل منها الى الكوفة . قيل أنه سقى النبي صلى الله عليه وسلم فقال اللهم متعه شبابه فمرت عليه ثمانون سنة لا ترى في لحيته شعرة بيضاء . قال ابن الاثير في اسد الغابة : وهو احد الاربعة الذين دخلوا على عثمان الدار وصار بعد ذلك من شيعة علي . وقيل : أول راس حمل في الاسلام راس عمرو بن الحمق الى معاوية .

تسع طعنات وقال : أما ثلاث منهن فإني طعنتهن لله . وأما ست فإني طعنت إياهن لما كان في صدري عليه .

وعن جدة الزبير بن عبدالله قالت :

لما ضربه المشاقص قال عثمان : « بسم الله توكلت على الله » وإذا الدم يسيل على اللحية يقطر والمصحف بين يديه فاتكأ على شقه الأيسر وهو يقول : « سبحان الله العظيم » وهو في ذلك يقرأ المصحف والدم يسيل على المصحف حتى وقف الدم عند قوله تعالى . ﴿ فسيكفيكهم اللهُ وَهُوَ السميعُ الْعَليمُ ﴾ [1] وأطبق المصحف وضربوه جميعاً ضربة واحدة . فضربوه والله — بأبي — وهو يحيي الليل في ركعة ويصل الرحم ويُطعم الملهوف ويحمل الكَلّ فرحمه الله » . [2]

وعن الزهري قال :

قتل عثمان عند صلاة العصر ، وشد عبد لعثمان أسود على كنانة ابن بشر فقتله ، وشد سودان على العبد فقتله . ودخلت الغوغاء دار عثمان فصاح إنسان منهم : أيحل دم عثمان ولا يحل ماله ؟ فانتهبوا متاعه . فقامت نائلة فقالت : لصوص ورب الكعبة ! يا أعداء الله ما ركبتم من دم عثمان أعظم . أما والله لقد قتلتموه صوّاماً قوّاماً يقرأ القرآن في ركعة . ثم خرج الناس من دار عثمان فأغلق بابه على ثلاثة قتلى : (١) عثمان . (٢) وعبد عثمان الأسود . (٣) وكنانة بن بشر .

وقد اختلف الرواة في حكاية محمد بن أبي بكر فذكر بعضهم أنه طعن جبين عثمان بمشقص كان في يده . وقيل إن عثمان لما أمسك محمد

---

(١) سورة البقرة آية ١٣٧ .
(٢) الطبري ص ١٣١ — ١٣٢ يذكر الروايات المتعددة .

لحيته قال له عثمان : أستنصر الله عليك وأستعين به فتركه . وابن الأثير يرجح أنه تركه ولم يضربه .

وذكر ابن الأثير أنهم أرادوا قطع رأسه فوقعت نائلة عليه وأم البنين فصحن وضربن الوجوه ، فقال ابن عديس : اتركوه وأقبل عمير بن ضابيء فوثب عليه وكسر ضلعاً من أضلاعه وقال : سجنت أبي حتى مات في السجن .

وبلغ الخبر علياً وطلحة والزبير وسعداً فخرجوا وقد ذهبت عقولهم للخبر حتى دخلوا على عثمان فقال عليّ لابنيه : كيف يقتل أمير المؤمنين وأنتما على الباب ورفع يده فلطم الحسن وضرب الحسين على صدره وشتم محمد بن طلحة وعبدالله بن الزبير وخرج وهو غضبان حتى أتى منزله فجاء الناس يهرعون إليه يريدون مبايعته فقال : « والله إني لأستحي أن أبايع قوماً قتلوا عثمان وإني لأستحي من الله تعالى أن أبايع وعثمان لم يدفن » فافترقوا وتمت البيعة له .

مروان ودفاعه عن عثمان (١)

لما ألقى الناس النيران في أبواب دار عثمان فاحترق بعضها قال ما احترق الباب إلا لما هو أعظم منه . لا يحركن رجل منكم يده . فوالله لو كنت أقصاكم لتخطوكم حتى يقتلوني . ولو كنت أدناكم ما جاوزوني إلى غيري وإني لصابر كما عهد إليّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصرعن مصرعي الذي كتب الله عز وجل لي .

فقال مروان والله لا تقتل وأنا أسمع الصوت . ثم خرج بالسيف على الباب يتمثل بهذا الشعر :

---

(١) تاريخ ابن الأثير ، الجزء الثالث ، ص ٨٧ .

قد علمتْ ذات القرون الميل والكف والأنامل الطفول
أني أروع أول الرعيـــل بغارة مثل قَطا الشليـــل

ثم صاح : من يبارز وقد رفع أسفل درعه فجعله في منطقته فوثب إليه ابن النباع فضربه على رقبته من خلفه فأثبته حتى سقط فما ينبض منه عرق فأدخل بيت فاطمة ابنة أوْس جدة إبراهيم بن العدِيّ وكانــت أرضعت مروان وأرضعت له وفي رواية أنّ فاطمة وثبت على عبيــد بن رفاع الذي أراد أن يجهز عليه بعد ضربة ابن النباع وقالت إن كنت إنما تريد قتل الرجل فقد قتل وإن كنت تريد أن تلعب بلحمه فهذا قبيــح فكف عنه فما زالوا يشكرونها لها فاستعملوا ابنها إبراهيم بعد .

فظاعة الجرم !!

لم يتوقع أحد من الصحابة أن يُقتل عثمان . أما الحسن والحسين ومن معهما فقد كانوا يحرسون بابه . ولكن القتلة تسوروا عليه من دار مجاورة لداره . لقد قتلوه قتلة شنيعة ترتعد منها الفرائص ومثلوا به وهو يتلو القرآن وكانت تلاوة القرآن نوعــاً من العبادة فضربه بعضهم بحديدة وبعضهم ضربه بمشقص وطعنه آخر تسع طعنات وكسر الآخر ضلعاً من أضلاعه ولم يكتفوا بذلك بــل تعدوا على امرأتــه المخلصة بالسيف وببذيء الكلام وأرادوا قطع رأسه بعد أن فارق الحياة ونهبوا أمتعــة المنزل وما في بيت المال ومنعوا عنه الماء أثناء الحصار حتى غضب عليّ وهالته قسوتهم فقال لهم : « أيها الناس إن الذي تفعلونلا يشبه أمــر المؤمنين ولا أمر الكافرين فلا تقطعوا عن هذا الرجل الماء ولا المادة فإن الروم وفارس لتأسر فتطعم وتسقي » .

لا أحد يبرر قتل عثمان والتمثيل به، ولم يجترىء عليه أحد من كبار الصحابة حتى المخالفين له في الرأي ، لأنهم كانوا يجلونه ويوقرونه

لمكانه من رسول الله وأياديه البيضاء في سبيل الإسلام وحسن أخلاقه وعواطفه وسائر فضائله التي لا ينكرها أحد .

لا شك أن هؤلاء القتلة مجرمون : غلاظ الأكباد ، قساة القلوب فلم يراعوا حرمة صحبته للرسول وصهره ومنزلته في الإسلام وخدماته الجليلة وبذل الأموال الطائلة لنصرته ورفعته . ولم يخجلوا من التهجم على رجل فاضل قال عنه رسول الله : « إن الملائكة تستحي منه » . رجل سهل ، لين ، كريم ، كف يده ونهى عن سفك دم المسلمين ، وهو محاصر أشد الحصار ، مهدد بالقتل ، وكان مثال الصالحين والقراء للقرآن وعاش محبباً للناس لا يميل إلى الشدة والعنف . لقد فتكوا به وهو قابع في بيته يتعبد بتلاوة القرآن ونهى أصحابه حتى عن الدفاع عنه . فأي قلب لا ينفطر وأي دمع لا ينهمر وأي فؤاد لا يذوب كمداً وأسى على قتل الخليفة الصالح من غير أن يرتكب إثماً يوجب القتل .

إن الذي جنى على عثمان وبغضه في الناس هم — كما قلنا وقال غيرنا من كبار المؤرخين المحققين أقاربه الذين كان يحسن إليهم فإنهم كانوا مستشاري سوء ولم يكن لهم رأي صائب ونظر بعيد وكانوا مع ذلك يصرفونه حسب أغراضهم وأهوائهم لا حسب ما تقضي بـه مصلحة المسلمين عامة ، وقد ظل عثمان كما قيل ست سنوات في بدء حكمه وهو أحب الناس إلى الناس . فلو أنه ترك وشأنه يدبر الأمور بطبيعته الخيّرة الهادئة التي لا تميل إلى الشدة والقسوة والتعدي . وباطفه وأدبه وإحسانه وبما اشتهر عنه أيام الرسول لما شكا منه شاك بل لكان عهده عهد خير وسلام . لكن أقاربه قد تمكّن منهم حب الذات والجشع فانتهزوا فرصة خلافته واستغلوا صفة حميدة فيه ألا وهي صلة الرحم ، فكانوا يأتونه من هذه الجهة لينالوا مآربهم من ولاية وثراء واستئثار بالحكم وقد تحكموا فيه زمن شيخوخته

فلم يقوَ على مقاومتهم وخلافهم . فكان ما كان من سفك دمه وبث بذور الفتن والشقاق .

قال جيبون في كتاب سقوط الأمبراطورية الرومانية : « إن عثمان اختار فخُدع . ووثق فغُدر وصار من كان موضع ثقته عديم الفائدة وعدواً لحكومته وانقلب إحسانه جوراً وتذمراً . »

قتلة عثمان وخاذلوه

أجمع أهل السنة على أن عثمان كان إماماً على شرط الإستقامة إلى أن قُتل ، وأجمعوا على أن قاتليه قتلوه ظلماً ؛ فإن كان فيهم من استحل دمه فقد كفر . ومن تعمد قتله من غير استحلال كان فاسقاً غير كافر والذين هجموا عليه واشتركوا في دمه معروفون يقطع بفسقهم : منهم محمد بن أبي بكر ورفاعة بن رافع والحجاج بن غزنة وعبد الرحمن بن خصل الجمحي وكنانة بن بشر النخعي وسندان بن حمران المرادي وبسرة ابن رهم ومحمد بن أبي حذيفة ، وابن عتيبة وعمرو بن الحمق الخزاعي.

وأما الذين قعدوا عن نصرة عثمان فهم فريقان : فريق كانوا معه في الدار فدفعوا عنه كالحسن بن علي بن أبي طالب : وعبدالله بن عمر والمغيرة بن الأخنس ، وسعيد بن العاص وسائر من كان في الدار من موالي عثمان ، إلى أن أقسم عليهم بترك القتال وقال لغلمانه « من وضع السلاح فهو حر » فهؤلاء أهل طاعة وبر وإحسان . والفريق الثاني من القعدة عن نصرته فريقان : فريق أرادوا نصرة عثمان فنهاهم عثمان عنها كعلي بن أبي طالب وسعد بن أبي وقاص وأسامة بن زيد ومحمد بن مسلمة وعبدالله بن سلام ، فهؤلاء معذورون لأنهم قعدوا عنه بأمره . والفريق الثاني قوم من السوقة أعانوا الهاجمين فشاركوهم في الفسق والله حسيبهم .

ودليلنا على براءة عثمان مما قذف به ورود الروايات الصحيحة بشهادة الرسول له صلى الله عليه وسلم بالجنة عند تجهيز جيش العسرة : وما روي من أنه يدخل الجنة بلا حساب ولا يدخل الجنة إلا مؤمن . وقد روي أن النبي صلى الله عليه وسلم صعد جبل حراء ، ومعه أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ، فقال اسكن حراء فما عليك إلا نبي أو صدّيق أو شهيد ، وفي هذا دليل على أن عثمان قتل شهيداً ودليل صحة إمامته إجماع الأمة بعد عمر أن الإمامة لواحد من أهل الشورى وكانوا ستة فاجتمع خمسة عليه فحصل إجماع الأمة على إمامته [1]

كتاب نائلة بنت الفرافصة الى معاوية

كتبت نائلة بنت الفرافصة زوجة عثمان رضي الله عنه إلى معاوية كتاباً مع النعمان بن بشير وبعثت إليه بقميص عثمان مخضباً بالدماء . وهذا هو نص كتابها :

« من نائلة بنت الفرافصة إلى معاوية بن أبي سفيان .

« أما بعد . فإني أدعوكم إلى الله الذي أنعم عليكم وعلمكم الإسلام وهداكم من الضلالة . وأنقذكم من الكفر . ونصركم على العدو . وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة . وأنشدكم الله وأذكركم حقه وحق خليفته أن تنصروه بعزم الله عليكم فإنه قال : (وإن طَائِفَتَانِ مِنَ المؤمنينَ اقتَتَلوا فَأَصْلِحُوا بيْنَهما فإن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إلى أَمْرِ اللَّهِ) [2] فإن أمير المؤمنين بغى

---

(١) راجع كتاب أصول الدين تاليف أبي منصور عبد القاهر بن طاهر التميمي البغدادي . المجلد الأول ص ٢٨٧ — ٢٨٩ الطبعة الأولى باستنبول سنة ١٣٤٦ — ١٩٢٨ .

(٢) سورة الحجرات آية ٩ .

عليه ولو لم يكن لعثمان عليكم إلا حق الولاية لحق على كل مسلم يرجو إمامته أن ينصره فكيف وقد علمتم قدمه في الإسلام وحسن بلائه وأنه أجاب الله وصدق كتابه واتبع رسوله والله أعلم به ، إذ انتخبه فأعطاه شرف الدنيا وشرف الآخرة ، وإني أقص عليكم خبره . إني شاهدة أمره كله . إن أهل المدينة حصروه في داره وحرسوه ليلهم ونهارهم قياماً على أبوابه بالسلاح يمنعونه من كل شيء قدروا عليه حتى منعوه الماء فمكث هو ومن معه خمسين ليلة وأهل مصر قد أسندوا أمرهم إلى محمد بن أبي بكر وعمار بن ياسر وطلحة والزبير فأمروهم بقتله . وكان معهم من القبائل خزاعة وسعد بن بكر وهذيل وطوائف من جهينة ومزينة وأنباط يثرب . فهؤلاء كانوا أشد الناس عليه . ثم إنه حصر فرشق بالنبل فجرح ممن كان في الدار ثلاثة نفر . فأتاه الناس يصرخون إليه ليأذن لهم في القتال فنهاهم وأمرهم أن يردوا إليهم نبلهم فردوها عليهم . فما زادهم ذلك في القتل إلا جرأة وفي الأمر إلا إغراقاً فحرقوا باب الدار . ثم جاء نفر من أصحابه فقالوا إن ناساً يريدون أن يأخذوا من الناس بالعدل فاخرج إلى المسجد يأتوك فانطلق فجلس فيه ساعة وأسلحة القوم مطلة عليه من كل ناحية . فقال ما أرى اليوم أحداً يعدل . فدخل الدار وكان معهم نفر ليس على عامتهم سلاح . فلبس درعه وقال لأصحابه لولا أنتم ما لبست اليوم درعي . فوثب عليه القوم فكلمهم ابن الزبير وأخذ عليهم ميثاقاً في صحيفة بعث بها إلى عثمان . عليكم عهد الله وميثاقه أن لا تقربوه بسوء حتى تكلموه وتخرجوا . فوضع السلاح ، ودخل عليه القوم يقدمهم محمد بن أبي بكر . فأخذ بلحيته ودعوا باللقب . فقال أنا عبدالله وخليفته عثمان فضربوه على رأسه ثلاث ضربات وطعنوه في صدره ثلاث طعنات وضربوه على مقدم العين فوق الأنف ضربة أسرعت في العظم فسقطت عليه وقد أثخنوه وبه

حياة وهم يريدون أن يقطعوا رأسه فيذهبوا به فأتتي ابنة شيبة بن ربيعة فألقت بنفسها معي فوطئنا وطئاً شديداً عرينا من حلينا وحرمة أمير المؤمنين أعظم . فقتلوا أمير المؤمنين في بيته مقهوراً على فراشه . وقد أرسلت إليكم بثوبه عليه دمه فإنه والله إن كان أثم من قتله فما سلم من خذله فانظروا أين أنتم من الله وأنا أشتكي كل ما مسنا إلى الله عز وجل وأستصرخ بصالحي عباده . فرحم الله عثمان ولعن قتلته وصرعهم في الدنيا مصارع الخزي والمذلة وشفى منهم الصدور » .

فحلف رجال من أهل الشام أن لا يمسوا غسلاً حتى يقتلوا علياً أو تفنى أرواحهم .

وهذا كتاب طويل ذكرت فيه زوجة عثمان تفاصيل قتله بعد أن فجعت بفقده لكنها لم تذكر أسماء من باشروا القتل . وقد كانت نائلة من أخلص المخلصين لزوجها ودافعت عنه بقدر طاقتها وعرضت نفسها للقتل . وهكذا فليكن الوفاء والإخلاص . وقد حرضت معاوية والمسلمين بهذا الكتاب على الأخذ بالثأر .

موقف علي رضى الله عنه إزاء قتل عثمان

كان علي رضي الله عنه أحد الستة الذين رشحهم عمر بن الخطاب للخلافة بعده . وقد بايع عبد الرحمن بن عوف عثمان بناء على ما اجتمع إليه من رأي أصحاب رسول الله وأمراء الأجناد وأشراف الناس .

قال عمار إن أردت ألاّ يختلف المسلمون فبايع علياً . فقال المقداد ابن الأسود : صدق عمار : إن بايعت علياً قلنا سمعنا وأطعنا . وقال ابن أبي سرح : إن أردت أن لا تختلف قريش فبايع عثمان . فقال عبدالله بن أبي ربيعة صدق : إن بايعت عثمان قلنا سمعنا وأطعنا . فشتم عمار بن أبي سرح وقال : ومتى كنت تنصح المسلمين .

وأخيراً بايع عثمان فاستاء عليّ وقال حبوته حبو دهر . ليس هذا أول يوم تظاهرتم فيه علينا (يعني بني أمية) فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون . والله ما وليت عثمان إلا ليرد الأمر إليك ، والله كل يوم هو في شأن .

فقال عبد الرحمن يا علي لا تجعل على نفسك سبيلا فإني نظرت وشاورت الناس ، فإذا هم لا يعدلون بعثمان . فخرج علي وهو يقول سيبلغ الكتاب أجله .

بايع عبد الرحمن عثمان لأنه كما قال نظر وشاور وهو مع ذلك صهر عثمان وكان لعلي رجال يؤيدونه لكنه سكت بعد ذلك وأطاع . وكان عثمان يعرف قدره ويقدر رأيه غير أنه تركه ولم يقلده ولاية ما فلما اشتدت الفتنة لجأ إليه يستشيره ويستنجد به ليرد عنه عادية الأعداء فبذل له من النصح أخلصه فلم يعمل بنصحه لتسلط حاشيته ومستشاريه عليه وقد كانوا يبغضونه في علي خشية أن يطيعه فيفسد عليهم سياستهم وتدابيرهم .

لم يكن عليّ يتحامل على عثمان بل كان يجله لقد قال له وهو يحدثه في أمر الفتنة :

« والله ما أدري ما أقول لك وما أعرف شيئاً تجهله ولا أدلك على أمر لا تعرفه . إنك لتعلم ما نعلم . ما سبقناك إلى شيء فنخبرك عنه ولا خلونا بشيء فنبلغكه وما خصصنا بأمر دونك . وقد رأيت وسمعت صحبت رسول الله صلى الله عليه وسلم ونلت صهره الخ » .

ثم أظهر له علي موضع ضعفه وسبب شكوى الناس فقال :

« ضعفت ورفقت على أقربائك » وقال: « إن معاوية يقطع الأمور دونك وأنت تعلمها فيقول للناس هذا أمر عثمان فيبلغك ولا تغيّر على معاوية » .

ولما ذهب عثمان إلى عليّ في بيته يسأله أن يرد المصريين عنه قال له « قد كلمتك مرة بعد أخرى فكل ذلك تخرج وتقول ، ثم ترجع عنه وهذا من فعل مروان وابن عامر ومعاوية وعبدالله بن سعد . فإنك أطعتهم وعصيتني » فقال عثمان : فأنا أعصيهم وأطيعك . فركب عليّ ورد عنه المصريين .

ولما خطب عثمان وتاب ، ثم خرج مروان وشتم الناس وأفسد عليه توبته غضب علي — وحق له أن يغضب — نصحته زوجته نائلة أن يستصلحه .

ثم طلب عثمان المهلة ثلاثة أيام وأكد لعليّ أنه يعطيهم الحق من نفسه ومن غيره . فخرج فأخبرهم بذلك وكتب بينهم وبين عثمان كتاباً أجله فيه ثلاثاً على أن يرد كل مظلمة ويعزل كل عامل كرهوه . فكف المسلمون عنه ورجعوا إلا أنه كان قد طلب الأجل انتظاراً للمدد من الأمصار حتى إذا قدموا وأنس القوة حاربهم كما أوحى إليه مروان ابن الحكم . وما كان علي يدري شيئاً من ذلك بل كان يحسب أنه إنما طلب الأجل ليتسنى له إجابتهم إلى ما يريدون في هذه المدة لأنه قال له : « اضرب بيني وبينهم أجلاً يكون فيه مهلة فإني لا أقدر على رد ما كرهوا في يوم واحد » ومضت الأيام الثلاثة ولم يغيّر شيئاً . وعدا ذلك أمر عليّ ابنه وأبناء الصحابة أن يحرسوا باب عثمان فماذا يصنع عليّ بعد ذلك ؟ وماذا كان في طاقته ؟ .

وعن شداد بن أوس قال : لما اشتد الحصار بعثمان يوم الدار أشرف على الناس فقال : يا عباد الله . قال فرأيت عليّ بن أبي طالب خارجاً من منزله معتماً بعمامة رسول الله صلى الله عليه وسلم متقلداً سيفه . أمامه الحسن وعبدالله بن عمر في نفر من المهاجرين والأنصار حتى حملوا على الناس وفرقوهم ، ثم دخلوا على عثمان فقال له علي :

السلام عليك يا أمير المؤمنين إن رسول الله صلى الله عليه لم يلحق هذا الأمر حتى ضرب بالمقبل المدبر وإني لأرى القوم إلا قاتليك فمرنا فلنتقاتل . فقال عثمان أنشد الله رجلاً رأى لله حقاً وأقر أن لي عليه حقاً أن يهريق في سببي ملء محجمة من دم أو يهريق دمه فيّ . فأعاد عليّ عليه القول فأجابه بمثل ما أجابه ، ثم دخل المسجد وحضرت الصلاة فقالوا يا أبا الحسن تقدم فصل بالناس فقال لا أصلي بكم والإمام محصور ، ولكن أصلي وحدي فصلى وحده وانصرف إلى منزله الخ .

وأخذ علي يبحث عن قتلة عثمان فسأل امرأته فقالت لا أدري إلا أن دخل عليه محمد بن أبي بكر ومعه رجلان لا أعرفهما فدعا محمداً وسأله ، قال والله لم تكذب دخلت عليه وأنا أريد قتله فذكر لي أبي فقمت عنه وأنا تائب لله .

وجميع الروايات تثبت براءة عليّ رضي الله عنه من دم عثمان .

رؤيا عثمان (١)

عن عبدالله بن سلام أنه قال :

أتيت عثمان وهو محصور أسلم عليه فقال : مرحباً بأخي مرحباً بأخي . أفلا أحدثك ما رأيت الليلة في المنام ؟ فقال بلى . قال رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الخَوْخة (كوة يؤدى منها الضوء إلى البيت) وإذا خوخة في البيت . فقال أحصروك ؟ فقلت نعم . فقال عطشوك ؟ فقلت نعم . فأدلى لي دلواً من ماء فشربت حتى رويت فإني لأجد برداً بين كتفيّ وبين بدني . إن شئت نصرت عليهم وإن شئت أفطرت عندنا . قال فاخترت أن أفطر عندهم . قال فقتل عثمان في ذلك اليوم .

---

(١) راجع البداية والنهاية لابن كثير الجزء السابع ص ١٩٥ .

وعن مسلم عن أبي سعيد مولى عثمان أن عثمـــان أعتق عشرين مماوكاً ودعا بسراويل فشدها عليه ولم يلبسها في جاهلية ولا إسلام . قال إني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم البارحة وأبا بكر وعمر فقالوا لي صبراً فإنك تفطر عندنا القابلة : ثم دعا بمصحف فنشره بين يديه .

عن ابن عمر أن عثمان أصبح يحدث الناس . قال رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام . قال يا عثمان أفطر عندنا غداً فأصبـــح صائماً وقتل من يومه . واختلاف الروايات محمول على تكرار الرؤيـــا فكانت مرة نهاراً ومرة ليلاً .

وصيته

عن العلاء بن الفضل عن أمه . قال لما قتل عثمان فتشوا خزائنـــه فوجدوا فيها صندوقاً مقفلاً ففتحوه فوجدوا فيه ورقة مكتوباً فيها :

« هذه وصية عثمان : بسم الله الرحمن الرحيم . عثمان بن عفان يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، وأن الجنة حق، وأن النار حق وأن الله يبعث من في القبور ليوم لا ريب فيه . إن الله لا يخلـــف الميعاد . عليها يحيي وعليها يموت ، وعليها يبعث إن شاء الله .

آخر خطبة لعثمان رضي الله عنه

ذكر الطبري آخر خطبة خطبها عثمان رضي الله عنه في جماعة :

« إن الله عز وجل إنما أعطاكم الدنيا لتطلبوا بها الآخرة ولـــم يعطكموها لتركنوا إليها . إن الدنيا تفنى والآخرة تبقى . فلا تُبطرنكم الفانية ولا تشغلنكم عن الباقية فآثروا ما يبقى على ما يفنى ، فإن الدنيا منقطعة وأن المصير إلى الله : اتقوا الله عز وجل فإن تقواه جُنة من بأسه

ووسيلة عنده . واحذروا من الله الغِيَرَ والزموا جماعتكم ولا تصيروا أحزاباً (واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا)[1] .

دفن عثمان رضي الله عنه

قيل بقي عثمان ثلاثة أيام لم يدفن، ثم إن حكيم بن حزام وجبير ابن مطعم ، كلما علياً في أن يأذن في دفنه فقعدوا له في الطريق بالحجارة وخرج به ناس يسير من أهله وغيرهم ، وفيهم الزبير والحسن وأبو جهم بن حذيفة ومروان بين المغرب والعشاء فأتوا به حائطاً من حيطان المدينة يسمى حَش كوكب[2] وهو خارج البقيع فصلى عليه جبير بن مطعم ، وخلفه حكيم بن حزام وأبو جهم بن حذيفة ونيار بن مكرم الأسلمي ، وجاء ناس من الأنصار ليمنعوا من الصلاة عليه ، ثم تركوهم خوفاً من الفتنة .

وعن الربيع بن مالك بن أبي عامر ، عن أبيه قال : كنت أحد حملة عثمان بن عفان حين توفي حملناه على باب ، وإن رأسه يقرع الباب لإسراعنا به وإن بنا من الخوف لأمراً عظيماً ، حتى واريناه في قبره في حش كوكب .

وأرسل عليّ إلى من أراد أن يرجم سريره ممن جلس على الطريق لما سمع بهم فمنعهم عنه .

ونزل في قبره بيان وأبو جهم وحبيب . وقيل شهد جنازته علي وطلحة وزيد بن ثابت ، وكعب بن مالك وعامة من أصحابه .

وعن الحسن قال : شهدت عثمان بن عفان دفن في ثيابه بدمائه وفي البخاري أنه لم يغسل .

---

(١) سورة آل عمران ١٠٣ .
(٢) الحش : البستان .

مدة حياته

كانت مدة حياة عثمان على المشهور ٨٢ سنة . قال الواقدي : لا خلاف عندنا أنه قتل وهو ابن اثنتين وثمانين سنة وهو قول أبي اليقظان .

خطبة علي رضى الله عنه
عند بيعته بعد مقتل عثمان رضي الله عنه

أيها الناس، كتاب الله وسنة نبيكم . لا يدع مدع إلا على نفسه. شُغِلَ الجنةُ والنارُ أمامه . ساع نجا . وطالبٌ يرجو . ومقصر في النار ، ثلاثة وإثنان : ملَكٌ طار بجناحيه ، ونبي أخذ الله بيديه ، لا سادسَ . هلك من اقتحم . وردِيَ من هوى . واليمين والشمال مضَلّة ، الوسطى الجادّةُ : منهج عليه باق الكتاب وآثار النبوة . إن الله أدّب هذه الأمة بأدبين : السوطِ والسيفِ ، فلا هوادة فيهما عند الإمام . فاستتّروا ببيوتكم ، وأصلحوا ذاتَ بينكم ، والتوبة من ورائكم من أبدى صفحته للحق هلك . قد كانت أمور ملتم علي فيها مَيلة لم تكونوا عندي محمودين ولا مصيبين . والله أن لو أشاء أن أقول لقلت . عفا الله عما سلف . انظروا ، فإن أنكرتم فأنكروا وإن عرَفتم فازروُا . حق وباطل ولكل أهل والله لئن أمِرَ الباطل لقديماً فعل . ولئن أمر الحق لَرُبَّ ولعل . ما أدبر شيء فأقبل [١] .

عمال عثمان سنة وفاته (٢)

قتل عثمان بن عفان رضي الله عنه وعماله على الأمصار كما يلي :

(١) عبدالله بن الحضرمي على مكة .

(٢) القاسم بن ربيعة الثقفي على الطائف .

---

(١) عيون الأخبار لابن قتيبة المجلد الثاني . طبعة دار الكتب المصرية ص ٢٣٦ .

(٢) ابن الأثير الجزء الثالث ص ٩٣ .

(٣) يعلى بن منية على صنعاء .
(٤) عبدالله بن ربيعة على الجند .
(٥) عبدالله بن عامر على البصرة . خرج منها ولم يول عليها عثمان
(٦) سعيد بن العاص على الكوفة .
(٧) عبدالله بن سعد بن أبي سرح على مصر .
(٨) معاوية بن أبي سفيان على الشام .
(٩) عبد الرحمن بن خالد بن الوليد على حمص .
(١٠) حبيب بن مسلمة على قنسرين .
(١١) أبو الأعور بن سفيان على الأردن .
(١٢) علقمة بن حكيم الكناني على فلسطين .
(١٣) عبدالله بن قيس الفزاري على البحرين .
(١٤) أبو الدرداء على القضاء .
(١٥) جرير بن عبدالله على قرقيسياء .
(١٦) الأشعث بن قيس على آذربيجان .
(١٧) عتيبة بن النهاس على حُلوان .
(١٨) مالك بن حبيب على ماه .
(١٩) النسَير على همذان .
(٢٠) سعيد بن قيس على الرَّيّ .
(٢١) السائب بن الأقرع على أصبهان .
(٢٢) حبيش على ماسبذان .
(٢٣) عقبة بن عمرو على بيت المال .
(٢٤) زيد بن ثابت على قضاء عثمان .

فتوح المسلمين في خلافة عثمان

حكم عثمان رضي الله عنه اثني عشر عاماً وكانت خلافته فتحاً

وفوزاً للمسلمين امتدت سطوتهم إلى بلاد النوبة في مصر واتصلت بحدود الهند حتى ضربت النقود الإسلامية على ما قيل بهراة ، وأنشأوا الأساطيل بعد أن لم يكن لهم سفينة واحـــدة في البحر وغزوا الجزر وحاربوا في البحر وزادت هيبتهم في نفوس الدول الأخرى ، ولا سيما الروم ، وفتح المسلمون شمالي إفريقية وقتلوا آخر ملك للفرس وغزوا الترك وواصلوا الفتوح حتى القوقاز مجتازين الفيافي والقفار والجبـــال ، واستولوا على جزيرة قبرس ورودس واستأذن معاوية بفتح القسطنطينية فأذن له فسار إليها ورجع عنها بعد أن حاصرها مدة .

تمت كل هذه الفتوح العظيمة بسرعة مدهشة لم يعهدها التاريخ من قبل بالرغم من الفتن الداخلية والنقمة على عثمان وبالرغم من لين الخليفة وشدة حيائه ، لأن المسلمين كانوا يجاهدون في سبيل الله بقوة إيمانهـــم وقد ذاقوا حلاوة الفتح والنصر والغنائم ، فلم يكن يعوقهم عن الفتح عائق . وقد قامت هذه الفتوح على يد الولاة الذين ولاهم عثمان أمثال الوليد وسعيد بن العاص وعبدالله بن عامر وعبدالله بن سعـــد بن أبي سرح ومعاوية . فلا غرو إذا قلنا إن عهد عثمان كان عهد فوز للمسلمين كانت هذه الفتوح العظيمة سبباً في اتساع الدنيا على الصحابة ، فكثرت الأموال حتى كان الفرس يشترى بمائة ألف ، وحتى كان البستـــان يباع بالمدينة بأربعمائة ألف درهم ، وكانت المدينة عامرة كثيرة الخيرات والأموال والناس يجبى إليها خراج الممالك وهي دار الأمان . وقبـــة الإسلام فبطر الناس بكثرة الأموال والخيل والنعم وفتحوا أقاليم الدنيا واطمأنوا وتفرغوا ، ثم أخذوا ينقمون على خليفتهم .

رأي الأستاذ فريد وجدي
في مقتل عثمان

نورد هنا ما كتبه الأستاذ فريد وجدي في دائرة المعارف خاصـــاً بمقتل عثمان :

« إن الناظر في حادثة عثمان على ما أحاطها بـه المؤرخون مـن عبارات التضليل الباعث عليه ضعف النقد يعدها أمراً جليلاً ، وهي في حقيقتها أمر طبيعي كانت نتيجتها لازمة لمقدمات سابقة . ونحن لا نود أن نقول بأن عثمان رضي الله عنه استحق أن يقتل . ولكنا نقول إنـه استحق أن يعزل ، ولكن الشكل الفذ الذي كانت عليه الحكومة إذ ذاك لم يسمح إلا بحدوث هذه النتيجة المحزنة المريعة .

عثمان استحق أن يعزل لجملة أسباب :

أولاً ـ لضياع هيبة الخلافة في عهده ، فإنه كان يجترىء رجـل مثل جهجاه على كسر العصا التي كان يتوكأ عليها ، وهو على المنبر ، فلم يقو على معاقبته بما يستحق ، أو بمؤاخذته بحيث لا يجترىء بمثلها .

وقد تبين من تاريخ حياته أنه كان يصعد المنبر فيتوب مما فعـل ويستغفر الله ثم يعود سيرته الأولى من الخضوع لرأي فتية بني أميـة . وفي توبته إقرار بأنه أخطأ ، ثم في عودته دليل محسوس على خضوعه للمؤثرين عليه وكفى بهذا مسقطاً لهيبة الخلافة وهي الوظيفة التي كانت تعتبر تالية لمقام النبوة .

ثانياً ـ لوقوعه تحت تأثير قرابته من أمثال عبدالله بن أبي سرح وعمرو ابن العاص[1] وسعيد بن العاص ومروان بن الحكم ومعاويـة بن أبي سفيان وغيرهم وهم إما من الطلقاء الذين منّ رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم بالعفو عند فتح مكة بعد أن كان تاريخهم في مكافحـة الدعوة الإسلامية أقبح تاريخ . وإما من الفتيان الذين لا حريجة لهم في الدين ولا صفة لهم بين المؤمنين .

---

(١) يلاحظ أن عمرا كان ناقما على عثمان بعد ان عزله عن ولاية مصر سابقا غير ان عثمان كان مع ذلك يستشيره .

ثالثاً – لحرمانه المجتمع الإسلامي من مكونيه الأولين أمثال علي بن أبي طالب وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص وأبي أيوب الأنصاري وعبدالله بن عمر وغيرهم من كبار الصحابة واعتماده على فتيان بني أمية فكان يرسل إلى الولايات الكبرى كمصر وسورية والعراقين والفرس من أولئك الفتية ممن لا يحسنون قيادة ولا يعرفون سيادة . ويترك أمثال أولئك الكاملين عاطلين بلا عمل وهم مكونو المجتمع الإسلامي وأرواحه التي أقامته من المجتمعات البشرية .

هذه الأمور الثلاثة وحدها كانت كافية لإهلاك المجتمع الإسلامي وحل الوحدة الدينية وهي وحدها كانت كافية بجمع المسلمين على خلع ذلك الخليفة ، ولكن شكل تلك الحكومة لم يكن يسمح لهم بخلعه فحدثت الحادثة التي انتهت بقتله .

كان عثمان يستطيع أن يتلافى الوقوع في شر هذه الحوادث بتولية أمثال علي وطلحة والزبير الولايات الكبيرة . فإن هؤلاء النفر كان لهم من المقام الرفيع والسوابق الجليلة والحب في نفوس الناس ما كان يقيم الكافة على الطريق السوي ويوجد للمجتمع الإسلامي روحه المدبر . ولكن عثمان كان تحت تأثير مثل عبدالله بن سعد بن أبي سرح المطعون في دينه ومروان بن الحكم المكروه من الناس وغيرهما من الغلمان والأحداث دون أولئك الصحابة الأكرمين الذين استعان بهم النبي صلى الله عليه وسلم نفسه في تكوين الأمة واستعان بهم أبو بكر وعمر في تقويم معوج الشئون . فكيف لا تنحرف عنه الأمة وكيف لا تسقط مهابة الخلافة . وكيف لا يجترىء الناس عليه .

إن قتل عثمان رضي الله عنه على حسن سوابقه وفضله في إقامة الدين وبذله نفسه وماله في مساعدة رسول الله صلى الله عليه وسلم يعد من الأمور المريعة . ولكن الثائرين طلبوا إليه أن يخلع نفسه فأبى

فحاصروه ليحملوه على ذلك فأصر على الإباء . فدخلوا عليه وهددوه بالقتل فلم يزدد إلا إباء فاستهدف نفسه بذلك لما حدث .

هذا رأينا ولكن إخواننا المؤلفين الأولين كانوا يذهبون في تعظيم الأشخاص مذهباً لا يلائم نص الدين نفسه فاستنكروا حادثة عثمان استنكاراً لم يفعله معاصروه أنفسهم » .

★ ★ ★

راي رفيق بك العظم

كتب الأستاذ رفيق بك العظم المؤرخ الشهير في ترجمته حياة عثمان بن عفان كلمة في هؤلاء الناقمين على عثمان وفي أهمية تاريخ الصحابة ، ما يأتي :

« إن من يطالع هذا الخبر من أسراء الإستبداد وأليفي الإستعباد يعجب من جرأة القوم وتجاوزهم حدود الحشمة مع وجود الصحابة ، وأعجب منه عندهم أن يتجاوز عن القوم لا ينالهم أدنى عقاب على ما فعلوه سوى التوبيخ . إذ لو حدث من غيرهم ما حدث منهم في حكومة أخرى غير الحكومة الإسلامية يومئذ لما كان جزاؤهم إلا القتل أو قضاء الحياة في أعماق السجون . ولكن شأن العرب وشأن الإسلام وحكومته يومئذ لا يضاهيه شأن الأمر الأخرى وحكوماتها . إذ العرب قد اعتادوا بأصل الفطرة حرية الفكر والقول . وشرائع الإسلام لم تكن مصادمة لتلك الفطرة ، بل هي معينة لها داعية لتهذيبها وارتقائها . فالقرآن يأمر المسلمين عامة بقول الحق ، وأن يقوموا بالقسط ويشهدوا بالحق ولو على أنفسهم ويأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر . وفي هذا كله ما يجيز لهم الإنتقاد على الأمراء والعمال ويطلق لهم العنان فيما اعتادته فطرتهم من حرية القول ، بشرط أن لا يترتب على قولهم حد من الحدود الشرعية كالقذف وكل ما يمس بالشرف والعرض ويدعو إلى إقامة الحد ، أو أية عقوبة من عقوبات التعزيز لهذا قام هؤلاء الناس وغيرهم في الأمصار

الإسلامية يظهرون الطعن على عثمان وعماله باسم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وليس من يجرؤ على معاقبتهم ، أو الضرب على أيديهم من العمال ، لأنه حق من الحقوق التي خولتها لهم الفطرة والشرع . ولم يظهر عليهم التكير إلا بعد أن ترتب على عملهم حق من حقوق الله في قتل عثمان رحمه الله ورضي الله عنه . وهذا عين ما يشاهد الآن في الممالك الأوربية ذات الحكومات الشورية من إطلاق ألسنة الإنتقاد على الحكومات ومناقشة أهل الشورى للوزراء في كل جليل وحقير . وكثيراً ما يلجئون الوزراء إلى اعتزال مناصبهم إذا رأوا منهم ما يستدعي ذلك فيعتزلونها صاغرين . وشأنهم هذا شأن المسلمين في ذلك العهد مع أمرائهم كما رأيت . وترى العبرة في عثمان رضي الله عنه وعماله ونهوض الأمة لمؤاخذته على أمور هي — ولا نكران للحق — أقل مما يأتيه أصغر عامل من عمال الدول المطلقة في هذا العصر وفي كل عصر . ومع هذا فقد أفضى الأمر إلى طرد عماله من الأمصار ، ثم إجلاب الناس عليه بالخيل والرجل من كل مصر وقتله بين ظهراني إخوانه من المهاجرين والأنصار . فليت شعري كيف نسي المسلمون تاريخ هذه النشأة التي نشأ عليها أسلافهم وأهملوا أمور شريعتهم التي عمل بها مؤسسو دولتهم فاستُخذوا بعد ذلك للأمراء واستسلموا للقضاء حتى صاروا أسراء الإستبداد وتعبدهم الملوك في كل الأنحاء وسامتهم الدول الحاكمة عليهم من إسلامية ومسيحية دروب الخسف . وأذاقتهم أنواع الهوان . وأين تلك الروح البارة والنفس العالية التي كانت تأبى الضيم وتغضب للحق فترى أن الموت والحياة سيان في سبيل الذود عن حقوقها والاحتفاظ بحريتها .

لا جرم أن الأمة الإسلامية قد أنست ذلك لأمرين :

(الأول) عدم العناية بوضع قواعد الشورى على الأصول الثابتة منذ نشوء الدولة كما سبق بيان هذا في صدر هذا الجزء .

(والثاني) تحريم العلماء بإيعاز الأمراء الخوض في تاريخ الخلفاء الراشدين [1] وأخبار الصدر الأول التي كلها حياة . كلها عبر . حرية وليس في كل ما كان بين الصحابة من الأمور العظام ، والفتن الجسام ما يدعو ديناً أو أدباً إلى اجتناب الخوض في أخبارهم والنظر في تاريخهم تعظيماً لهم واحتراماً لجنابهم وتسليماً بسلامة مقاصدهم كما يذهب إليه خدام الأمراء من بعض العلماء . إذ لو كان في أخبارهم ما يمنع من الخوض فيها ديناً ، أو أدباً لاستلزم أنها أعمال تحط من منزلتهم وتقلل من احترامهم . وهذا باطل بالبداهة . والحقيقة هي أن هذا التحريم لم يكن إلا بإيعاز الأمراء الجبارين والزعماء المستبدين . لأن تاريخ الصدر الأول وأخبار الصحابة كلها تدل على حياة منبثة في صدور القوم ومقاصد عالية تعلي شأن أولئك الرجال ، ووالله ليس في تاريخ من تواريخ الأمم في بدء نشأتها وإبان ظهورها ما في تاريخ الخلفاء الراشدين . ووقائع الصحابة من الحوادث التي ترمي كلها إلى غرض الحرية وتمحيص الحق مما قل أن يكون في أمة حديثة النشأة ودولة جديدة التكوين . أما أن فريقاً منهم أخطأ وفريقاً أصاب . وفريقاً بغى وفريقاً بغي عليه . فهذا الحكم إنما هو تابع للمقاصد والمقاصد كانت كلها متجهة إلى تمحيص الحق والرغائب العالية . فمن العبث أن يحكم بخطأ فريق ما دام يعتقد أنه على صواب . ومثاله هؤلاء المحرضون على عثمان ، فإنا مع اعتقادنا أن عثمان رضي الله عنه خير من كثير غيره ممن أتى بعده من الخلفاء . ومع علمنا أنه لم يأت من حب النفس أو الأثرة بجزء مما يأتيه حتى

---

(١) قال : نريد بالخوض هنا معناه اللغوى وهو من قولهم خاض الماء اي تغلغل فيه فاذا كان مراد القائلين بحرمة الخوض في اخبار الصحابة هذا التغلغل فلا نسلم لهم بحرمته واذا كان مرادهم به المعنى المجاز كالخوض في الباطل ونحوه فهذا ما لا ننكره عليهم بل هو مما نقول ونسلم به وانا اريد الخوض هنا بالمعنى الاول . فليتنبه له .

أشهر من اشتهر بالعدل من الخلفاء الأمويين أو العباسيين ، أو غيرهم فإن أولئك الثائرين على عماله الناقمين منه مهما كان الدافع لهم إلى ذلك العمل فإن غايتهم التي يقصدون إليها بحسب الظاهر هي العدل بين الناس بعلم الإستئثار بمصالح المسلمين ومنافع الأمة كما تعودوا ذلك من الخليفتين السابقتين وإن كانت سيرتهما في الخلافة وسياسة الملك فوق المستطاع لمن عداهما . لهذا لم يستطع أن يمد إليهم العمال بسوء فهم إذا أوخذوا فإنما يؤاخذون من جهة أنهم كانوا يطلبون من عثمان فوق ما يستطاع بالنسبة إليه . وأنهم غلوا في ذم سيرته تذرعاً لمحو الصبغة الأموية من الدولة غلواً يلامون عليه ما دام ذلك الغلو لغرض آخر يرمون إليه .

وأما قتلته فإنهم أخزاهم الله ليسوا بمؤاخذين وحسب بل هم ملعونون على لسان كبار الصحابة كحذيفة بن اليمان وأضرابه ، وهم مسئولون عن عملهم دون غيرهم . وقد جنوا على الأمة في مستقبلها جناية كبرى كما سنشير إليه بعد إن شاء الله .

إذا تقرر هذا فاعلم أن أخبار الصحابة إنما حرم بعضهم الخوض فيها لأنها أخبار قوم ملئت صدورهم بالحياة ونفوسهم بالعزة وهم بالضرورة قدوة الأمة والمنادون منذ نشأت الدولة بصوت العدل والحرية والحق . فوقوف الناس على أخبارهم والأخذ والرد فيما حدث بينهم يُحيي في القلوب روح الحرية ويبعث على استظهار عامة الناس للحجة التي يصادمون بها آلات الإستبداد من الخلفاء والملوك الذين حولوا الخلافة إلى الملك العضوض وأمعنوا في التمكن من رقاب الناس . ولهذا ولما كثر خوض الناس في أخبار الصحابة أرادوا إلهاءهم عنها بحجة حرمة الخوض فيها فأوعزوا إلى الوضاع والقصاصين بوضع أخبار المغازي وقصة عنترة وأشباهها في أعصر مختلفة لا تعلم بالتحقيق ، إلا إذا صح

نسبة أكثر تلك الكتب إلى الواقدي والأصمعي ، فإنها تكون في عصر العباسيين وذلك ليتلهى بها العامة عن التاريخ الصحيح الذي يبعث في النفوس روح الجرأة على قول الحق والتشبه بسلف الأمة ورجالها ورافعي دعامة دولتها في مناهضة أرباب العتو والجبروت ومحبي الإستبداد وآلهة الملك . هذا ما أراه في هذا الباب والله أعلم بالصواب .

المدافعون عن عثمان

قد أبدينا رأينا في سياسة عثمان رضي الله عنه وذكرنا في مواطن شتى أسباب الفتنة وما استوجب سخط الناس عليه وقتئذ كما أننا ذكرنا رده على منتقديه ، لكنه رضي الله عنه عاد فتاب في خطبة له ، وإن كان لم يغيّر سياسته بسبب تسلط أقاربه عليه ، غير أن بعض المؤلفين تعرضوا لأسباب النقمة وفندوها واحدة واحدة ومعنى ذلك أن الأمة الإسلامية في ذلك الوقت وقد أجمعت (تقريباً عدا أقاربه) على نقد خطته السياسية كانوا على خطأ مع العلم بأن كبار الصحابة كانوا لا يرون رأيه وينقدون سياسته ونصحوا مراراً بالإقلاع عنها ، فالدفاع عنه وتبرئته من كل خطأ أدى إلى هذه الكارثة التي أعقبتها كوارث مناقض لرأي الصحابة ولتوبته الأخيرة . وليس يتضح الحق بمثل هذا الدفاع وقد نقل الأستاذ فريد وجدي بعض ما كتبه أبو بكر محمد بن يحيى الأشعري في كتابه « التمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان » دفاعاً عنه فليراجعه من أراد التفصيل والكتاب موجود بدار الكتب المصرية .

ولا يفوتنا في هذا المقام أن نأتي على ذكر مثال مما رد به أبو جعفر أحمد الشهير بالمحب الطبري ، صاحب كتاب الرياض النضرة في مناقب العشرة قال :

(الأول) ما نقموا عليه من عزله جمعاً من الصحابه ، منهم أبو

موسى عزله عن البصرة وولاها عبدالله بن عامر . ومنهم عمرو بن العاص عزله عن مصر ، وولاها عبدالله بن سعد بن أبي سرح وكان ارتد في حياة النبي صلى الله عليه وسلم ولحق بالمشركين فأهدر النبي صلى الله عليه وسلم دمه بعد الفتح إلى أن أخذ له عثمان الأمان ، ثم أسلم . ومنهم عمار بن ياسر عزله عن الكوفة ومنهم المغيرة بن شعبه عزله عن لكوفة أيضاً ومنهم عبدالله بن مسعود عزله عن الكوفة أيضاً وأشخصه إلى المدينة .

(الجواب) أما القضية الأولى وهي عزل من عزله من الصحابة فإليك التفصيل . أما أبو موسى فكان عذره في عزله أوضح من أن يذكر فإنه لو لم يعزله اضطربت البصرة والكوفة وأعمالهما للإختلاف الواقع بين جند البلدين وقصته : أنه كتب إلى عمر في أيامه يسأله المدد فأمده بجند الكوفة ، فأمرهم أبو موسى قبل قدومهم عليه برامهرمز فذهبوا إليها وفتحوها وسبوا نساءها وذراريها فحمدهم على ذلك وكره نسبة الفتح إلى جند الكوفة دون جند البصرة فقال لهم : إني كنت أعطيتهم الأمان وأجلتهم ستة أشهر فردوا عليهم فوقع الخلاف في ذلك بين الجندين وكتبوا إلى عمرفكتب عمر إلى صلحاء جند أبي موسى مثل البراء وحذيفة وعمران بن حصين وأنس بن مالك وسعيد بن عمرو الأنصاري وأمثالهم وأمرهم أن يستحلفوا أبا موسى ، فإن حلف أنه أعطاهم الأمان وأجلهم ردوا عليهم فاستحلفوه فحلف ورد السبي عليهم وانتظر لهم أجلهم وبقي الجند حانقين على أبي موسى ، ثم رفع على أبي موسى إلى عمر وقيل له لو أعطاهم الأمان لعلم ذلك فأشخصه عمر وسأله عن يمينه فقال : ما حلفت إلا على حق قال : فلمَ أمرت الجند حتى فعلوا ما فعلوا وقد وكلنا أمرك في يمينك إلى الله تعالى فارجع إلى عملك فليس نجد الآن من يقوم مقامك ولعلنا إن وجدنا من يكفينا عملك وليناه .

فلما مضى عمر لسبيله وولى عثمان شكا جند البصرة شح أبي موسى وشكا جند الكوفة ما نقموا عليه فخشي عثمان ممالأة الفريقين على أبي موسى فعزله عن البصرة ، وولاها أكرم الفتيان عبدالله بن عامر بن كريز وكان من سادات قريش وهو الذي سقاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ريقه حين حمل إليه طفلاً في مهده .

وأما عمرو بن العاص فإنما عزله لأن أهل مصر أكثروا شكايته وكان عمر قبل ذلك عزله لشيء بلغه عنه ، ثم لما ظهرت توبته رده ، كذلك عزله عثمان لشكاية رعيته . كيف والرافضة يزعمون أن عمراً كان منافقاً في الإسلام ، وعلى زعمهم فقد أصاب عثمان في عزله ، فكيف يعترضون على عثمان بما هو مصيب فيه عندهم .

وأما تولية عبدالله فمن حسن النظر عنده ، لأنه تاب وأصلح عمله وكانت له فيما ولاه آثار محمودة ، فإنه فتح من تلك النواحي طائفة كبيرة حتى انتهى في إغارته إلى الجزائر التي في بحر بلاد الغرب وحصل في فتوحه ألف ألف دينار وخمسمائة ألف دينار سوى ما غنمه من صنوف الأموال وبعث بالخمس منها إلى عثمان وفرق الباقي في جنده ، وكان في جنده جماعة من الصحابة ومن أولادهم ، كعقبة بن عامر الجهني وعبد الرحمن بن أبي بكر وعبدالله بن عمرو بن العاص قاتلوا تحت رايته وأدوا طاعته ووجدوه أقدر على سياسة الأمر من عمرو بن العاص ثم أبان عن حسن رأي في نفسه عند وقوع الفتنة فإنه حين قتل عثمان اعتزل الفريقين ولم يشهد مشهداً ، ولم يقاتل أحداً بعد قتال المشركين .

وأما عمار بن ياسر فأخطأوا في ظن عزله ، فإنه لم يعزله وإنما عزله عمر . كان أهل الكوفة قد شكوه فقال عمر من يعذرني من أهل الكوفة إن استعملت عليهم تقياً استضعفوه وإن استعملت عليهم قوياً

فجروه ، ثم عزله وولى المغيرة بن شعبة فلما ولي عثمان شكوا المغيرة إليه وذكروا أنه ارتشى في بعض أموره ، فلما رأى ما وقر عندهم منه استصوب عزله عنهم ولو كان مفترين عليه . والعجب من هؤلاء الرافضة كيف ينقمون على عثمان عزل المغيرة وهم يكفرون المغيرة على أنا نقول ما زال ولاة الأمر قبله وبعده يعزلون من أعمالهم من رأوا عزله ويولون من رأوا توليته بحسب ما تقتضية أنظارهم . عزل عمر خالد بن الوليد عن الشام وولى أبا عبيدة ، وعزل عماراً عن الكوفة وولاها المغيرة بن شعبة ، وعزل علي قيس بن سعد عن مصر وولاها الأشتر النخعي . ألا ترى إلى معاوية وكان ممن ولى عمر لما ضبط الجزيرة وفتح البلاد إلى حدود الروم وفتح جزيرة قبرس وغنم منها مائة ألف رأس سوى ما غنم من البياض وأصناف المال وحمدت سيرته وسراياه أقره على ولايته .

وأما ابن مسعود فسيأتي الإعتذار عنه فيما بعد .

هذا جواب المحب الطبري معتذراً عن عثمان في المسألة الأولىالتي ذكرها . ونحن نقول إن الخليفة له أن يعزل من شاء من الولاة ممن يرتكبون وزراً ، أو يشك في سيرتهم ويعين من يثق بهم ، لكنهم نقموا على عثمان أنه كان يراعي أقاربه ويخصهم بالولاية ويتسامح معهم . وإن الفتنة لم تنشأ عن شكوى خاصة بل عن عدة أمور كانت في مجموعها سبباً في السخط العام . فعبدالله بن عامر الذي ولاه عثمان البصرة مكان أبي موسى كان ابن خاله وكان عمره خمساً وعشرين عاماً وقتئذ مع اعترافنا بفتوحه وشجاعته ، وولى مصر عبدالله بن سعد ابن أبي سرح وهو أخوه من الرضاعة وكان كاتب الوحي ، ثم ارتد مشركاً وأهدر رسول الله دمه إلى أن أخذ عثمان له الأمان . نعم إنه فتح شمال إفريقية لكن عمراً المعزول عن ولاية مصر ، والذي له

الفضل في فتحها قد أغضبه أن يعزل فوجد مجالاً للطعن على الوالي الجديد من هاتين الناحيتين وغيرهما وظل ناقماً طاعناً على عثمان إلى النهاية ، ولا يخفى أن عمراً كان داهية وفي وسعه توسيع دائرة الفتنة .

أما عبدالله بن مسعود الذي عزله عثمان عن الكوفة ، فقد كان سيّره عمر بن الخطاب إلى الكوفة وكتب إلى أهلها :

« إني قد بعثت عمار بن ياسر أميراً ، وعبدالله بن مسعود معلماً ووزيراً ، وهما من النجباء من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل بدر فاقتدوا بهما وأطيعوا واسمعوا قولهما ، وقد آثرتكم بعبدالله على نفسي » .

فهذه هي شهادة عمر في عمار بن ياسر وعبدالله بن مسعود . وعمر لا يحابي أحداً ولا يقول غير الحق . فعزل عبدالله بن مسعود أحدث استياء لما له من العلم والفضل وعن زيد بن وهب قال : لما بعث عثمان إلى عبدالله بن مسعود يأمره بالقدوم عليه بالمدينة — وكان بالكوفة اجتمع الناس عليه فقالوا : أقم ونحن معك نمنعك أن يصل إليك شيء تكرهه . فقال عبدالله : إن له عليّ حق الطاعة ، وإنها ستكون أمور وفتن فلا أحب أن أكون أوّل من فتحها ، فرد الناس وخرج إليه



قال المحب الطبري :

« (الثاني) ما أدعوا عليه من الإسراف في بيت المال وذلك بأمور منها أن الحكم بن العاص لما رده من الطائف إلى المدينة ، وقد كان طرده النبي صلى الله عليه وسلم وصله من بيت المال بمائة ألف درهم وجعل لابنه الحارث سوق المدينة يأخذ منها عشور ما يباع فيها . ومنها أنه وهب لمروان خمس إفريقية . ومنها أن عبدالله بن خالد بن أسد بن

أبي العاص بن أمية قدم عليه فوصله بثلاثمائة ألف درهم . ومنها ما رواه أبو موسى قال : كنت إذا أتيت عمر بالمال والحلية من الذهب والفضة ، لم يلبث أن يقسم بين المسلمين حتى لا يبقى منه شيء . فلما ولي عثمان أتيت به فكان يبعث به إلى نسائه وبناته . فلما رأيت ذلك أرسلت دمعي وبكيت . فقال لي ما يبكيك ؟ فذكرت له صنيعه وصنيع عمر . فقال : رحم الله عمر كان حسنة وأنا حسنة ولكل ما اكتسب . قال أبو موسى إن عمر كان ينزع الدرهم الفرد من الصبي من أولاده فيرده في مال الله ويقسمه بين المسلمين ؛ فأراك قد أعطيت إحدى بناتك مجمراً [1] من الذهب مكللاً باللؤلؤ والياقوت وأعطيت الأخرى درتين لا يعرف كم قيمتهما . فقال : إن عمر عمل برأيه ولا يألو عن الخير وأنا أعمل برأيي ولا آلو عن الخير ، وقد أوصاني الله تعالى بذوي قراباتي وأنا مستوص بهم وأبر برهم . ومنها ما قالوا إنه أنفق أكثر بيت المال في ضياعه ودوره التي اتخذها لنفسه ولأولاده . وكان عبدالله ابن أرقم ومعيقيب على بيت المال في زمن عمر فلما رأيا ذلك استعفيا فعزلهما ، وولاه زيد بن ثابت وجعل المفاتيح بيده . فقال له يوماً : قد فضل في بيت المال فضلة خذها لك فأخذها زيد فكانت أكثر من مائة ألف درهم » .

« وأما القصة الثانية — فهو ما ادعوه من إسرافه في بيت المال فأكثر ما نقلوه عنه مفترى عليه ومختلق وما صح منه فعذره فيه واضح . وأما رده الحكم إلى المدينة فقد ذكر رضي الله عنه أنه كان استأذن النبي صلى الله عليه وسلم في رده إلى المدينة فوعده بذلك . فلما ولي أبو بكر سأله عثمان ذلك فقال كيف أرده إليها وقد نفاه رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال له عثمان ذلك . فقال له : إني أسمعه يقول لك ذلك

(1) المجمر والمجمرة : التي يوضع فيها الجمر مع الدخنة .

ولم تكن مع عثمان بينة على ذلك ، فلما ولي عمر سأله ذلك فأبى ولم يريا الحُكم بقول الواحد ، فلما ولي قضى بعلمه وهـو قول أكـثر الفقهاء وهو مذهب عثمان وهذا بعد أن تاب الحكم عما كان طـرده لأجله ، وإعانة التائب مما تحمد .

وأما صلته من بيت المال بمائة ألف ، فلم تصح ، وإنما الذي صح أنه زوج ابنه من ابنة الحارث بن الحكم ، وبذل لها من مال نفسه مائة ألف درهم ، وكان رضي الله عنه ذا ثروة في الجاهلية والإسـلام ، وكذلك زوج ابنته أم أبان من ابن مروان بن الحكم وجهزها من خاص ماله بمائة ألف لا من بيت المال ، وهذه صلة رحم يحمد عليها .

وأما طعنهم على عثمان أنه وهب خمس إفريقية مـن مروان بن الحكم فهو غلط منهم ، وإنما المشهور في القضية أن عثمان كان جهز ابن أبي سرح أميراً على آلاف من الجند وحضر القتال بإفريقية . فلما غنم المسلمون أخرج ابن أبي سرح الخمس من الذهب وهو خمسمائة ألف دينار فأنفذها إلى عثمان وبقي من الخمس أصناف من الأثاث والمواشي مما يشق حمله إلى المدينة فاشتراها مروان منه بمائة ألف درهم نقد أكثرها وبقيت منها بقية ووصل عثمان مبشراً بفتح إفريقية وكانت قلـوب المسلمين مشغولة خائفة أن يصيب المسلمين من أمر إفريقية نكبة فوهب له عثمان ما بقي عليه جزاء ببشارته ، وللإمام أن يصل المبشرين مـن بيت المال بما رأى على قدر مراتب البشارة .

وأما ذكره من صلته عبدالله بن خالد بن أسد بثلثمائة ألف درهم فإن أهل مصر عاتبوه على ذلك لما حاصروه فأجابهم بأنه استقرض لـه ذلك من بيت المال وكان يحتسب لبيت المال ذلك من نفسه حتى وفاه .

وأما دعواهم أنه جعل للحارث بن الحكم سوق المدينة يأخذ عشور

ما يباع فيه فغير صحيح ، وإنما جعل إليه سوق المدينة ليراعي أمر المثاقيل والموازين فتسلط يومين أو ثلاثة على باعة النوى واشتراه لنفسه فلما رُفع ذلك إلى عثمان أنكر عليه وعزله وقال لأهل المدينة : إني لم آمره بذلك ولا عتب على السلطان في جور بعض العمال إذا استدرك بعد علمه . وقد روى أنه جعل على سوق المدينة وجعل له كل يوم درهمين وقال لأهل المدينة إذا رأيتموه سرق شيئاً فخذوه منه وهذا غاية الإنصاف .

وأما قصة أبي موسى فلا يصح شيئاً منها . فإنه رواه ابن إسحاق عمن حدثه عن أبي موسى ولا يصح الإستدلال برواية المجهول . وكيف يصح ذلك وأبو موسى ما ولى لعثمان عملاً إلا في آخر السنة التي قتل فيها ولم يرجع إليه، فإنه لما عزله عن البصرة بعبدالله بن عامر لم يتول شيئاً من أعماله إلا إرسال أهل الكوفة إليه في السنة التي قتل فيها أن يوليه الكوفة فولاه إياها ولم يرجع إليه . ثم يقال للخوارج والروافض إنكم تكفرون أبا موسى ، فلا حجة في دعوى بعضهم على بعض .

وأما عزل ابن الأرقم ومعيقيب عن ولاية بيت المال ، فإنهما أسنا وضُعفا عن القيام بحفظ بيت المال . وقد روي أن عثمان لما عزلهما خطب الناس وقال « ألا إن عبدالله بن الأرقم لم يزل على جرايتكم زمن أبي بكر وعمر إلى اليوم وأنه كبر وضعف وقد ولينا عمله زيد ابن ثابت » .

وما تسبوه إليه من صرف مال بيت المال في عمارة دوره وضياعه المختصة فبهتان افتروه عليه . وكيف وهو من أكثر الصحابة مالاً وكيف يمكن ذلك بين أظهر الصحابة مع أنه الموصوف بكثرة الحياء وأن الملائكة تستحي منه لفرط حيائه . أعاذنا الله من فرطات الجهل وموبقات الهوى آمين آمين .

وقولهم : إنه دفع إليه ما فضل من بيت المال افتراء واختلاق بل الصحيح أنه أمر بتفرقة المال على أصحابه ففضل في بيت المال ألف درهم فأمره بإنفاقها فيما يراه أصلح المسلمين فأنفقها زيد على عمارة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدما زاد عثمان في المسجد زيادة كبيرة وكل واحد منهما مشكور محمود على فعله .

وإنا نقول إن المحب الطبري بدأ دفاعه عن هذه المسألة بقوله إن أكثر ما ادعوه من إسرافه في بيت المال فأكثر ما نقلوه عنه مفترى عليه ومختلق ، وما صح عنه فعذره فيه واضح ا هـ . ولم يقل إن كل ما نقل مفترى عليه ومختلق . وكان عمر رضي الله عنه لا يدع شيئاً حتى يوزعه على المسلمين في الحال . وقد ذكرنا في كتاب « الفاروق عمر ابن الخطاب » أن أبا موسى الأشعري أهدى لامرأة عمر رضي الله عنه طنفسة (بساطاً) قدرها ذراع وشبر فدخل عليها عمر فرآها فقال : أنى لك هذه ؟ فقالت أهداها لي أبو موسى الأشعري . فأخذها فضرب بها رأسها حتى نغَضَ رأسها . ثم قال : عليّ بأبي موسى الأشعري وأتعبوه . فأُتي به قد أتعب وهو يقول لا تعجل علي أمير المؤمنين . فقال عمر ما يحملك على أن تهدي لنسائي ؟ ثم أخذها عمر فضرب بها فوق رأسه وقال « خذها فلا حاجة لنا فيها » إن عمر رفض هذه الهدية البسيطة ، وهي لا تساوي شيئاً اجتناباً لكل شبهة حتى لا تسقط هيبته وتسوء سمعته ، وقد قيل من وضع نفسه مواضع التهم فلا يلومنّ من أساء الظن به . ونحن نود أن يكون ما قيل عن عثمان من التصرف في مال بيت المال غير صحيح .

وقد كان عبدالله بن الأرقم على بيت المال زمن عمر ، ثم ولاه عثمان بيت المال وأجازه بثلاثين ألفاً فأبى أن يقبلها وقال عملت لله وإنما أجري على الله . وكان عمر يقول : ما رأيت أخشى لله تعالى من

عبدالله بن الأرقم . وجاء في أسد الغابة أنه استعفى عثمان من ذلك فأعفاه من غير أن يذكر السبب . على أن استعفاء عبدالله بن الأرقم مع ما عرف عنه من أمانة ، واستعفاء معيقيب أمر فيه نظر . فهل كان كلاهما لا يصلح لبيت المال لكبر سنه ؟

ومما أخذ على عثمان أنه لما حمل إليه خمس غنائم إفريقية اشتراه مروان بن الحكم بمبلغ ٥٠٠,٠٠٠ دينار فوضعها عند عثمان بدلاً من أن يفرق الخمس على المسلمين جرياً على سنة صاحبيه في توزيع الغنائم .

وإنا نكتفي بهذا القدر ففيما ذكرناه الكفاية ، ونكرر أننا نجل قدر عثمان وأنه ذهب ضحية أقاربه الذين تسلطوا عليه وكلفوه ما لا يطيق .

رأي الاستاذ المرحوم محمد الخضري بك ومناقشته

كتب الأستاذ محمد الخضري بك في مؤلفه « إتمام الوفاء في سيرة الخلفاء » .

« وكل ما نقموه عليه (يعني على عثمان) أمور لا حرج على الإمام فعلها منها توليته أقاربه وليس في هذا أدنى عيب لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولى علياً وهو ابن عمه . ولو كانت تولية القريب عيباً لنهى عنها عليه السلام ولم يفعلها . ومع ذلك فالإسلام سوّى بين الناس لا قريب عنده ولا بعيد . فالأمر موكول لرأي الإمام الذي ألقيت إليه مقاليد الأمة ، فإن ولى من حاد عن الدين شكونا إليه ، فإن لم يقبل صبرنا كما أمر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن شق عصا الجماعة من مصائب الأمم التي تسرع إليها الخراب وليس في الشرع ما يبيح خلع الإمام إلا كفره الصراح » .

هذا هو رأي الأستاذ الخضري بك رحمه الله في كتابه المشار إليه

فهو ممن يبررون عمل عثمان ويرون أنه اتبع الشرع والسنة . وإنا نقول إن تولية عثمان أقاربه أحدثت سخطاً عاماً وأخذ السخط يتسع على مر الأيام وكان في وسعه تجنب ذلك لكنه رضي الله عنه كان يتوب ويعد بعزلهم ثم لا يفعل شيئاً . إن عثمان إذا كان يريد مساعدة أهله وأقاربه براً بهم ، فقد كان هناك وسائل غير توليتهم الأمصار الكبيرة التي يشترط فيمن يتولاها الكفاية وحسن السمعة ونقاء الماضي ، وكان كثير من الصحابة كما قدمنا حائزين لهذه الصفات والمؤهلات ، ومع ذلك ضرب عنهم صفحاً ولم يسند هذه المراكز وقد قيل : من الحكمة وضع الأشياء في مواضعها . فلما ولى أقاربه اعترض الناس بطبيعة الحال وامتعضوا ورموه بأنه لم يراع المصلحة العامة بل راعى أقاربه وقدمهم في الوظائف الكبيرة على من هم أهل لذلك ممن يجلهم ويحترمهم الجمهور وكان بين هؤلاء الأقارب المتهم في دينه وتقواه . ثم إنه عزل من سبق له الفضل في الفتح لإحلال القريب محله .

وإذا كان الإسلام سوّى بين الناس لا قريب عنده ولا بعيد فكان الواجب إذن يقضي على الخليفة باختيار من يصلح لا إيثار القريب لقرابته بغض الطرف عن المصلحة العامة التي هي فوق كل مصلحة .

نعم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم ينه عن تولية القريب لكن على أن يكون هذا القريب شخصاً ممتازاً حكيماً . وهذا ما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه باعتراف جميع المؤرخين من عرب وعجم لم يخطىء في تولية أحد القيادة ، أو الحكم ذكان عارفاً بأقدار الرجال . وكان عمر رضي الله عنه إذا تبيّن له إنه لم يوفق في تولية أحد وظهر فيما بعد ضعفه أو عجزه أو ارتكب أمراً شائناً عزله في الحال وولى غيره كي تنتظم الأمور ويقام العدل وتهاب الرعية الوالي . لكن عثمان رضي الله عنه بالرغم من سخط الناس من ولاته واعتراض كبار الصحابة

المشهورين بأصالة الرأي وبعد النظر والتقوى ظل متمسكاً بهم إلى النهاية حتّى قتل ولم يعزل غير سعيد بن العاص بعد أن بلغت الفتنة أشدها في الكوفة .

كاتب الناس بعضهم بعضاً في الأمصار وتبادلوا الرسائل التي تطعن على عثمان وعلى ولاة عثمان وأخيراً قامت الثورة وكان جمهور المسلمين قسمين : ثائراً يريد عزل الخليفة فإن لم يعتزل يقتل ، وقسماً غير راض عن سياسته ويود أن يعتزل حسماً للنزاع وقمعاً للفتنة لكنه التزم الحياد ولم يبق في صف عثمان غير أهله وأقاربه حتى قيل إن عبد الرحمن بن عوف وهو صهره ندم على اختياره خليفة بل وزاد على ذلك أنه نقض بعض ما عمله عثمان ، فقد جاء في الطبري أن إبلاً من إبل الصدقة جيء بها على عثمان فوهبها لبعض ولد الحكم ابن أبي العاص فبلغ ذلك عبد الرحمن بن عوف فأخذها وقسمها بين الناس وعثمان في داره . وعلى ذلك كان السواد الأعظم في ذلك إما ناقماً عليه أو غير راض عن خطته ، ولولا ذلك لوجد عثمان من يدافع عنه ويصد عنه غارة طائفة خرجت عليه ، ولفدوه بأرواحهم بل لما نهض من كل مصر جيش يطالب بخلعه . نعم إن عبدالله بن سبأ كان عاملاً قوياً في نشر الفتنة ؛ لكن عبدالله هذا لم يقدم على نشر دعايته الواسعة النطاق إلا لما علم أن الناس يستمعون له ، وأن النفوس مستعدة لقبول كلامه . ولو تصورنا أن عثمان لم يكن يعلم اتجاه الرأي العام ضده لكان معذوراً لكن حصره أربعين أو خمسين يوماً لا يؤيد ذلك ، بل الثابت أنه أيقن أخيراً بخطورة الحال لما طال الحصر وأحرقوا بابه وألقوا النار في منزله ومنعوا عنه الماء . إلا أن قتله كان جرماً شنيعاً وخطباً مريعاً ، فإن القتلة قد استعجلوا القدر وكان قد بلغ سن الشيخوخة وضعفت قواه وعلى كل حال لم يبرر أحد قتله بل

عده عقلاء الأمة نكبة عليها وفاتحة للخلاف والإنقسام .

وقال الخضري بك في كتابه « تاريخ الأمم الإسلامية » ص٣٩٥ :

« فقد كانوا يعيبون معاوية ، وهذا لم يوجده عثمان بل ولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم وولاه أبو بكر ، وولاه عمر ولم نر من العمال من استمر موثوقاً به من عمر في حياته كلها إلا أفراداً قلائل منهم معاوية بن أبي سفيان فقد كان والياً من أول حياة عمر إلى آخرها وكانت الشام أعدل ولايات المسلمين وأهدأها » .

وإنا نجد الجواب على ذلك في رد عليّ رضي الله عنه حين قال له عثمان :

« هل تعلم أن عمر ولى معاوية خلافته كلها ؟ فقد وليته » فأجابه عليّ « أنشدك الله ! هل تعلم أن معاوية كان أخوف من عمر من يرفأ غلام عمر منه ؟ قال نعم . قال عليّ فإن معاوية يقطع الأمور دونك وأنت تعلمها فيقول للناس هذا أمر عثمان فيبلغك ولا تُغَيّر على معاوية » فسكت ولم يجب .

فمعاوية ما كان يستطيع أن يقطع أمراً وينسبه إلى الخليفة في زمن عمر لأنه كان يخشاه ، كما كان يخشى غلام عمر . لكنه في زمن عثمان كان يفعل ما يشاء لاطمئنانه إليه فإن اعترض عليه معترض ادعى أن ذلك بأمر الخليفة ، وكان عثمان إذا بلغه ذلك لم يؤاخذه . فالقول بأن معاوية ولاه عمر وأقره طول حياته لا يبرر أعمال معاوية زمن عثمان .

ما رثي به عثمان من الأشعار

قال حسان بن ثابت شاعر النبي صلى الله عليه وسلم يمدح عثمان ويبكيه ويهجو قاتله :

أتركتمُ غزو الدروب وراءكم — وغزوتمونا عند قبر محمد
فلبئس هدْى المسلمين هديتم — ولبئس أمرُ الفاجر المتعمد
أن تقدموا نجعل قرى سرَواتكم — حول المدينة كلّ لين مذود
أو تدبروا فلبئس ما سافرتم — ولمثل أمر أميركم لم يَرشُد
وكأن أصحاب النبي عشيةً — بُدنٌ تذبّح عند باب المسجد
أبكي أبا عمروٍ لحسن بلائه — أمسى مقيماً في بقيع الغرقد

وقال :

إن تمس دار ابن أروى منه خاوية — باب صريعٌ وباب محرقٌ خرب[1]
قد يصادف باغي الخير حاجته — فيها ويهوى إليها الذكر والحسب
يا أيها الناس أبدوا ذات أنفسكم — لا يستوى الصدق عند الله والكذب
قوموا بحق مليك الناس تعترفوا — بغارة عُصُب من خلفها عصبُ
فيهم خبيث شهاب الموت يقدمهم — مستلئماً قد بدا في وجهه الغضب

وقال أيضاً :

من سره الموت صرفاً لا مزاج له — فليأت مأسدةً في دار عثمانا
مستشعرى حلق الماذيّ قد شفعت — قبل المخاطم بيض زانَ أبدانا
صبراً فِدىً لكم أمي وما ولدت — قد ينفع الصبرُ في المكروه أحيانا
فقد رضينا بأهل الشأم نافرة — وبالأمير وبالإخوان إخوانا
إني لمنهم وإن غابوا وإن شهدوا — ما دمت حياً وما سميت حسانا
لتسمعُن وشيكا في ديارهم — الله أكبر يا ثارات عثمانا
يا ليت شعري وليت الطيرَ تخبرني — ما كان شأن عليٍ وابن عفانا

---

(١) راجع البداية والنهاية لابن كثير الجزء السابع ص ١٩٦ — ١٩٧ .

وقال كعب بن مالك الأنصاري :

يا للرجال لِلُبّكَ المخطوف	ولدمعك المترقرق المنزوف
ويح لأمر قد أتاني رائع	هدّ الجبال فانقضت برجوف
قتلُ الخليفة كان أمراً مفظعاً	قامت لذاك بليّة التخويف
قتل الإمام له النجوم خواضع	والشمس بازغة له بكسوف
يا لهف نفسي إذ تولّوا غدوة	بالنعش فوق عواتق وكتوف
ولوْا وأدْلوا في الضريح أخاهم	ماذا أجنّ ضريحه المسقوف
من نائل أو سؤدد وحمالة	سبقت له في الناس أو معروف
كم من يتيم كان يجبر عظمه	أمسى بمنزله الضياعُ يطوف
ما زال يقبلهم ويرأب ظلمهم	حتى سمعت برنة التلهيف
أمسى مقيماً بالبقيع وأصبحوا	متفرقين قد أجمعوا بخفوف
النار موعدهم بقتل إمامهم	عثمان ظهراً في التلاد عفيف
جمع الحمالة بعد حلم راجح	والخير فيه مبيّن معروف
يا كعب لا تنفك تبكي مالكاً	ما دمت حيّاً في البلاد تطوف
فأبكي أبا عمرو عتيقاً واصلاً	ولواءهم إذ كان غيرَ سخيف
وليبكه عند الحفاظ معظّم	والخيل بين مقانب وصفوف
قتلوك يا عثمان غير مدنس	قتلا لعمرك واقفاً بسقيف

وقال أيضاً :

فكفّ يديه ثم أغلق بابه	وأيقن أن الله ليس بغافل
وقال لأهل الدار لا تقتلوهم	عفا الله عن كل امرىء لم يقاتل
فكيف رأيت الله صب عليهم الـ	ـعداوة والبغضاء بعد التواصل
وكيف رأيت الخير أدبر بعده	عن الناس إدبار الرياح الحوافل

وقال الحباب بن يزيد المجاشعيّ عم الفرزدق :

لعمرُ أبيك فلا تجزعن	لقد ذهب الخير إلا قليلا

لقد سفه النـــاس في دينهـــم   وخلّى ابن عفان شــراً طويلا
أعاذلَ كلُّ امــرىء هــالكٌ   فسيروا إلى الله ســيراً جميــلا

وقال القاسم بن أمية بن أبي الصلت :

لعمري لبئس الذّبح ضحيتم به   وختم رسول الله في قتل صاحبه

وقالت زينب بنت العوام :

وعطشتم عثمان في جوف داره   شربتم كشرب الهيم شرب حميم
فكيف بنا أم كيف بالنوم بعدما   أصيب ابن أروى وابن أم حكيم

وقالت ليلى الأخيلية :

قتــل ابــن عفــان الإمــام   وضــاع أمـــر المسلمينــا
وتشتــت سبـــل الرشــا   د لصــادريـــن وواردينــا
فانهــض معــاوى نهضـــة   تشفــى بهــا الــداء الدفينــا

وقال أيمن بن خزيمة :

ضحوا بعثمان في الشهر الحرام ضحى   وأي ذبيح حرام ويحهم ذبحوا
وأي سنة كفــر سن أولهـــم   وباب شر على سلطانهم فتحوا
ماذا أرادوا أضل الله سعيهـــم   بسفك ذاك الدم الزاكي الذي سفحوا

وقال الوليد بن عقبة :

ألا مَن لليل لا تغور كواكبُهْ   إذا لاح نجم لاح نجــم يراقبــه
بني هاشم ردوا سلاح ابن أختكم   ولا تنهبوه لا تحـــل مناهبـــه
بني هاشم لا تعجلوا بإقــادة   سواء علينــا قاتلــوه وسالبه
فقد يجبر العظم الكسير وينبري   لذي الحق يومــاً حقه فيطالبه
وإنا وإياكم ومــا كــان منكم   كصدع الصفا لا يرأب الصدع شاعبه

بني هاشم كيف التعاقد بيننا وعند علي سيفه وجرائبه
لعمرك ما أنسى ابن أروى وقتله وهل ينسين الماء ما عاش شاربه
همو قتلوه كي يكونوا مكانه كما غدرت يوماً بكسرى مرازبه
وإني لمجتاب إليكم بجحفل يصم السميعَ جرسُه وجلائبه

وقال الوليد يرثي عثمان ويحرض معاوية على الأخذ بثأره :

والله ما هند بأمك إن مضى النهار ولم يثأر بعثمان ثائر
أيقتلُ عبدُ القوم سيدَ أهله ولم يقتلوه ليت أمك عاقر
وإنا متى نقتلهم لا يقد بهم مقيد فقد دارت عليك الدوائر

وقال أيمن بن خُريم بن فاتك الأسدي وكان عثمانياً :

تعاقد الذابحو عثمان ضاحية فأي ذبح حرام ويحهم ذبحوا
ضحوا بعثمان في الشهر الحرام ولم يخشوا على مطمح الكفر الذي طمحوا

خطبة ابنته عائشة بعد قتله

قالت بعد أن حمدت الله وأثنت عليه : يا ثارات عثمان إنا لله وإنا إليه راجعون . أفنيتْ نفسه . وطُل دمه في حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومنع من دفنه . اللهم ولو يشاء لامتنع ووجد من الله عز وجل حاكماً . ومن المسلمين ناصراً . ومن المهاجرين شاهداً حتى يفيء إلى الحق من سدر عنه أو تطيح هامات وتُفرى غلاصم . وتخاض دماء ولكن استوحش مما أنستم به . واستوخم ما استمرأتموه . يا من استحل حرم الله ورسوله واستباح حماه . لقد كره عثمان ما أقدمتم عليه . ولقد نقمتم عليه أقل مما أتيتم إليه . فراجع فلم تراجعوه . واستقال فلم تقبلوه .

رحمة الله عليك يا أبتاه احتسبت نفسك . وصبرت لأمر ربك حتى لحقت به . وهؤلاء الآن قد ظهر منهم تراوض الباطل وإذكاء

الشنآن وكوامن الأحقاد وإدراك الإحن والأوتار . وبذلك وشيكاً كان كيدهم وتبغيهم وسعى بعضهم ببعض . فما أقالوا عاثراً . ولا استعتبوا مذنباً حتى اتخذوا ذلك سبباً إلى سفك الدماء . وإباحة الحمى . وجعلوا سبيلاً إلى البأساء والعنت . فهل أعلنت كلمتكم وظهرت حسكتكم إذ ابن الخطاب قائم على رءوسكم . مائل في عرصاتكم يرعد ويبرق بإرعابكم . يقمعكم غير حذر من تراجعكم الأمانيّ بينكم وهلا نقمتم عليه عوداً وبدءا إذ ملك ويملّك عليكم من ليس منكم بالخلق اللين والجسم الفصيل . يسعى عليكم وينصب لكم . لا تنكرون ذلك منه خوفاً من سطوته وحذراً من شدته . وأن يهتف مقسوراً أو يصرخ بكم معذوراً . إن قال صدقتم قالته . وإن سأل بذلتم سألته يحكم في رقابكم وأموالكم كأنكم عجائز صلع وإماء قصع فبدأ مفلتاً لابن أبي قحافة بإرث نبيكم على بعد رحمه وضيق يده وقلة عدده . فوقى الله شرها زعم لله دره ما أعرفه ما صنع أو لم يخصم الأنصار بقيس ثم حكم بالطاعة لمولى أبي حذافة ، يتمايل بكم يميناً وشمالا . قد خطب عقولكم ، واستمهر وجلكم ممتحناً لكم ومعترفاً أخطاركم ، وهل تسمو هممكم إلى منازعة . ولولا تيك لكان قسمه خسيساً وسميه تعيساً . لكن بدأ بالرأي وثنى بالقضاء وثلث بالشورى ثم غدا سامراً مُسلطاً درته على عاتقه فتطأطأتم له تطأطؤ الحِقة . ووليتموه أدباركم حتى علا أكتافكم . فلم يزل ينعق بكم في كل مرتع ويشدد منكم على كل مخنقٍ ويتورط بالحوباء . عرفتم أو نكرتم لا تألمون ولا تستنطقون . حتى إذا عاد الأمر فيكم ولكم وإليكم في مونِقَةٍ من العيش عرقها وشيج وفرعها عميم وظلها ظليل . تتناولون من كثب ثمارها أنى شئتم رغداً وجلبت عليكم عشارُ الأرض درراً واستمرأتم أكلكم من فوقكم ومن تحت أرجلكم من خصب غدق

وامق شرق . تنامون في الخفض وتستلينون الدعة . ومقتم زبرجة الدنيا وحرجتها . واستحليتم غضارتها ونضرتها . وظننتم أن ذلك سيأتيكم من كثب عفواً . ويتحلب عليكم رسلاً فانتضيتم سيوفكم وكسرتم جفونكم . وقد أبى الله أن تُشام سيوف جُردت بغياً وظلماً ونسيتم قول الله عز وجل: (إنَّ الإنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً.إذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً.وَإذَا مَسَّهُ الخَيرُ مَنُوعاً)[1] فلا يهنئكم الظفر. ولا يستوطن بكم الظلم إلا على رجلين ولا ترن القوس إلا على سيتين ، فأثبتوا على الغرز أرجلكم فقد ضللتم هداكم في المتيهة الخرقاء كما أضل أدحية الحل . وسيعلم كيف تكون إذا كان الناس عباديد . وقد نازعتكم الرجال واعترضت عليكم الأمور وساورتكم الحروب بالليوث وقارعتكم الأيام بالجيوش وحمى عليكم الوطيس . فيوماً تدعون من لا يجيب ويوماً تجيبون من لا يدعو . وقد بسط باسطكم كلتا يديه يرى أنهما في سبيل الله فيد مقبوضة وأخرى مقصورة والرءوس تنزو عن الطلي والكواهل، كما ينقف التنوم . فما أبعد نصر الله من الظالمين، وأستغفر الله مع المستغفرين .

خطبة زوجته نائلة بنت الفرافصة

قالت بعد أن حمدت الله وأثنت عليه :

عثمان ذو النورين قتل مظلوماً بينكم بعد الإعتذار وأن أعطاكم العتبى . معاشر المؤمنين وأهل الملة لا تستنكروا مقامي . ولا تستكثروا كلامي فإني حرى عَبْرَى ، رزئت جليلاً وتذوقت ثكلا من عثمان ابن عفان ثالث الأركان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في الفضل عند تراجع الناس في الشورى يوم الإرشاد . فكان الطيب المرتضى المختار حتى لم يتقدمه متقدم ولم يشك في فضله متأثم .

---

(١) سورة المعارج آية ١٩ .

ألقوا إليه الأزمة وخلوه والأمة حين عرفوا له حقه وحمدوا مذهبه وصدقه . فكان واحدهم غير مدافع وخيرتهم غير منازع . لا ينكر له حسن الغناء ولا عنه سماح النعماء . إذ وصل أجنحة المسلمين حين نهضوا إلى رءوس أئمة الكفر حيث ركضوا فقلدوه الأمور إذ لم يكن فيهم له نظير فسلك بهم سبيل الهدى وبالنبي وصاحبيه اقتدى . مخسئاً للشيطان إلى مداحره مقصياً للعدوان إلى مزاجره تنقشع منه الطواغيت ، وتزايل عنه المصاليت حتى امتد له الدين . واتصل له السبيل المستقيم . ولحق الكفر بالأطراف ، قليل الألاف والأحلاف . فتركه حين لا خير في الإسلام في افتتاح البلاد ولا رأي لأهله في تجهيز البعوث فأقام يمدكم بالرأي ويمنعكم بالأدنى . يصفح عن مسيئكم في إساءتـــه . ويقبل من محسنكم بإحسانه ويكافئكم بماله . ضعيف الإنتصار منكم . قوي المعونة لكم فاستلنتم عريكته حين منحكم محبته وأجرركم أرسانكم آمناً جرأتكم وعدوانكم فأراكموه الحق إخوانا وأراكوه الباطـــل شيطاناً في عقب سيرة من رأيتموه فظاً وعددتموه غليظاً . فهدكم منه بالقمع . وطاعتكم إياه على الجدع يعاملكم الحسبة ويتخونكم بالضر وكان الله أعلم بآدابكم ومضالحكم . فلله هو كان قد نظر في ضمائركم وعرف إعلانكم وسرائركم . فحين فقدتم سطوته وأمنتم بطشه رأيتم أن الطرق قـــد انشعبت لكم . والسبل قد اتصلت بكم ظننتم أن الله يصلح عمل المفسدين فعدوتم عدوة الأعداء . وشددتم شدة السفهـــاء على التقي النقي ، الخفيف بكتاب الله عز وجل لسانا الثقيل عند الله ميزاناً . فسفكتم دمه وانتهكتم حرمه واستحللتم منه الحُرَم الأربـــع : حرمة الإسلام . وحرمة الخلافة . وحرمة الشهر الحرام وحرمة البلد الحرام . فليعلمن الذين سعوا في أمره . ودبوا في قتله . ومنعونا مـــن دفنه . اللهم إنه بئس للظالمين بدلاً وأنهم شر مكاناً وأضعف جنـــداً . لتتعبدنكم الشبهات ولتفرقن بكم الطرقات ولتتفرقن بكم الطرقات .

ولتذكرن بعدها عثمان ولا عثمان وكيف يسخط الله من بعده . وأين كنتم لعثمان ذي النورين منفس الكرب . زوج ابنتي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصاحب المربد ورومة . هيهات والله ما مثله بموجود . ولا مثل فعله بمعدود . يا هؤلاء إنكم في فتنةعمياء صماء طباق السماء . ممتدة الجران . شوهاء العيان في كثير من الأمر . قد توزع كل ذي حق حقه . ويئس من كل خير خبرُ أهله . فلهوات الشر فاغرة ، وأنياب السوء كاشرة ، وعيون الباطل خزْر وأهلوه شزر . ولئن نكرتم أمر عثمان ، وبشعتم الدعة لتنكرن غير ذلك من غيره ، حين لا ينفعكم عتاب ، ولا يسمع منكم استعتاب .

فهرس الكتاب



المراجع المعتمدة للتحقيق

تاريخ الكامل لابن الأثير : الجزء الثالث الطبعة الأولى بالمطبعة الأزهرية المصرية ١٣٠١ هـ .

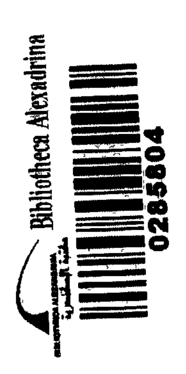
تاريخ ابن جرير الطبري : الجزء الخامس .

البداية والنهاية ابن كثير : الجزء السابع .

البداية والنهاية مروج الذهب : الجزء الثاني .

رقم الايداع ٨٨/٢١٨٨




Bibliotheca Alexandrina
0285804